جامعة اليرموك

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

" الحمل على المعنى وأثره الدلالي في القرآن الكريم ، دراسة لغوية ونحوية "

إعداد الطالب :

حسن عثمان محمود عثمان

إشراف الأستاذ الدكتور :

حنا حداد

الفصل الصيفي

٢٠٠٣

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

** العمل على المعنى وأثره الدلالي في القرآن الكريم **

إعداد الطالب :

حسن عثمان محمود عثمان

بكالوريوس لغة عربية – جامعة الزيتونة الأردنية ٢٠٠١م

بحث مقدم لاستكمال متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها ، تخصص لغة ونحو . كلية الآداب – جامعة اليرموك.

لجنة المناقشة :

– الأستاذ الدكتور : حنا حداد .....رئيساً ومشرفاً .

– الأستاذ الدكتور : يحيى عبابنة (جامعة مؤتة) .....عضواً .

– الأستاذ الدكتور : سمير استيتية .....عضواً .

– الأستاذ الدكتور : محمود درابسة .....عضواً .

٢٠٠٣م

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- الإهداء -

إلَـى مَنْ حبَّبا القرآن الكريم إلـيّ ... .

إلى من اتّخذتُ أعيُنَهما مصباحاً في ظلمتي ...

واتّخذتُ وجهيهما أنيساً في دياجير الظلام ...

إلى والديّ العزيزين

أهدي هذا العمل .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- شكر وتقدير -

أتقدم بالثناء الجميل إلى المشرف الأستاذ الدكتور حنا حداد .

وإني لأسدي الشكر خالصاً ، وأثني أطيب الثناء وأزكاه على أعضاء لجنة المناقشة . الأستاذ الدكتور يحيى عبابنة . والأستاذ الدكتور سمير استيتية والأستاذ الدكتور محمود درابسة لقبولهم مناقشة هذه الرسالة.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

- مسرد الموضوعات -

الموضوع	الصفحة
الإهداء	ب
الشكر والتقدير	ج
مسرد الموضوعات	د
المقدمة	و
ملخص الدراسة باللغة العربية	ي
- الفصل الأول -	١
أصناف العلة	٤
الحمل على المعنى لغة واصطلاحاً	٩
فصائل الحمل على المعنى	١١
التضمين	١٢
آراء أهل العربية في التضمين	٣٩
التيارات النحوية البصرية	٤٤
تعلّات الخليل في الحمل على المعنى	٥٥
تعلات سيبويه في الحمل على المعنى	٧١
تعلات يونس في الحمل على المعنى	٧٦
- الفصل الثاني -	٧٧
السياق واهتمام أهل العربية به	٧٩
أثر السياق في الحمل على المعنى	٨٨
فصيلة تذكير المؤنث	٨٨
فصيلة تأنيث المذكر	٩٩

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

التعبير عن الجمع بلفظ الواحد	١٠٥
التعبير عما دون الجمع بلفظ الجمع	١١٤
حمـــل الثانـــي على لفظ قد يكون عليه الأول ، أصلاً كان ذلك اللفظ أو فرعاً	١٢٠
مراعاة المعنى في الألفاظ المبهمة وفي الجموع	١٣٢
تشقيقات المعاني وأبعادها الدلالية	١٤٤
- الفصل الثالث -	١٥٨
التفسير القرآني	١٦٠
القـــراءات القرآنـــية المتواترة والشاذة المحمولة على المعنى	١٧١
قائمة المصادر والمراجع	١٩٠
ملخص الدراسة باللغة الإنجليزية	٢١١
الخاتمة	٢١٣

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

** المقدمة **

بسم الله الرحمن الرحيم

" رب اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ".

الحمـــد لله ربّ العالمين، الذي أنزل على عبده الكتاب تبصرةً لأولي الألباب: اللهـــمّ أحمدك حمداً طيباً يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك. أحمدك – سبحانك – لا موهبة إلا منك، ولا مفزع إلاّ إليك ، ولايُسّر إلا في ما يسّرتَه ، ولا مصلحة إلا فـــي مـــا قدّرتَه ، لك الحكم وإليك المصير . وصلّ اللهم على سيدنا محمد المبعوث رحمةً للعالمين ، وعلى سائر أنبيائك المصطَفَيْنَ الأخيار.

وبعد :

فهـــذه دراســـة في علة الحمل على المعنى ، لا أقول إنها جديدة في بابها ، فـــإنّ الـــنحاة واللغويـــين المتقدميـــن تحدثوا عنها باقتضاب دون أن يفصّلوا ، وإن ذكـــروها فمـــن وراء جُدُر، إلاّ ابن جني (ت٣٩٢) ، فقد تناولها في الخصائص تحـــت بـــاب شـــجاعة العربية ، ولم يزد على تعريفها وذكر فصائلها وتَعداد بعض الآيات والمواطن التي ورد فيها حمل على المعنى شعراً ونثراً .

وقـــد ذكـــرها فريق من العلماء في مصنفاتهم غير مفردين لها باباً أو فصلاً وإنّمـــا كانوا يذكرون الآية ويفسّرونها ويذكرون أحكامها ويحددون الوظيفة النحوية لها ، ومن جملة شرحهم لها يقولون : وهذه الآية محمولة على المعنى .

تُعـــدّ علة الحمل على المعنى من العلل الكثيرة التي تنيف على عشرين علة كمـــا جاء في كتاب " ثمار الصناعة " للجليس النحوي المتوفى في حدود (٤٩٠هـــ) وفي الاقتراح للسيوطي (ت ٩١١هـــ) .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقــد عوّل النحويون عليها لفهم بعض مستويات اللغة ووجوه الإعراب التي ترد في نصوص الشعر والنثر، أو في كتاب الله العزيز أو الأحاديث النبوية .

أمــا مسوغات هذه الدراسة فهي أنّ هذه العلة جديرة باهتمام الباحثين لما لها مــن أثــر في إزالة بعض الغموض الذي يعتري النصوص على اختلافها، فبعض الآيــات لا نكاد نفهمه فهماً صحيحاً حتى نحمل الآية على المعنى ، فيستقيم فهمنا له حينــئذ ، فضــلاً عــن العلاقة القوية التي تربط هذه العلة بالنحو ، فبعض الكلمات نجدهــا مضــبوطة في القرآن على غير ما عهدناه في المطوّلات النحوية ، فما أنْ نجهد الفكر قليلاً ونستعمل علة الحمل على المعنى حتى تستقيمَ لنا وجوه المعاني .

إنّ الموضــوع لــم يحــظَ بالعناية الكافية ؛ لذلك عمدتُ إلى البحث في هذا الجانب من اللغة والنحو ، خاصة في جانبيهما التركيبي والوظيفي .

قامت هذه الدراسة على فصول ثلاثة ، في كلّ فصل مبحثان :

أمّــا الفصــل الأول فقــد تحدّثت فيه عن اعتلالات النحويين ، وعن العلل التعليمــية البســيطة التــي تهــدف إلى تعليم اللغة ، وإكساب الناشئة مهارة النطق والاستعمال .

وتناولــت علــة الحمل على المعنى لغة واصطلاحاً، وبيّنت أركانها الأربعة وهي المقيس عليه ، والمقيس ، والعلة ، والحكم .

وقــد أفضــت في الحديث عن التضمين ومواطنه ، ووقفت على الأغراض التــي يؤديهــا مــن حيــث الحقــيقةُ والمجاز وغيرُ ذلك، مع الإشارة إلى اختلاف المدرســتين البصرية والكوفية حوله، وخَلَصتُ في نهاية المبحث الأوّل إلى أنه على كــلّ متخصــص بالعربية أو غير متخصص أن يلمّ بالتضمين ومواطنه لئلا يَبْهَتَ ويحارَ إذا وقع بين يديه نص فيه تضمين فيكون إلمامه به معينا له على فهمه .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وتحدثتُ في المبحث الثاني عن تعلاّت النحويين في الحمل على المعنى وخصوصاً عند الخليل وسيبويه (ت ١٨٠هـ) . وعن المناهج التي انحدرت من المدرسة البصرية .

أمّا الفصل الثاني فقد تحدثت فيه عن أثر السياق في الحمل على المعنى وعن اهتمام العلماء المتقدمين بالسياق . فإذا اعتاص على أحدهم معنى كلمة أو تفسير آية وجدناه يُهرع إلى السياق القرآني يستفتيه .

وبيّنت في المبحث الثاني تأثير المستوى الصرفي والصوتي والدلالي على الألفاظ المحمولة على المعنى ، وبيّنت كيف أنّ الأبعاد الدلالية تتسع تحت ظلال تشقيق المعاني ، والمعوّل في كلّ ذلك على المعجمات اللغوية التي تعدد معاني الكلمة في كل سياق ترد فيه . وقد خَلَصت إلى أن الحمل على المعنى يؤثر في الاقتصاد اللغوي ، وهذا نوع من الإيجاز ، وفي الإيجاز بلاغة عظمى . كما أن الحمل على المعنى يخدم الجانب الموسيقي ، فهو يراعي رؤوس الآيات مثلاً. ومن نتائج هذه الدراسة ، أن الحمل على المعنى يشمل أسلوب الالتفات في البلاغة ؛ لذلك فإن الحمل على المعنى أسلوب بلاغي ممتع يشد السامع ، ويسترعي انتباهه.

وجعلت الفصل الثالث في مجالات التركيب الوظيفي في الحمل على المعنى ، فطرقْتُ باب التفسير مستعيناً بكتب التفسير القديمة ، كتفسير الطبري (ت ٣١٠ هـ) وتفسير الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، وتفسير أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) .

وختمت الدراسة بمبحث في القراءات القرآنية ، وبيّنت وجه كلّ قراءة من حيث حملها على المعنى .

ولكم أشفقتُ على نفسي وأنا أكتب هذه الدراسة !؟ ؛ لأني أعلم أنّ ما من أحد منّا اقتحم مثل هذا الميدان القرآني ، إلاّ وقد انزلق به القلم إلى الجراءة على

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

القــرآن ، فزلّــت قدمه بعد ثبوتها . وما أيسر العثار عليّ لو كان في غير القرآن ! أمــا وقــد كــان فيه ، فإني أعوذ بالله من سوء الفهم وضلال الرأي ، وأبرأ إليه – سبحانه – من التكلف لما لا أحسن الخوض في ما لستُ له بأهل .

وأخــيراً ، لا يفوتنــي أنْ أزجيَ الثناء الجميل والشكر الجزيل إلى المشرف الأســتاذ الدكــتور حنا حداد . والأستاذ الدكتور سمير استيتية الذي أفادني بملاحظه القــيمة ولــم يدّخر من جهده مثقال بُرّة لتقويم اعوجاج الرسالة ، في الوقت الذي كان فيه أحوج الناس إلى الراحة .

كمــا لا يفوتنــي أن أحيي عضوي لجنة المناقشة تحية طيبة لقبولهما مناقشة هــذه الرســالة ، وأخــصّ بالذكر الأستاذ الدكتور يحيى عبابنة ، الذي تجشّم عناء الســفر وعــناء القــراءة ، وأيضاً أشكر للأستاذ الدكتور محمود درابسة على قبوله مناقشة هذه الرسالة ، فبارك الله فيهم جميعاً .

والحمد لله ربّ العرش العظيم

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

– ملخص الدراسة –

" الحمل على المعنى وأثره الدلالي في القرآن الكريم ، دراسة لغوية ونحوية " .

٢٠٠٣م .

يعد التأويل النحوي من الأركان الأساسية التي أسهمت في بناء الهرم النحوي بمختلف جوانبه ، كاستخلاص القواعد والحفاظ عليها ، وتعليل الأحكام النحوية أو تقعيد الدرس النحوي .

وقد استند النحاة في اعتمادهم على التأويل إلى أدوات مختلفة مكنتهم من فهم ما وقع بين أيديهم من شواهد شعرية وآيات قرآنية ، وتمثلت تلك الأدوات في العلل النحويّة الكثيرة ، كالضرورة الشعرية ، والسماع ، والاستثقال ، والرد إلى الأصل والحمل على الجوار وغيرها . وكل هذه العلل تتساق إلى لغة العرب وتطّرد على كلامهم ، وفي مقدمة هذه العلل ، علة الحمل على المعنى ، وهي علة بسيطة ، إلا أنها تضطرنا إلى الاستعانة ببعض معجمات اللغة ، أو كتب النحو واللغة ، وكتب التفسير . وقد أخذ النحاة يستندون إليها لتخريج كثير من الآيات القرآنية ، وقد عدّها بعض النحاة لوناً من ألوان الاجتراء على نظام تلك اللغة بالانحراف عن أنماطها المألوفة ، ولذلك أدرجوها تحت باب شجاعة العربية .

ولعلة الحمل على المعنى أشكال أو فصائل لغوية ونحوية استخدمها النحاة في إطار أسلوب الحمل على المعنى الذي اعتمده النحاة كأسلوب من أساليب تأويل النصوص التي لم تطابق القواعد المطّردة . وأهمّ صور التأويل التي استخدمها هي تذكير المؤنث ، وتأنيث المذكر ، والتعبير عن الجمع بلفظ الواحد ، والتعبير عن الواحد والاثنين بلفظ الجمع ، وحمل الثاني على لفظ قد يكون عليه الأوّل أصلاً كان ذلك اللفظ أو فرعاً ، ومراعاة المعنى في الألفاظ المبهمة وأسماء الجموع ، والتضمين.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويمكـــن الاســـتعانة بالســـياق للكشف عن المعنى، فله أثر في تحديد المعنى وفهـــم الكـــلام بوساطة إدراك العلاقة بين الكلمة وغيرها فلا فصل بين المعاني في الســـياق ، وحصـــر معنى الكلمة في سياقها يحدّد أنها محمولة على المعنى . وممّا يكشـــف عن الحمل على المعنى تشقيق المعاني ؛ إذ يشرح مفردات الألفاظ ودلالتها بحســـب الموضـــع ، والـــذي يُعنى بالكشف عن ذلك هو علم المعاجم ، فلا بدّ من الـــرجوع إلـــى كتب اللغة المتخصصة لمعرفة اشتقاق الكلمة . ودلالة كل اشتقاق ، ومن ثمّ يسهل معرفة الحمل على المعنى .

وممّـــا يســـهم أيضاً في تحديد صورة الحمل على المعنى ، التفسير القرآني فـــإذا مـــا أوّل المفسّرون لفظاً بآخر ، فإنّ ذلك يعدّ كشفاً عن المعنى ، وبالتالي فإنّ هذا الكشف يساعد على فهم الحمل على المعنى في القرآن الكريم .

وخلاصـــة القـــول فـــي هـــذه العلة أنها علة ظريفة بعيدة عن العلل الفلسفية المعقدة وتساعد على فهم تفسير القرآن فهماً صحيحاً .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الأول

العلل النحوية ، أنواعها ، واهتمام العلماء بها

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الأوّل

علّة الحمل على المعنى والتضمين

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الأوّل

علّة الحمل على المعنى والتضمين

كـــان العـــرب – قبل شيوع اللّحن- يتكلمون بلغتهم سليقة لا تعليماً وتلقيناً حســب أصـــول مقـــرّرة أو قواعد محدّدة ، ولكن بعد أن فشا اللّحْن بين الناس قام بعض النحويين فصنفوا الظواهر اللغوية المختلفة وحالات الكلام المتباينة وسهروا لياليَ طوالاً في تهذيب اللغة وتقنينها ، ووضعوا لتلك الظواهر اللغوية مصطلحات تعيـــن على توضيحها وتثبيتها في الأذهان ؛ حرصاً منهم على أداء نصوص الذكر الحكيم أداء فصيحاً إلى أبعد حدود السلامة [1]، ولمّا ارتقت العقول بما أتيح لها من الاطـــلاع على الثقافات الأخرى، أخذ هؤلاء النحاة يبحثون عن علل يفسّرون بها تلـــك الظواهـــر والحـــالات ، ويساعدهم على ذلك ارتقاء ملكات عقولهم في بسط قواعد النحو وعلله. لا بدّ من الإشارة إلى أنّ علل النحويين كانت في البداية سهلة مستســـاغة، ثمّ أخذت مع تقادم الوقت تزداد تعقيداً ؛ لأنّها صبغت بصبغة فلسفية ، وطبعـــت بطابع المنطق الذي تفرّع من الفلسفة اليونانيّة. ونجد ابن جنّي (ت ٣٩٢ هـــ) يعـــبّر عـــنها أبلـــغ تعبير فيقول:" اعلم أنّ علل النحويين أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين، وذلك أنّهم إنما يحيلون على الحسّ ، ويحتجّون فيه بثقل الحال أو خفّتها على النفس..." [2].

ويأتـــي كـــلام ابـــن جنـــي هذا ردا على بعض النحاة الذين وصفوا العلل بالضعف ورموْها بالقصور ، كابن فارس (ت ٣٩٥هـــ) الذي أنشد :

---

[1]- انظر : ضيف شوقي ، المدارس النحوية ط٧ سنة ١٩٩٢ دار المعارف – مصر . ص١١

[2]- ابـــن جني ، أبو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص تحقيق : محمد علي النجار ط٢ سنة ١٩٥٢- المكتبة العلمية . جـــ١ ص ٤٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تـــرنو بطـــرفٍ فاتـــرٍ فاتـــنِ

أضـــعفَ مـــن حجّة نحويّ . [1]

فكـــان قصد ابن جني إبداء حكمة العرب وسداد مقاصدهم في ما أتَوْا به في لغتهم ، وكان ذلك بإبداء العلل لسننهم وخططهم في تأليف لسانهم ، فأخذ نفسه في تقويـــة العلل التي تُنسب إلى أفعالهم ، وتحمل عليهم ؛ لا سيَّما أنَّ النحاة المتقدّمين قـــد عوّلـــوا على كثير من العلل حتى يفهموا ويقفوا على كلام العرب إدراكاً ، أو كـــتاب الله العزيـــز، أو أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو أشعار الشعراء على اختلاف طبقاتهم .

إن علـــل النحويين صنفان: علة تطرد على كلام العرب وتتساق إلى قانون لغتهم[2]، وهذا الصنف يمثل الجانب اللغوي للنحو، والغاية منه معرفة كلام العرب وله مصطلح ثان هو العلل التعليمية الذي أطلقه الزجاجي (ت ٣٤٠ هـــ). ولا شك فـــي أن العلـــل التعليمـــية مفيدة ، هدفها تعليم اللغة، وإكساب الناشئة مهارة النطق والاســـتعمال [3]، وعلـــة تظهر حكمتهم في أصوله وتكشف عن صحة أغراضهم ومقاصـــدهم فـــي موضوعاته. وهم للأولى أكثر استعمالا وأشدّ تداولا. ثم يصفها بأنهـــا واســـعة الشـــعب كثـــيرة الافتنان.والمشهور منها يقع على ثلاثة وعشرين ضربا[4]، وقد استدرك السيوطي (ت٩١١هـــ) عليه بعلّة واحدة،هي علة الجواز[5]

---

[1]- ابـــن خلّكـــان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ت ٦٨١هـــ ، وفيات الأعيان ، تحقيق : إحسان عباس . دار صادر ، بيروت – لبنان. جـــ١ ص ١١٩

[2]- انظر: الجليس النحوي . أبو عبد الله الحسين بن موسى ت في حدود ٤٩٠هـــ ، ثمار الصناعة تحقيق : حنا حداد ط١ ١٩٩٤ ، وزارة الثقافة ، عمان – الأردن . ص ٣٤

[3]- انظـــر: حـــبلص محمد يوسف ، بحث " الحمل على المعنى عند النحاة العرب " حوليات كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٩٢ م . العدد ١٥ص ١٣٧

[4] – انظر: ثمار الصناعة ص ٣٤ .

[5]- انظر: السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. الاقتراح ، تحقيق : محمد حسن الشافعي ط١ سنة ١٩٩٨م ، دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان . ص ٧٢

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فأتمها أربعا وعشرين علة. أذكر منها: علة سماع وعلة تشبيه وعلة استغناء وعلة فرق وعلة استثقال وعلة توكيد وعلة تعويض وعلة نظير وعلة نقيض وعلة مشاكلة وعلة معادلة وعلة قرب وعلة مجاورة وعلة وجوب وعلة الحمل على المعنى (وهي مدار دراستي)... ويذهب سعيد الأفغاني (ت ١٩٩٧م) إلى أنّ هذه العلل التي تنساق إلى لغة العرب وتطرد على كلامهم علل حسية مقبولة [١] .

وقد جعلت اهتمامي في العلل التعليمية فحسب ؛ لفائدتها الجليلة دون غيرها من العلل، فلا يُتَوَصّل إلى كلام العرب إلا بها، فلا تثريب عليّ – من هنا – أن أهمل تينك العلتين، وهما: العلة القياسية والعلة الجدلية النظرية [٢].

ونستطيع إدراج العلل الأول تحت العلل التعليمية ؛ لأنها تقوم على أساس التعليل ، وهدفها التعليم . والتعليل من الأسس المتينة التي شاد عليها النحاة صرحهم، حتى بالغوا فيه ، يواطئون به أكناف تلك القواعد بهدف التعليم.

وليست العلل الثواني والثوالث أو ما يسمى بعلة العلة إلا مصنوعة متكلّفة وإن كانت عللاً عقلية ، ولكنها لا تدخل العقول إلا على تجشم واستكراه ، حتى وجدنا ابن مضاء القرطبي (ت ٥٩٢هـ) يدعو إلى إلغائها ؛ لأنه لا فائدة تجنى من معرفتها، وقد أُثقل كاهل النحو بها، ويرى أنه من الضروري معرفة العلل الأول والوقوف عليها فهما وإدراكا [٣].

---

[١] – انظر: الأفغاني سعيد ، في أصول النحو ط ١٩٨٧ ، المكتب الإسلامي . ص ١١٤

[٢] – انظر: الزجاجي . أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق ، الإيضاح في علل النحو تحقيق : مازن المبارك ط ١٩٥٩ ، مكتبة دار العروبة ، القاهرة – مصر . ص ٦٦

[٣] – انظر: ابن مضاء القرطبي ، الرد على النحاة ، تحقيق : شوقي ضيف ، ط٢ ١٩٨٢ ، دار المعارف بمصر . ص ٦٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولســت أشك في أن علة الحمل على المعنى من العلل التي تزيل الغموض عــن كــلام العــرب وأشعارهم، فهي- إذًا - علة جديرة بالاهتمام عند ابن مضاء وغيره ، ومن استنبط منها شيئا فقد ظَفِرَ بطائل .

ثم راح الضيق بتلك العلل الفلسفية يتسلل إلى علماء العربية المعاصرين لما فيها من جدل العلماء وإسفافهم . يقول الشيخ محمد الخضر حسين (ت ١٩٥٦ م) : " ولا يسـعك بعد هذا إلا أن تسلّ يدك من هذه المجادلة وتنفصل منها ، وليس في ذهنك أثارة من علم ". [١]

وكثــيرون غــيره لم ينظروا إلى تلك العلل بعين الرضى ؛ إذ يرونها من تأويلات المتأولين وتعقيدات المعقدين وتفريعات النحاة .

ولكــنّ العلل التعليمية جرت جريانا طبيعيا تخلو من تشتيت وتعقيد ، فتقبلها الناس بقبول حسن، حتى وجدنا إمام النحاة سيبويه (ت ١٨٠هـ) قد ملأ كتابه بها. وســأبين جهــوده وجهود شيوخه وإسهامهم في تثبيت العلل التعليمية في المبحث الثاني من هذا الفصل إن شاء الله. وقد وثّقها المعاصرون ونادَوْا بها ، أمثال أحمد عــبد الســتار ، وعــبد الرحمــن أيوب ، وشوقي ضيف ، ومحمد الخضر حسين وغــيرهم ، ودَعَوْا إلى وجوب بقائها ؛ لأن فيها النفع كل النفع ، وطرح ما عداها من العلل التي لا فائدة فيها .[٢]

إن العلــل الثوالث أو الجدلية هي علل نشأت بين الباحثين في شكل تمارين غــير عملية بقصد تفتيق المسائل ، وتشقيق القضايا، ولا أحسب أنّ لها أثرا كبيرا فــي اللغة وقواعدها، وليس لها قيمة علمية أكثر من توسيع المدارك لدى الباحثين وإطلاق الحرية للخيال العلمي[٣]، الأمر الذي جعل أكثر نقاد النحو يهاجمون فلسفة

---

[١]- حسـين محمــد الخضر ، دراسات في العربية وتاريخها ط٢ ١٩٦٠، المكتب الإسلامي- دمشق. ص ٧٤

[٢] – انظر: الحديثي خديجة ، دراسات في كتاب سيبويه وكالة المطبوعات – الكويت . ص ٢١٢

[٣]- انظر: محمد حبلص ، بحث " الحمل على المعنى عند النحاة العرب " ص١٣٨ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

العلـــل فـــي إجمالها ، وشنوا عليها حملة لا هوادة فيها ، ولكنهم خلطوا في حربهم بيـــن الـــنافع من تلك العلل والضار، مستشهدين على فساد العلل بأمثلة من النوع الثالث والأخير، أو بأمثلة من النوع الثاني في معرض الدليل على عدم أهميتها في العملية التعليمية. وقد استحسنت رأي محمد يوسف في هذه القضية، ويتمثل في أن " مهاجمـــة نظرية التعليل في إجمالها ومن منظور العملية وحدها، فيه تعميم وخلط يجافي روح العلم " .[1]

وقـــد كانـــت تلك العلل مدار جدل بين النحاة ومحور خلاف ، إذ إن المبرد (ت ٢٨٥هـــ) خالف في المقتضب سيبويه في كثير من المسائل، ولم يكن خلافه فيها كلها حول الحكم النحوي، وإنما كان في كثير منها حول علة ذلك الحكم.[2]

ولم يبلغ القرن الثالث نهايته حتى كانت علل النحو موضوعا ذا قيمة ترمقه أنظـــار النحاة ، ويكتبون فيه ويتخذون منه وسيلة امتحان واختبار.[3] ودليل على صـــحة هـــذا القـــول مـــا قاله الزجاج (ت٣١١هـــ):" لما قدم المبرد بغداد، جئت لأناظـــره، وكنـــت أقرأ على أبي العباس ثعلب (ت٢٩٢هـــ)، فعزمت على إعنائه فلما فاتحته ألجمني بالحجة وطالبني بالعلة وألزمني إلزامات لم أهتد إليها " [4].

وقـــول الـــزجاج يقف شاهدا على أن علماء القرن الثالث عُنوا بالعلة حتى باتت عندهم رديف الحكم النحوي، لا تفارقه ولا ينبغي لها أن تفارقه [5]. ولا شك أن قسما عظيما من هذه العلل مستنبط بالفكر والروية، وهو ما أطلق عليه تعليلات

---

[1]- المرجع السابق ص ١٣٨ .

[2]- انظر : المبارك مازن ، النحو العربي : العلة النحوية نشأتها وتطورها ط٢ سنة ١٩٧١ دار الفكر . ص ٦٨

[3]- انظر: المرجع السابق ص ٧١

[4]- الأنـــباري، أبـــو الـــبركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ت ٥٧٧ هـــ نزهة الألباء ، تحقيق: إبراهيم السامرائي ط ٣ سنة ١٩٨٥ ، مكتبة المنار – الأردن. ص ٢٩٠

[5]- انظر: النحو العربي ، العلة النحوية نشأتها وتطورها ص ٦٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

النحاة [1] ، ولست تجد شيئا مما علل به القوم وجوه الإعراب إلا والنفس تقبله والحس منطوٍ على الاعتراف به ، هذا ؛ لأنهم استندوا إلى العلل التعليمية أو العلل الأول.

حين كان العربي يستخدم اللغة كان يعي بحسه اللغوي حكمة ما يفعل، وكان أحيانا يفصح عن هذا، فقد روي عن سيد القرّاء أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) أنه سمع رجلا يمنيا يقول: " فلان لَغوب – أي أحمق – جاءته كتابي فاحتقرها " فسأله أبو عمرو : أتقول جاءته كتابي ؟! وسؤال أبي عمرو هذا عن علة تأنيث الفعل مع أن الفاعل مذكر، فقال اليمني : نعم. أليس الكتاب بصحيفة [2] ؟.

فالأعرابي أنث الفعل مراعاة للمعنى أو حملا على المعنى، ومن هنا أدرك علماء العربية قيمة هذه العلة، وأولوا العلل التعليمية الأخرى اهتماما خاصا، وقد أفرد ابن جني لعلة الحمل على المعنى فصلا خاصا بها، وجعلها فرعا من فروع "شجاعة العربية ". يقول عنها: " اعلم أن هذا الشرح– أي النوع– غور من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح، قد ورد به القرآن وفصيح الكلام منثورا ومنظوما ...".[3]

وتقوم هذه العلة على قياس ظاهرة على ظاهرة ، وإعطاء المقيس حكم المقيس عليه لعلة اشتراكهما في المعنى. كقوله تعالى: **[وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا]** *(الكهف ١٨/ ٤٣)* .

فالمقيس عليه : تنصره .

والمقيس : ينصرونه .

١- انظر: الاقتراح ص ٤٥ .

٢- انظر: الخبر في الخصائص ج١ ص ٢٤٩ . وانظر أيضا ج٢ ص ٤١٦

٣- المصدر السابق ج٢ ص ٤١١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والعلة : الحمل على المعنى .

والحكـــم : الجمـــع ، فقد أعطى " فئة " حكم الجمع، وهي مفردة لفظا؛ لعلة قياسية هي الحمل على المعنى .

- **الحمل لغة:** هو ما كان لازما للشيء [1]، ومنه الفعل حملت الشيء على ظهري أحمله حملا.ومنه قوله تعالى:**[فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِا وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١)]** *(طه ٢٠/١٠٠-١٠١)* أي وزرا.

أحملْـتُه: أعنـته على الحمل. وحمل على نفسه في السير: أي جهدها فيه. والحمالة: بالفتح: ما تتحمله عن القوم من الدية أو الغرامة، والحميل هو الكفيل.[2] ويذهـب ابن فارس إلى أن الجذر المكون من الحاء والميم واللام أصل واحد يدل على تقليل الشيء ، وأسرع معاني هذا الجذر قفزاً إلى العقل هو أن الحمل ما كان فـي بطـن أو علـى رأس شـجر، واحـتمله الغضب، وأقله الغضب، وذلك إذا أزعجه.[3] حمله على الأمر، يحمله حملا فاندمل: أغراه به. استحمله نفسه: حمّله حوائجـه وأموره [4] وقال ابن جني: حملّته بتعدية الفعل إلى مفعوله مباشرة دون وسـاطة حـرف الجـر، وهي اللغة الأعلى كقوله تعالى: **[...حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ...]** *(الأحقاف ٤٦ / ١٥).*

---

[1]- انظـر: الأزهري . أبو منصور محمد بن أحمد ت ٣٧٠ هـ ، تهذيب اللغة ، تحقيق: عبد السلام هارون ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر . مادة " حمل "

[2]- انظـر: الجوهـري ، إسماعيل بن حماد ت ٣٩٣ هـ ، الصحاح " تاج اللغة وصحاح العربية " ، تحقـيق : أحمـد عبد الغفور عطار ، ط٢ سنة ١٩٧٩ م ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان . مادة "حمل"

[3]- انظـر : ابـن فـارس . أبـو الحسين أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق: عبد السلام هارون ، ط١ سنة ١٩٩١ م ، دار الجيل ، بيروت – لبنان . مادة " حمل "

[4]- انظـر : ابن منظور . أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت ٧١١ هـ لسان العرب . ، دار صادر ، بيروت – لبنان . مادة " حمل "

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وقد يتعدى الفعل بحرف الجر "الباء" في قولهم: حَمَلْتُ به وقد ورد ذلك في فصيح الكلام ، وإنما جاز ذلك ؛ لأنه بمعنى عَلِقْتُ به.[1]

الحَمْـل اصطلاحا: هو إعطاء شيء حكم شيء آخر، وذكر ابن جنّي أن هذا مـن دأب العـرب وعادتهم، وهو عندهم سنة متبعة مسلوكة " إذا أعْطَوْا شيئا من شـيء حكما ما قابلوا ذلك بأن يعطوا المأخوذ منه حكماً من أحكام صاحبه عمارة بينهما وتتميما للشبه الجامع لهما ".[2]

ويقولـون : ألحـق كـذا بكذا إذا أتبعه به ، يقول الكفوي (ت ١٠٩٤هـ) " إلحاق القليل بالكثير والفرد النادر بالأعم الأغلب، طريق من طرق الصواب " [3]

وحمل النظير على النظير عند النحاة : إجراؤه مجرى نظيره باعتبار جامع بينهما .[4]

وقيل : حمل الشيء على الشيء: إلحاقه به في حكمه، أو هو نسبة أمر إلى آخـر إيجابـا أو سـلبا، فـإذا حكمنا بشيء على شيء فـقـلنا مثلا: إن الإنسان حـيوان، فالمـحكوم به يقال له المحمول، والمحـكوم عليه يقال له الموضوع [5]. وحمل الشيء على الشيء: ألحقه به في حكمه .[6]

---

[1]- المصدر السابق ، والمادة ذاتها .

[2]- الخصائص ج١ ص٦٣ .

[3]- الكفوي ، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، الكليات " معجم في المصطلحات والفروق اللغوية " ، وضع فهارسه عدنان درويش وزميله ط١٩٧٦ منشورات وزارة الثقافة . ج٥ ص٣٠٢

[4]- انظـر: البسـتاني بطرس ت ١٨٨٣م، محيط المحيط، ، ط١٩٧٧، مكتبة لبنان – بيروت . مادة " حمل "

[5]- انظـر: صـليبا جميل ، المعجم الفلسفي ط١٩٧١، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان . جـ١ ص ٤٩٨

[6]- مصطفى إبراهيم ت ١٩٦٢ م ورفاقه . المعجم الوسيط ، ط٦ سنة ١٩٩٤. مادة " حمل "

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لـــم يكن اللجوء إلى علّة الحمل على المعنى وليد العصور المتأخرة ، بل لجأ إليها المتقدمون كعيسى بن عمر(ت ١٤٩هـــ) وأبي الخطاب الأخفش(ت١٧٧ هـــ) وتلمـــيذه سيبويه، والخليل (ت ١٧٥هـــ) وغيرهم، وقد عرض سيبويه لتعلاتهم في كتابه، وهو كتاب نحو وقياس وعلة ، يعلم طريق القياس وأسلوب التعليل كما يعلم الحكـــم الـــنحوي [١]، وعلى ذلك فليس لنا أن ننكر اتصال التعليل بالقياس اتصالا وثيقا أو على أقل تقدير هو فرع منه [٢].

لعلـــة الحمـــل على المعنى أشكال وصور استخدمها النحاة في إطار أسلوب " الحمـــل علـــى المعـــنى" الـــذي اعتمده النحاة باعتباره أسلوبا من أساليب تأويل النصوص التي لم تطابق القواعد المطردة . وأهم صور التأويل التي استخدموها :

١-تذكير المؤنث .
٢-تأنيث المذكر .
٣-التعبير عن الجمع بلفظ الواحد .
٤-التعبـــير عما دون الجمع بلفظ الجمع، والمقصود بـــ(ما دون الجمع) هو واحد أو اثنان ؛ لأن الجمع عند النحاة أقله ثلاثة .[٣]
٥-مـــا صـــرح به ابن جني بقوله : " حمل الثاني على لفظ قد يكون عليه الأول أصلا كان ذلك اللفظ أو فرعا " .[٤]

---

[١]- انظر: النحو العربي : العلة النحوية ، نشأتها وتطورها ص ٦٠ .

[٢] - انظـــر: حسن عباس ، اللغة والنحو بين القديم والحديث ط٣ دار المعارف، القاهرة – مصر. ص ١٤٣

[٣]- انظـــر: حســن عـــبد الفتاح ، ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية ط١ سنة ١٩٩٨. دار الفكر ، عمان – الأردن . ص ٢٣٣

[٤]- الخصائص ج٢ ص ٤١١

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهذه الصورة الأخيرة يتفرع عنها وجهان :

أ – الحمـــل على التوهم : أي أن القائل يتوهم شيئا شاع استعماله، وعرف بكثرته فـــي المحمـــول علـــيه، واشـــترط محمد علي الصبان (ت ١٢٠٦هـــ) لصحة المـــتوهم دخول عامل التوهم، وأما كثرة دخوله فشرط في حسنه؛ ولهذا حَسُن قولهـــم: لستَ قاعدًا ولا قائمٍ ، بالجر؛ لأنه عطف لفظ (قائمٍ) على خبر ليس الذي يكثر دخول الباء الجارة عليه .

ب– الالـــتفات إلـــى المعـــنى في المحمول عليه ، وملاحظة وقوع هذا المعنى في الثاني المحمول.

٦–مـــراعاة المعـــنى في الألفاظ المبهمة وفي الجموع، وهذه الألفاظ يجوز الحمل مرة على لفظها، وأخرى على معناها، وأشهرها: كلا– كلتا– كل– كم– مَنْ [١].

٧–التضـــمين: وهـــو فـــرع مـــن فروع الحمل على المعنى، وقد قدّمت موضعه بالتمثيل؛ لطرافته وحُسْن متناوله وجليل فائدته، وأفردته في هذا المبحث لنفاسته.

والتضـــمين مـــن قولهـــم: ضَـــمِنْت الشيء ضمانا: كَفَلْتُ به ، فأنا ضامن وضمين. ضمَّنْته الشيء: تضمينا فتضمَّنه عني، مثل غرَّمْته. وكل شيء جعلْتَه في وعـــاء فقـــد ضمَّنته إياه .[٢] وضمّن الشيء الشيء: أودعه إياه. فلان ضَمِنٌ على أهلـــه وأصحابه: أي كَلّ [٣]. وكل شيء أُحرز فيه شيء فقد ضمنه.[٤] وكل شيء جعلتَه وعاء الشيء فقد ضمّنته إياه .[٥]

١– انظر : ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية ص ٢٣٣

٢– انظـــر: الزبـــيدي ، محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـــ) تاج العروس من جواهر القاموس. الناشر دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازي . مادة "ضمن"

٣– انظر: لسان العرب مادة " ضمن " .

٤– انظر: تهذيب اللغة مادة " ضمن " .

٥– انظـــر: ابن دريد . أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـــ) ، جمهرة اللغة ، تحقيق: رمزي منير بعلبكي ط١ سنة ١٩٨٧ . دار العلم للملايين : بيروت – لبنان . مادة " ضمن"

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الضاد والميم والنون: جعلُ الشيء في الشيء يحويه [1].

أما اصطلاحا فقد جاء على عدة مقاصد لا يهمنا منها إلا اثنان هما :

١- التضمين البياني ٢- التضمين النحوي .

وقد يطلق التضمين عند إيقاع لفظ موقع غيره ومعاملتِه معاملتَه لتضمنه معناه واشتماله عليه، ومنهم من قال: هو إشراب لفظ معنى لفظ آخر وإعطاؤه حكمَه وأمثلته كثيرة في القرآن الكريم [2]، وهذا التعويض من سنن العرب ، فتقيم الكلمة مقام الكلمة وتوقع اللفظ موقع اللفظ [3]، وليس ذلك – في رأي الباحث – إلا لسعة العربية . وقد ذهب بعضهم مذهبا آخر ، فجعل مواضع التضمين واسعة، ولكن هذه السعة لا تدل على سعة البحث في الموضوع، أو أنهم تعمقوا في المشكلة فعرضوا لوجوهها جميعا، وإنما تدل على حيرتهم في البحث عن المعاني والأساليب، وربما كشف عن وقوفهم عند استعمالات لا يتجاوزونها إلى غيرها ، وما خلا هذه الاستعمالات فهو بين أن يكون محمولا على الخروج والخطأ والتجاوز ، وبين أنه داخل في باب التضمين إن لم يجدوا وجها إلى تخطئته وخروجه كأن يكون من كلام الله كقوله تعالى **[... أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ...]** *(الرعد ١٣ / ٣١).*

<u>إشراب فعل معنى فعل آخر :</u>

ذكر المفسرون أن المعنى " أفلم يعلم " وقد قالوا : إنها لغة نخع وهوازن ومن هؤلاء المفسرين السيوطي. ولستُ أؤيّد السامرّائي؛ إذ تستعمل المادة على

١- انظر: معجم مقاييس اللغة . مادة " ضمن " .

٢- انظر: ابن هشام ، جمال الدين الأنصاري ت ٧٦١هـ ، مغني اللبيب ، تحقيق : مازن المبارك وزميله . ط١ سنة ١٩٩٢ ، دار الفكر ، بيروت – لبنان . ص ٨٩٧

٣- انظر: السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها تحقيق : محمد أحمد جاد المولى ورفاقه ، منشورات المكتبة العصرية . بيروت – لبنان . ج١ ص ٣٣٨ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الحقيقة والمجاز في آن واحد، وليس اللجوء إلى التضمين في حالة اعتياص النص علينا فهما من قبيل الهروب، بل هو نوع من أنواع التفسير والتأويل، ثم إن التضمين يُعد ضربا من عشرة ضروب تشكلها البلاغة، وهي الإيجاز والتشبيه وحسن البيان، والاستعارة، والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف [1] والتضمين والمبالغة [2] .

ومن هذا أيضاً ما جاء في قوله تبارك وتعالى **[... وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ...]** *(النساء ٤/٢)*

فقد فسّر بعض اللغويين الحرف "إلى" في الآية بمعنى "مع" [3] وكأنّ المعنى عندهم " ولا تأكلوا أموالهم مع أموالكم "، ووجود حرف الجرّ "إلى" في سياق الاية يخلق إشكالاً في المعنى لمن نظر فيه ولم ينعم النظر ، فإلى هنا متعلقة بمحذوف وهو في موضع الحال أي : لا تأكلوا أموال هؤلاء اليتامى مضافة ومجموعة إلى أموالكم. فأموالكم هنا في الآية مفعول به على المعنى دون اللفظ [4]، وكأنّ المعنى لا تجمعوا بينهما فتأكلوهما. ألا ترى أنّ وجود حرف الجرّ "إلى" يضطرُنا إلى أن نؤوّل الكلام على وجه آخر غير ما يوحيه الفعل "تأكل" حتى يستقيم المعنى؟! ؛ لأنّ أكل الأموال لا يقتضي وجود حرف جارّ إلاّ إذا أشربَ فعل الأكل معنى آخر على غير حقيقته دون المسّ بالمعنى أو بالحكم الشرعي المفروض من هذا النّهي، كأن نقول: ولا تضمّوها – أي أموال اليتامى– إلى أموالكم فيحدث الاختلاط ويكون عنه أكل الحرام والسُحْت .

---

[1]– انظر: عبد الرحمن عائشة ت ١٩٩٨م ، الإعجاز البياني للقرآن ط٢ سنة ١٩٨٤ ، دار المعارف بمصر . ص ١٠٤

[2]– انظر: المرجع السابق ص ١٠٤ .

[3]– انظر: العكبري. أبو البقاء ، عبد الله بن الحسين ت٦١٦هـ اللباب في علل البناء والإعراب تحقيق : غازي مختار طليمات ط١ سنة ١٩٩٥ دار الفكر المعاصر– لبنان ودار الفكر – سورية . ج١ ص ٣٥٦

[4]– انظر : العكبري، التبيان في إعراب القرآن ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، ط٢ سنة ١٩٨٧ ، دار الجيل ، بيروت – لبنان . جـ١ ص ٢٦٤

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولكنَّ الذي تؤدّيه الجملة " لا تأكلوا " لا تؤديه " لا تضمّوا "، فحكمةُ تخصيص النهي بالأكل أنَّ العرب تتذمَّم بالإكثار من الأكل وتعيب المِبْطانَ ، وتعدُّ البِطْنَةَ من ديدن البهائم ، ومن هنا كان اللفظ بالأكل دالاً على القبح ، فهو أبلغ في الذم وأزجر في النهي من الفعل الآخر ، ولا شك أنْ تكون النفس – حينئذ – أنفر ممّا نهيَت عنه [1]. وهنا يتجلّى لنا غرض آخر للتضمين وهو إعطاء مجموع معنيَيْن ، وذلك أقوى من إعطاء معنى واحد. فانظر كيف رجع معنى **[وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ]** إلى معنى: لا تضمّوها إليها آكلين [2]!

ويرى إبراهيم السامرائي أنَّ حقيقة التضمين عند الزمخشري (ت٥٣٨هـ)– بناءً على ما ذكر سابقاً– قائمة على أساس ضعيف، ولم يُجوّز أنْ يتضمن الفعل في جملة واحدة معنيَيْن، ولم يَفُت المتقدّمين هذا الاضطراب في الدلالة. وهو بهذا يتبنّى رأي بعضهم في أنَّ الفعل المذكور إن كان مستعملاً في معناه الحقيقي فلا دلالة على الفعل الآخر، وإن كان في معنى الفعل الآخر، فلا دلالة على معناه الحقيقيّ، وإن كان فيهما جميعاً لزم الجمع بين الحقيقة والمجاز [3].

والباحث لا يراه مصيباً في ما ذهب إليه؛ لأنَّ " تأكلوا " لم يأت لغرض حقيقي في الآية، وإنما لغرض بلاغيّ. ولم يتبيَّن هذا الغرض البلاغي إلا بما أدّاه الغرض الحقيقي دون أن ينسلخ عن المعنى الآخر وهو " تضمّوا "، فالجمع بين الحقيقة والمجاز هنا أبلغ في التعبير وأوضح في الصورة .

ومن التضمين ما جاء في قوله تعالى : **[... وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...]** *(الكهف ١٨/٢٨)* .

---

[1]– انظر: حاشية الإمام ناصر الدين أحمد ت ٦٨٣ هـ على الكشاف للزمخشري ط٢ سنة ٢٠٠١ ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان . جـ١ ص ٤٩٦

[2]– انظر: الزمخشري. أبو القاسم محمود بن عمر ت ٥٣٨هـ ، الكشاف. ط٢ سنة ٢٠٠١ تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان . ج١ ص ٤٩٦

[3]– انظر: من وحي القرآن ص ١١٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مـــنهم مـــن جعـــل معنى الآية " ولا تقتحم عيناك مجاوزتيْن إلى غيرهم ". وذهـــب الفراء إلى أن الفعل للعينين. أي لا تنصرف عيناك عنهم [1]، وهذا أحَبُّ الوجـــوه إلـــيَّ. ولســـتُ أمـــيلُ إلى قراءَة الحسن البصريّ (ت١١٠هـــ) "عينيك " بالنصـــب ، إذ جعـــل الفعل بمعنى " تصرف" أي جعله هنا فعلاً متعدّياً يحتاج إلى مفعـــول به، وكيف يكون ذلك وقد وقع ما بعده فاعلاً للفعل ؟! فقال : المعنى " لا تَصـــرفْهُما " أمّـــا الفـــرّاء فقـــد جعل الفعل لازمًا وما بعده فاعلاً. ويقال عداه إذا جـــاوزه. نقـــول : جاء القوم ما عدا زيداً أي جاءوا كلُّهم متجاوزين زيداً ، فالفعل متعدٍّ بنفسه بلا وساطة . وإنما عُدي الفعل بـــ "عن" لتضمين عدا معنى نبا وعَلا. كقولهم عال عنّي ، وأعلّ عنّي بمعنى تنحَّ عنّي [2] .

فانظـــر إلـــى الفعـــل كيف تعدّى بالجارّ دون أنْ يتعدّى بنفسه ! ولا بدّ من غـــرض يكمـــن وراء هذا التضمين ، وما كان من بأس لو قيل: ولا تعدُهم عيناك لأنَّ المعنى عَدِّ هَمَّك عمّا ترى، فعبَّر بالعينين عن صاحبهما، وأمر الله عزّ وجلّ رســـوله الكـــريم أنْ تنبوَ عيناه عن رثاثة زيّهم ولا يزدري بفقراء المؤمنين ، فلا يغرُّنّه زيُّ الأغنياء وحسنُ هيئتِهم [3]

ومن هذا القبيل ما جاء في قوله عزّ شأنه **[عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ]** (سورة المطففين ٢٨/٨٣) .

فقـــد قال بعض المفسّرين إنَّ " بها " ضُمّنَت معنى " منها " أو ضُمّنَ الفعل " يشرب " معنى " يلتذّ " [4] ، وأنا إلى رأيهمُ الثاني أميْلُ .

---

[1]- الفراء، معاني القرآن جـــ٢ ص ١٤٠ .

[2]- انظـــر: الزمخشري ، أساس البلاغة ، ، تحقيق: محمد باسل ط١ سنة ١٩٩٨ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان . مادّة " علو "

[3]- انظر: الكشاف جـــ٢ ص ٦٧١ .

[4]- انظر: التبيان في إعراب القرآن جـــ٢ ص ٤٤١، وانظر: تفسير الجلالين ، الآية

© Arabic Digital Library Yarmouk University

فلــو نظرنا إلى سياق الآيات لوجدناه يموج بذكر الملائذ، ويفصلُها تفصيلاً كذكــر النعيم، والأرائك، وبهجة التنعُّم وحسنه، والرحيق المختوم بالمسك ، وتلك العين التي يتلذذون منها .

والفعل " يشرب" وظّف في الآية توظيفاً كبيراً، فهو يدلّ على عملية الشرب حقــيقة لا مجازاً ، فسياق الآيات سياق تصوير، والفعل " يشرب " يتلاءم مع ذلك ثــم إنّ " بهــا " جاءت لتنقل الفعلَ من الحقيقة إلى المجاز مع الحفاظ على المعنى الحقيقي .

إنّ المعنى الذي ذهب إليه الفراء (ت ٢٠٧هـــ) للفعل " يشرب بها " وهو يــروى بهــا وينقع [١] ليس بشيء – في نظري- ؛ لأنّ الرجل يمكن أن يكون قد رَوِي من الماء روًى شديداً دون أن يشعر بلذّة، وليس المراد من الآية كذلك، وإنّما المقصود هنا رواء المؤمنين مع اللّذة جزاءً بما كانوا يعملون .

ونســتخلص مــن هــنا أنّ ثَــمّ تقاربــاً بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للتضــمين. فيقال : رجل مضمون اليد أي: مخبونها[٢]، وقد رأينا أنّ حرف الجرّ إذا حــلّ محلّ حرف آخر، فإنّه يخبُنُهُ ويستره في الدلالة مع إبقاء أثر له. وقد قال أبــو زيــد الأنصاري (ت ٢١٥هـــ).ضمن فلان على أصحابه وكَلّ عليهم بمعنى واحــد[٣]، وكذلــك الحال مع الحروف الجارّة، فإنْ حرف حلّ مكانَ الآخر، أصبح الأخير كَلاًّ على الحالّ في المعنى، ويبقى المعنى مستقيماً بالاثنين .

ويظهر التضمين في قوله تعالى:[**وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ...**] (البقرة ٢/١٣٠) .

١- انظــر : الفــراء . أبــو زكــريا يحيى بن زياد . معاني القرآن تحقيق : محمد علي النجار ، دار السرور . جـــ٣ ص ٢١٥

٢- انظر: تاج العروس . مادّة " ضمن " .

٣- المصدر السابق ، مادّة " ضمن "

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فقــد قيل إنّ الفعل " سَفِه " تضمّن معنى " جهل " أو حُمل على معنى أضلّ فمن هنا كان متعدّياً بنفسه، والأصلُ أن يقال سفِه نفسُه، فصُرف عنه الفعل نحو : بَطِــرَ معيشتَهُ [1]، وانتصاب نفسه على أنّه تمييز كما ذهب إلى ذلك الفراء، وهو " التفسير" في عرف النحاة الكوفيين [2] ، أو أنّ " نفسه " مشبّه بالمفعول على قول بعضهم [3] ومذهب الفراء – على علوّ كعبه في النحو – ليس بمرضيّ عندي؛ لأنّ التمييز لا يجيء إلاّ نكرة لتبيين ما قبله، فأشبه بذلك الحال التي تأتي مبيّنة لما قبلها، ولمـا أشبه الحال وجب أن يكون نكرة [4]، ويأتي " نفسه " مفعولاً به في الآيــة ، إمّــا لكون " سفه " يتعدّى بنفسه ك " سفّه " المضعّف ، وإمّا لكونه ضمن معــنى مــا يــتعدّى أي " جهل "، وهو قول الزجّاج وابن جنّي. وربما أتى بمعنى أهلــك . وقد رأى بعض البصريين أن هناك حرفاً خافضاً محذوفاً ، فنصب الاسم على إسقاط حرف الجرّ وأصل الكلام عنده " إلاّ مَنْ سفه في نفسه " [5].

ويــرى الباحث في هذا التخريج تعسّفاً في القول لا طائل وراءَه ؛ لأنّ ذلك وجــه لا يــنقاس. وأحبّ أن أوردَ رأي أبي حيان الأندلسيّ ؛ قال :((وأمّا نصبه علــى أنْ يكون مفعولاً به، ويكون الفعل يتعدّى بنفسه فهو الذي نختاره ؛ لأنّ ثعلباً والمبرد حكيا أنّ سَفِه بكسر الفاء يتعدى ك "سفّه": بفتح الفاء وشدّها، وحكي عن " أبــي الخطــاب" : أنّها لغة ...)) [6]، وهذا التضمين هو المتعلّق بالتعدّي واللزوم وهم يعنون به: ((أنْ يؤدّيَ فعل أو ما في معناه مؤدّى فعل آخر أو ما في معناه، فيعطى الأوّل حكم الثاني في التعدية واللزوم)) [7].

---

[1]- انظر: المفردات في غريب القرآن . مادة " سفه " .

[2]- انظر: الفراء، معاني القرآن جــ١ ص ٧٩ .

[3]- انظر: البحر المحيط جــ١ ص ٥٦٥ .

[4]- انظــر: الأنباري. أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ت ٥٧٧هـــ ، أسرار العربية . تحقيق: بركات يوسف هبّود ط١ سنة ١٩٩٩. دار الأرقم بن أبي الأرقم – لبنان . ص ١٥٥

[5]- انظر: البحر المحيط جــ١ ص ٥٦٥ .

[6]- المصدر السابق ، الصفحة ذاتها .

[7]- النحو الوافي ، جــ٢ ص ١٦٩-١٧٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومـــن التضـــمين مـــا جاء في قوله تعالى [... **أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ**] *(هـود ١١/٦٠)*. ضُمّن الفعل "كفر" معنى "جحد" [١]؛ لأنّ الفعـــل كفـــر يـــتعدّى بالـــباء وجحد يتعدّى بنفسه، وذهب الفرّاء إلى أنّ المضاف محـــذوف وهو " نعمة " أي كفروا نعمةَ ربّهم أي بطروها [٢]، فلمّا حذف المضاف أقـــيم المضـــاف إليه مقامه، وهذا من باب " واسأل القرية "، وذهب الفراء إلى أنّ العـــرب تقول :كفَرتُك ، وكفرْتُ بك ، كما تقول: شكرتُك ، وشكرْتُ لك وشكرْتُ بـــك وإنّمـــا هـــي أساليب كلامية ينطقها العربيّ توسُّعاً في كلامه ، وقال الكسائيّ (ت ١٨٩هـــ) إنّـــه ســـمع العرب تقول : شكرت بالله كقولهم : كفرْتُ بالله [٣] – والعـــياذ بـــالله – وكأني بالكسائيّ أراد القول : إنّ العرب تحمل على الضدّ كما تحمـــل على النظير؛ ولذلك أمثلة كثيرة منثورة في بطون المطوّلات النحويّة، ولا أرى بأســـاً فـــي ضرب مثال على ذلك، علماً بأنّ الحمل على الضدّ من الأصول التـــي اســـتند إليها الكوفيّون في قياسهم، ومن ذلك العطف على اسم " إنّ " بالرفع قبل تمام الخبر، كقولهم:((إنّك وزيد ذاهبان)) وقدّروا " إنّك وزيد " في محل رفع على الابتداء، وقد استندوا في هذا العطف على اسم لا النافية للجنس كقولهم:((لا رجلَ وابنُهُ في البيت)) فالملاحظ في هذا المثال أنه أجيز العطف بالرفع على اسم لا النافية للجنس مع أنّها نافية و " إنّ " للإثبات والتوكيد [٤] .

ولســـتُ أذهب مذهب مَن قال : إنّ " كفر " بمعنى " جحد " ، فلو نظرنا إلى الآيـــة الســـابقة للآية المذكورة لوجدنا أنّ الفعل " جحد " لم يتعدّ بنفسه وإنّما بالباء [**وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**] *(هـود ١١/٥٩)* فالـــباء تفيد الإلصاق [٥]،فجيء بها مع الجحد ؛ لتدلّ على أنّ قوم عادٍ لم ينفكّوا عن الجحد بتلك الآيات التي أتاهم بها الرسل فكذّبوهم، والتزموا بهذا

١- انظر: التبيان في إعراب القرآن جـــ١ ص ٥٤١ .

٢- انظر: الفراء ، معاني القرآن جـــ٢ ص ٢٠ .

٣- المصدر السابق والصفحة ذاتها .

٤- انظر: الخصائص جـــ٢ ص ٣١١ .

٥- انظر: حروف المعاني ص ٤٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الجحد حتّى تُوّبوا ما وُعدوا به؛ ولأنّ دلالة الجحد في الإنكار أقل من دلالة الكفر. فـالجحد هو " نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيُه " [1]، ولكنّ الكفر في اللغة هو السّتر.[2] فالستر أشدّ تعميةً من النفي، فلمّا كان هذا هكذا جيء بالباء مع الجحد ، ولم يُؤتَ بها مع الكفر .

حمل حرف على معنى حرف آخر:

إن الأمـثلة المبـثوثة في القرآن تدلّ دلالة واضحة على أهمية التضمين ، كقولـه تبارك وتعالى **[أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ...]***(البقرة ٢/ ١٨٧)* فقـد عُـدّي الرفث بـ" إلى " لتضمّنه معنى الإفضاء [3]، كقوله تعالى **[... وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ...]** *(النساء ٤/٢١)* وأرى أنّ العلّة جليلة من هذا التضـمين لأنّ الرفث لفظ جامع لكلّ ما يريده الرجل من المرأة [4]، ثم إنّ الرفث بالنسـاء لا يقتصـر علـى فروجهـنّ، وإنّما يختصّ أيضاً باللسان في المواعدة بالجمـاع، ودليل ذلك قوله تعالى **[... فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ...]***(البقرة ٢/١٩٧)*، فهذا نَهْـي عـن تعاطـي الجماع فعلاً وقولاً، وسياق الآية يتحدّث عن معانقة الرجل لامرأته، واشتمال كلّ واحد منهما على صاحبه في عناقه، فشُبّه الرفث أو الإفضاء باللـباس المشـتمل عليه، حتى أصبح الرجل غايةً لزوجه، وأصبحت المرأة غاية لـزوجها، وليس هناك حرف من الحروف الجارّة أدلّ على منتهى الغاية [5] وأدقّ

---

[1]- انظر: المفردات في غريب القرآن . مادّة " جحد " .

[2] - المصدر السابق مادّة " كفر " .

[3]- انظـر: مكي بن أبي طالب القيسي، ت ٤٣٧هـ ، العمدة في غريب القرآن ، تحقيق : يوسف عبد الرحمن مرعشلي ، ط١ سنة ١٩٨١، مؤسسة الرسالة . ص ٨٨

[4]- انظر: الزجاج . أبو إسحاق إبراهيم بن السّرّيّ . معاني القرآن وإعرابه تحقيق : عبد الجليل عبده شلبي . ط١ سنة ١٩٨٨. عالم الكتب ، بيروت – لبنان . ج١ ص ٢٥٤

[5]- انظـر: الزجاجـي. أبـو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق ، حروف المعاني ص ٦٥ تحقيق: علي الحمـد ، ط٢ سنة ١٩٨٦، دار الرسالة –سورية . دار الأمل – الأردن. وانظر حاشية الخفاجي، شـهاب الديـن أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي ت ١٠٦٩هـ على تفسير البيضاوي تحقيق:عبد الرزاق المهدي، جـ٢ ص ٤٧٠ ط١ سنة ١٩٩٧ دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فـــي الدّلالة عليها من حرف الجرّ "إلى"، فجاء ذكره أليق ههنا من الباء. وغرض آخـــر مـــن هذا التضمين هو أنّ لفـــظ الرفث له معانٍ كثيرة ودلالات وردت في التـــنزيل العزيـــز يكنى بها عنه ، كالإفضاء ، والغَشيان ، والمباشرة ، والملامسة والدخـــول بهـــنّ ، والنكاح ، وإتيان الحرث ، والمسّ ، والاستمتاع ، والوطء ، والاقتراب. فكأنّ هذه المفردات في التعبير عن الجماع وتعدّدها يدلّ على تعليم الله تـــبارك وتعالى الحياء للناس، فلمّا كان الرفث يتعدّى بالباء استبدل به حرفا آخر " إلى " وذلك بالإيماء ألصق [1].

ومـــن هذا القبيل قوله تعالى: **[فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)]** *(الماعون ١٠٧/٤-٥)* .

فمـــنهم مَـــنْ تـــأول السّـــهو عن الصّلاة بأنه سهو في الصّلاة، وهذا تأويل مـــردود؛ لأنّ السّـــهو في الصّلاة ليس بخطيئة أو مُنكر، ألا ترى أنّ الصلاة عمل كالحج وقراءة القرآن ؟! وأيُنا يستطيع أن يقوم بهذه الأعمال دون أن يسرح خياله بعـــيداً ؟! وقد أجمع علماء الدين أنّ ذلك ليس بحرام ؛ لعجز الأناسيّ أجمعين عن القـــيام بـــتلك العـــبادات دون السّـــهو فيها ، فكـــيف يجعلُ الله ويلَ جهنّم لهؤلاء السّاهين ؟!

وكُـــلّ عرضة للسّهو في صلاته فينجَبر سهوه في الصّلاة بسجود السّهو[2] وعلـــى ذلـــك يتبيّن أنّ كلّ حرف في القرآن وضع في موضعه المناسب. فما من حـــرف في القرآن الكريم تأوّلوه زائداً أو قدّروه محذوفاً أو فسّروه بحرف آخر لا يـــتحدّى بســـرّه البياني كلّ محاولة لتأويله على غير الوجه الذي جاء به في البيان المعجز [3]. وما التضمين إلاّ وجه من وجوه كثيرة يدلّ على بيان معجز .

---

[1]- انظـــر: الطـــبري . أبـــو جعفـــر محمد بن جرير ت ٣١٠هـــ جامع البيان عن تأويل آي القرآن تحقيق : محمود شاكر ، ط١٩٧٢، دار المعارف ، القاهرة – مصر . جـــ٣ ص ٤٨٧

[2]- انظر : الإعجاز البياني للقرآن ص ٢٠٢ .

[3]- المرجع السابق ص ١٣٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومـن بلـيغ التضـمين ما جاء في قوله تعالى [... **وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ** ...] *(طه ٢٠/٧١)*.

لقـد ذهب لفيف من المفسّرين واللغويّين إلى أنّ "في" هنا بمعنى "على" أي: علـى جـذوع الـنّخل [١] وقالوا إنّ الجذع للمصلوب بمنزلة القبر للمقبور، ويرى الـزجّاج أنّه لو كانت " على " ههنا – يقصد مكان الحرف في – لأدّت هذه الفائدة لأنـك لـو قلت لأصلّبنّكم على جذوع النخل كان مستقيماً. وأصل " في " إنّما هو للوعـاء وأصـل "علـى" لما مع الشيء كقولك: التّمر في الجراب. ولو قلت على الجـراب لفسد المعنى ، وإنما جاز " في جذوع النخل " ؛ لأنّ الجذع يشتمل على المصلوب وقد أخذه من أقطاره . وعلى هذا مجاز هذه الحروف [٢] .

ويقـال إنّ الصّـلب هو شدُّ صلْب الإنسان على خشب للقتل [٣]، فلمّا كان جـذع الـنخلة مكانـاً للمصلوب ومحتوياً عليه جيء بالحرف "في" ؛ لأنّه أفضل حـروف الجرّ دلالة على الالتصاق والدخول والظرفيّة ، وكلما اشتدّت الملاصقة بيـن الجسـد والجذع كان التنكيل أشدّ وأمرّ ؛ إذ يصبح الجسدُ جزءاً لا ينفرد عن الجـذع وكأنّـه قـد حواه وضمّه، فشبّه تمكّن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعـى في وعائه، فلذلك قيل " في جذوع النخل " [٤]. والحرف "على" لا يؤدي هذه الدلالة ولا يبلغ مبلغ " في " في التصوير هنا .

١- انظـر : ابن قتيبة. أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦هـ . أدب الكاتب ، تحقيق: محمد الدالي . ط٢ سنة ١٩٩٦ مؤسسة الرّسالة . ص ٥٠٦

وانظـر الثعالبـي . أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ت ٤٣٠هـ فقه اللغة وأسرار العربيّة ضبط ياسين الأيوبي ط١ سنة ١٩٩٩، المكتبة العصرية ، بيروت – لبنان . ص ٤٠١

٢- انظر: معاني القرآن و إعرابه جـ١ ص ٤١٧ .

٣- انظـر: الراغـب الأصـفهانيّ. أبـو القاسم الحُسَين بن محمد ت٥٠٢ هـ ، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: خليل عيتاني ط٣ سنة ٢٠٠١ ، دار المعرفة، بيروت – لبنان . مادّة "صلب ".

٤- انظر: الكشاف جـ٣ ص ٧٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقـد جـوّز بعضهم الاستعارة في هذا المثال ، وضمّنوا " أصلبنّكم " معنى " أجعلنّكم " [1]، ولست أميلُ إلى هذا التضمين ، فما أضيق دلالة " لأجعلنكم "!

ومـا أفسحَها وأوسعها في " لأصلبنّكم " !. ففي الأول خفّة في اللفظ ، وفي الثانـي حـدّة وقـوة تُنبئان عن رهبة الموقف وشدة العذاب الذي سيلحق بالسحرة الذيـن سـجدوا. وثمّ فرق آخر من الناحية السّماعيّة، فالفعل " لأجعلنّكم " ليس فيه مـن التكثير والتأكيد والتّشديد ما نجده في الفعل " لأصلّبنكم "، ومن اختلاف هذين الوجهيْن بين " الصّلب والجَعْل " نفتقد قرينة تشير إلى المعنى المستعمل؛ ولذلك لا تثريب علينا إنْ قلنا: إنّ الفعلين لا يستويان في الاستعمال.

ومـن بلـيغ التضمين ما جاء في قوله تعالى: **[رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا]** *(مريم ١٩/٦٥)* .

لقد قيل إنّ اللام في "لعبادته" تضمّن معنى "على" كقوله تعالى **[وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ...]** *(طه ٢٠/١٣٢)*؛ لأنّ العبادة جعلت بمنزلة القِرْن في قـولك للمحارب : اصطـبر لقرنـك أي اثبت له في ما يُوردُ عليـك من شدّاته، فـيراد من الآية أنّ العبادة توردُ عليك شدائد ومشاقّ [2].

وتلك المشاقّ المتأتّية عن العبادة هي بقدر ما تجلبه العبادةُ الحقُّ لله عزّ وجلّ. ألا ترى إلى قوله تعالى **[إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا]** *(المزمل ٧٣/٥)*.

ويذهـب أبو حيّان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) مذهب الزمخشري، إذ يرى أنّ "اصـطبر" عـدّي باللام على سبيل التضمين والمعنى: اثبت بالصبر لعبادته؛ لأنّ العبادة تورد شدائد فاثبت لها [3].

---

[1]- انظر: مجلة مجمع اللغة القاهري ، ، العدد ١٥ . ص ٥٥٣

[2]- انظر: الكشاف جـ ٣ ص ٣٢ .

[3]- انظـر: أبو حيان الأندلسي ، محمد بن يوسف. البحر المحيط تحقيق: عادل عبد الموجود وزفاقه . ط١ سنة ٢٠٠١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان . جـ٦ ص ١٩٣

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقريـــب من هذا التضمين الآية القرآنية **[يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ...]** *(الأنبياء ٢١/١٠٤)*، فاللام في " للكتب " بمعنى "على" وهذا مذهب أبي زرعـــة الذي قال: إنَّ المعنى هو يوم نطوي السَّماء كما يُطوى السجل على ما فيه من الكتاب [١] .

ومن بديع التضمين ما جاء في قوله عزّ شأنه **[لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ]** *(الصافات ٣٧/٨)* .

فقد تعدّى الفعل بـــ" إلى " حملاً على معنى يُصغون، والعرب لا تكاد تقول: سمعْت إليه وإنّما تقول: تسمّعت إليه. ولو كان " يسمعون الملأ " بغير الجارّ " إلى" لكان مخفّفًا، وهي قراءَة أبي عمرو [٢] .

والفعل سمع يتعدّى بنفسه دون حرف جارّ ؛ لأنّنا نقول سمعْتُه وسمعْتُ منه حديثاً، ويقال : استمعتُ إلى حديثه [٣].

وســـمعْتُ إليه: أي أملتُ سمعي إليه، وإنما جيء بـــ " إلى" هنا حتّى يُعمّى علـــى المسموع لدى الملأ الأعلى ، فما من أحدٍ يقدر على ذلك ، وحين لم يكن في كـــلام العـــرب : سمعْتُ الملأ الأعلى ثم تسكت على ذلك، لوجوب ذكر ما يردف السمع كالقول كذا وكذا ، جيء بـــ " إلى " حتّى يحسن الوقوف على ذلك مع تأكيد التعمية. فيسَّمّعون إلى الملأ الأعلى على هذا أبين [٤]، ودليل ما قُلته أنَّ ابن عباس (ت ٦٨هـــ) رضي الله عنهما – قال : إنَّ الشياطين يتسمّعون ولا يسمعون، وليس

١- انظـــر: أبو زرعة ، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة ، حجة القراءات ، تحقيق: سعيد الأفغاني ، ط٥ سنة ٢٠٠١م . مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان . ص ٤٧١

– وانظـــر: حـــروف المعاني ، وانظر : عواد محمد حسن ، تناوب حروف الجر في لغة القرآن ص ١٠١ ط١ سنة ١٩٨٢ دار الفرقان ، عمان – الأردن . ص ٧٥

٢- انظر: حجة القراءات ص ٦٠٥ .

٣- انظر: أساس البلاغة ، مادّة " سمع " .

٤- انظـــر: الـــنحاس . أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل ت ٣٣٨هـــ ، إعراب القرآن تحقيق : زهير غازي زاهد ، ط٣ سنة ١٩٨٨ ، عالم الكتب ، بيروت – لبنان . جـــ٣ ص ٤١١

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هناك مَن فَرَق بين المعنيين : " يسَّمّعون إلى الملأ " و " يسَّمّعون الملأ " فرقاً دقيقاً إلا صـــاحب " الكشاف " الذي جعل المعدّى بـــ " إلى " يفيد الإصغاء مع الإدراك، والمعـــدّى بنفسه يفيد الإدراك وحدَهُ ، والفعل في الآية قد تعدّى بـــ " إلى " أي أنّ مـــنَ الشياطين مَن وقف على شيء فأدركه بعد أنْ خَطِفَ خطفةَ واسترق استراقةً، فلا يلبث أنْ يُحرق بشهاب ثاقب [1].

ومـــن التضمين ما جاء في قوله عزّ شأنه **[بِيَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا]** *(الزلزلة ٩٩/٤-٥)*.

قـــال علمـــاء اللغـــة إنّ معنى "أوحى لها" : أوحى إليها، من باب التضمين وعُـــدّي أوحـــى بـــاللام لا بـــ "إلى" وإنْ كان المشهور تعديتها بـــ "إلى" لمراعاة الفواصل [2] ، هذا يدلّ على أنّ للفواصل شأناً عظيماً في القرآن ، فقد قال القاضي أبـــو بكر: الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع ، يقع بها إفهام المعاني [3]، نفهم من كلام القاضي أنّ للفواصل بلاغةً وحكمة ، وهي تابعة للمعاني أو طريق لإفهام المعاني .

لقد قامت عائشة عبد الرحمن وكشفت عن مواضع هذا الفعل من القرآن فلم تجـــده يـــتعدّى بـــ " إلى " إلاّ حين يكون الموحى إليه من الأحياء ، يطّرد ذلك في كـــلّ آيـــات الإيحاء بـــ " إلى" وعددها سبع وستّون آية [4]. كالآية **[وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ]** *(النحل ١٦/٦٨)*.

---

[1]- انظر: الكشاف جـــ٤ ص ٣٩ .

[2]- البحر المحيط ج٨ ص٤٩٧ ، وانظر: الكشـــاف جـــ٤ ص ٧٩١ وانظر: التبيان في إعراب القرآن ج٢ ص ٤٧٣ .

[3]- انظـــر: الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله ت ٧٩٤هـــ ، البرهان في علوم القرآن تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث ، القاهرة – مصر . جـــ١ ص ٥٣

[4]- انظر: الإعجاز البياني للقرآن ص ٢٧٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومثل هذا الضرب مستفيض في أساليب القرآن . فلأنّ الموحى إليهما اختلفا في الجنس، اختلفت جهتا الكلام في التّعبير ، فكذلك نجد الفعل الثلاثي " هدى " يتعدى باللام أو بـ " إلى " وهذا هو الأصل فيه كقوله تعالى **[إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...]** *(الإسراء ٩/١٧)* وقوله تعالى **[... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ]** *(الشورى (٥٢/٤٢)* فعومل الفعل معاملة " اختار " في قوله تعالى **[وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً ...]** *(الأعراف ١٥٥/٧)* ومنهم من فرّق بين الاستعمالين فرأى أنّ ما تعدّى بنفسه معناه الإيصال إلى المطلوب ، ولا يكون إلاّ فعل الله ،فلا يسند إلاّ إليه كقوله تعالى **[... لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ...]** *(العنكبوت ٦٩/٢٩)* وما تعدّى بالحرف فمعناه الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب فيسند تارةً إلى القرآن كقوله تعالى **[... يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...]** *(الإسراء ٩/١٧)* وتارة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلّم كقوله تعالى **[... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ]** (الشورى ٥٢/٤٢) .

وأستطيع أن أوجز هذا الكلام فأقول : إنّ الفعل "هدى " لا يحتاج إلى رابط بين الهادي وهو الله وبين المهديّ وهو العبد، فلا وساطة بين الخالق وعباده، وإن كانت الهداية ممّن سواه وجبت الوساطة في التعبير، أي بذكر حرف جرّ .

إنّ الفعل "أوحى" في الآية الكريمة **[بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا]** *(الزلزلة ٥/٩٩)*

جاء متعدّياً باللام هنا لا بـ" إلى"مراعاة لرؤوس الآيات – كما تقدمت الإشارة إلى ذلك – فقد " اجتمعت لغة القرآن على تأليف صوتي يكاد يكون موسيقياً محضاً، في التركيب والتناسب بين أجراس الحروف والملاءمة بين طبيعة المعنى وطبيعة الصوت الذي يؤدّيه " [1]. وحين أقول الفواصل فإنّني لا أعني السّجع؛ لأنّ الرسول صلّى الله عليه وسلم نهى عنه، فحين سمع رجلاً يُسجع، قال له: أسَجْعاً كسَجْع الكهّان ؟! وقد نفى الباقلاّني (ت ٤٠٣هـ) السّجع عن القرآن

---

[1]- الرافعي مصطفى صادق ، (ت ١٩٣٧) إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة ط٩ سنة ١٩٧٣ دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان . ص ٤٥

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهـــو مـــوالاة الكلام على وزنٍ واحد [1]؛ ولأنّ السّجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السّجع من القرآن لأنّ اللفـــظ يقـــع فيه تابعاً للمعنى، فمراعاة الفواصل لا تكون على حساب المعنى ولكـــنّ السّجع في الكلام يكون على حسابه، وقد أسفرت بعض الدراسات القرآنية الحديثة عن أنّ توافق رؤوس الآي سمة من سمات إعجاز الإيقاع الصوتيّ في لغة القرآن [2] .

يقـــول إبراهـــيم السّامرائي معلّقاً على استبدال "لها" بـــ "إليها": ((ألم يكُن الباعـــث إلـــى العدول عن الحرف "إلى" إلى "اللام" ما يقتضيه التناسب والفاصلة حيـــث إنّ الآيات كلها انتهت تقريباً باللام فاصلة (كالروي في البيت) وهذه اللام مفتوحة ولا يتأتّى هذا التناسب بالحرف " إلى")) [3] .

ومـــن التضمين ما جاء في قوله تعالى : **[فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ...]** *(آل عمران ٣/٥٢)* .

فـــي هذه الآية شِقاق بعيد وخلاف مُحتدم بين النحاة والمفسّرين ، فمنهم مَنْ ذهب إلى أنّه لا تضمين فيها زاعماً أنّ " إلى " لا تأتي بمعنى " مع " ولا تصلح أنْ تكون بمعنى " مع " إذْ لا قياس يعضُدُ ذلك [4].

وقد جاء في التفسير مَن أنصاري مع الله، وإلى ههنا إنّما قاربت "مع" معنى بـــأنْ صار اللفظ لو عبّر عنه بـــ "مع" أفاد مثل هذا المعنى، لا أنّ "إلى" في معنى "مـــع" لـــو قلـــت: ذهب زيدٌ إلى عمرو، لم يجز ذهب زيد مع عمرو. ألا ترى أنّ

---

[1]- انظـــر : الباقلانـــي . أبو بكر محمد بن الطيب . إعجاز القرآن ، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر ط٤ سنة ١٩٩٧ ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت – لبنان . ص ٨٣

[2]- انظـــر: محمد عبد الله دراز ، النبأ العظيم . نظرات جديدة في القرآن ط سنة ١٩٧٠ دار القلم – الكويت . ص ٩٢

[3]- من وحي القرآن ، ص ١٠٩ .

[4]- انظر: التبيان في إعراب القرآن جـــ١ ص ٢١٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

معنيـــي الوجهيـــن قـــد اختلفا ؟! ؛ لأنّ "إلى" غاية و "مع" تضمّ الشيء إلى الشيء فالمعنى: مَن يضيف نصرتَه إلى نصرة الله .

نخلص إلى أنّ قولهم "إلى" في معنى "مع" ليس بشيء، فيظن الضعيف العلم باللّغة أنّ معناهما واحد؛ لأنّ الحروف قد تقاربت في الفائدة [1]. ولكنّ الفراء جعل ذلـــك وجهاً حسناً من وجوه التضمين، وقد جوّز وقوع "إلى" موضع "مع" إذا ضمّ الشـــيء إلى الشيء، ممّا لم يكن معه، وتقول العرب:" إنّ الذود إلى الذود إبل" أي إذا ضـــممتَ الـــذود إلـــى الذود صارتْ إبلاً [2]، وقول العكبريّ أحبُّ الأقوال إلي فذهـــب إلـــى أنّ المعنى هو أيُكم يضيف نفسه مع نفسي تقرُّباً إلى الله أو من الذين ينصـــرونني كمـــا ينصرني الله [3]، وقال الحسن: من أنصاري في السَّبيل إلى الله وقـــال أبـــو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـــ): معنى إلى الله: لله [4]، كقوله: يهدي إلى الحقّ أي للحقّ، وليس كلامه صحيحاً إذ بيّنت الفرق بينهما آنفاً .

وحـــرف الجرّ " إلى" في الآية متعلّق بمحذوف هو الحال من الياء التي في أنصاري، أي مَن أنصاري ذاهباً إلى الله ملتجئاً إليه [5] .

وقـــد ورد هذا الكلام في سياق سؤال، إذْ إنّ عيسى عليه السّلام سألهم عن نصـــرتهم له بعد أنْ أحسّ الكفر منهم، فالأوجَهُ – عندي – القول إن السؤال منوط بالحـــال المحذوفـــة ، والتضمين لا يؤدّي دلالة الحال في السّياق ، فالحال ألصق بالاستفهام من التضمين هنا .

---

[1]- انظر: معاني القرآن وإعرابه جـــ١ ص ٤١٦ .

[2]- انظر: الفراء ، معاني القرآن جـــ١ ص٢١٨ ، وحروف المعاني ص ٦٦ .

[3]- انظر: التبيان في إعراب القرآن جـــ١ ص ٢١٦ .

[4]- انظر: البحر المحيط جـــ٢ ص ٤٩٤ .

[5]- انظر: الكشاف جـــ١ ص ٣٩٣ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

ومن التضمين ما جاء في قوله عزّ شأنه: **[حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ...]** *(الأعراف ٧/١٠٥)* .

فقد ضمّن اللفظ "حقيق " في الآية معنى "حريص"؛ ليفيد أنّه محقوق بقول الحقّ، وحريص عليه، وقد قرأ نافع أحد القراء السبعة (ت١٦٩هـ) "حقيق عَليّ " بتشديد الياء [١]، فالياء الثانية هي ضمير دالّ على المتحدّث " أنا" فأدغمت الياءان وجعل الفراء الباء في موضع على. في قول العرب: جئت على حالٍ حسنة وبحال حسنة [٢]. وقيل إنّ معنى "حقيق"هو جدير، فالعرب تقول: فلان خليق بأنْ يفعل وجدير أنْ يفعل ، وجدير عليّ أنْ يفعل، فحقيق عليّ بمعنى واجب عليّ .

ويظنّ الباحث أنّ أفضل مَن جاء بشيء جديد يُذكر في هذه الآية هو الزمخشري، وكلامه يُعدّ الأدخلَ في نكت القرآن، فإغراق موسى- عليه السّلام- في وصف نفسه بالصّدق، واستيفاؤه حقّه من ذلك الوصف في ذلك المقام، لا سيّما أنّه روي أنّ فرعون قال له:- لمّا سمع منه الآية **[إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ]** *(الأعراف ٧/١٠٤)* كذبت، جعله محتفلاً باللفظ، فمن هنا كان الأنسب لهذا السياق أنْ يقول موسى- عليه السلام-: حقيق عليّ قول الحقّ، فكأنه جعل قول الحقّ على نفسه فريضة واجبة تأكيداً في الصّدق وإغراقاً في تفنيد قول فرعون. فحرصه هذا على دحض تهمة فرعون عنه جعله مهتمّاً باللفظ، فمن هنا كان لفظ "حقيق" أدلّ على التزام الصّدق من لفظ الحرص، وكان استعمال حرف الجرّ "على" بدلاً من الباء مناسباً للسياق؛ لأنّ على فيها معنى الاستعلاء[٣]، وهذا ما توخّاه موسى عليه السّلام .

ومن التضمين ما جاء في قوله تعالى: **[فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ]** *(النازعات ٧٩/١٨)*.

١- انظر: حجّة القراءات ص ٢٨٩، وانظر: الأزهري، خالد بن عبد الله ت ٩٠٥هـ شرح التصريح على التوضيح ، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه جـ٢ ص ٥

٢- انظر: الفراء ، معاني القرآن ج١ ص ٣٨٦ .

٣- انظر: البرهان في علوم القرآن جـ٤ ص ٢٨٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تقول العرب :هل لك في كذا ؟! وهذا الاستفهام فيه معنى العرض، والطلب فيه معنى الدّعاء، فقد أرسل الله نبيّه موسى عليه السّلام إلى فرعون ليهديه إلى الله فيخشاه ، فلمّا كان توجُّهه إليه بتزكية النفس جاء الكلام على معنى الدّعاء والإرشاد ، فصار تقدير الكلام (أدعوك وأرشدك إلى أن تزكّى) [1].

ويرى الباحث أنّ حرف الجرّ " إلى" وُظّف في الآية توظيفاً كبيراً ، إذ يؤدّي مع المصدر المسبوك منْ " أنْ والفعل" معنى الملاينة والتأدُّب في الحديث والتلطّف في القول، وقد أُمرَ موسى عليه السّلام بذلك في قوله تعالى: **[فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى]** (طه ٢٠/٤٤) ، والحرف "إلى" تُحَدّ به النهاية والغاية [2]، ولكنّنا إذا استبدلنا بـ "إلى" الحرف "في" فإنّ المعنى يتغيّر، ألا ترى أنّ " في أنْ تزكّى" تحمل معنى التقييد والتعيين والظرفية ؟! فالحرف " في " على هذا يكون ظرفاً وما بعده مظروفاً، وهما معنويّان [3]

وهذا ممّا لا يجوز التحدّث به مع أولي الشّأن ، " فإلى " ألْيق بالسّياق من الحرف " في " وأحقّ به .

ومن التضمين ما جاء في قوله تعالى:**[لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ]** *(البقرة ٢ / ٢٢٦)* .

إنّ معنى يُؤلون : يحلفون ، والمصدر إيلاء وألْيَة وأُلوة وإلْوَة [4]. والفعل الماضي منه هو آليْتُ أو ألوْتُ بمعنى حلفْتُ [5] .

---

[1]- الخصائص جـ٢ ص ٣١٠ والتبيان في إعراب القرآن ج٢ ص ٤٤٩ .

[2]- انظر: البرهان في علوم القرآن جـ٤ ص ٢٣٢ .

[3]- انظر: المصدر السابق جـ٤ ص ٣٠٢ .

[4]- انظر: النحاس ، إعراب القرآن جـ١ ص ٣١٢ .

[5]- انظر: المفردات في غريب القرآن . مادّة " ألى " .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وحقيقة الإيلاء الحلْف المقتضي لتقصير في الأمر الذي يُحلَف عليه، وجُعل الإيلاء في الشَّرع للحلف المانع من جماع المرأة. والإيلاء في اللغة: اليمين مطلقاً وهو الحلف بالله سبحانه وتعالى ، أو غيره من الطلاق، أو العتاق، أو الحجّ أو نحو ذلك [1] .

وآلى لا يتعدّى بـ "من"، فقيل "من" بمعنى "على" وقيل : بمعنى "في" ويكون ذلك على حذف مضاف، أي : على ترك وطء نسائهم ، أو في ترك وطئهنّ [2]. ونقول في اللغة: تألّى على الله: إذا حلف [3]، فالفعل ائتلى أصلاً يتعدّى بحرف الجرّ " على " لا بنفسه مباشرة ، ولكن في الآية نجده متعدّياً بـ "من " وربما تكون "مِن" هنا زائدة، والتقدير: يُؤلون أنْ يعتزلوا نساءَهم[4] ، وقد ضعّف الزمخشري هذا الوجه ونزّه القرآن عنه، وجعل " يؤلون " بمعنى يبعدون فكأنه قيل : يبعدون من نسائهم مُؤلين أو مُقسمين [5]. وذكر وجهاً آخر وجيهاً هو أنْ يكون "من" للسَّبب – وهذا في القرآن كثير فاشٍ– والتقدير: يحلفون بسبب نسائهم. و "مِنْ " حرف يأتي على بضعة عشرَ معنًى [6] ، والتعليل أو السببيَّة موضع من تلك المواضع ، والتعليل يقترب " لام" نحو قوله تعالى: **[مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا]** (نوح٧١/٢٥)

(ما)هنا زائدة ؛ أي من أجل خطاياهُم " أُغرقوا " [7] وقوله تعالى أيضاً **[الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ]** *(قريش ١٠٦/٤)* أي من أجل الجوع[8].

---

[1]- انظر: الصحاح . مادّة " ألى "

[2]- انظر: البحر المحيط ج٢ ص ١٩٢ .

[3]- انظر: أساس البلاغة . مادّة " ألو " .

[4]- انظر: البحر المحيط جـ٢ ص ١٩٢ .

[5]- انظر: الكشاف ج١ ص ٢٩٦ .

[6]- انظر: البرهان في علوم القرآن جـ٤ ص ٤١٥ .

[7]- انظر: التبيان في إعراب القرآن جـ٢ ص ٤٢٩ .

[8]- انظر: البرهان في علوم القرآن جـ٤ ص ٤١٩ . وتفسير الجلالين ، الآية .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولـــم يكتفِ الزمخشري بذينك الوجهيْن ، بل ضمّن الإيلاء معنى الامتناع، فيعدّى بـــ "مِن"، فكأنّه قيل : للذين يمتنعون بالإيلاء من نسائهم [1] وهذا وجه جيد؛ إذ إن التضـــمين هـــنا لا يتنافى مع المعنى الشّرعيّ للآية، وهو الحلف المانع من جماع المرأة .

ومـــن التضمين ما جاء في قوله عز شأنه :[... **فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ**] (التوبة٩/٤٥)

قـــيل إنّ الحـــرف "في" يمكن أنْ يتأوّل بالحرف "من" أو "اللام" على تقدير: فهم من ريبهم أو لريبهم يترددون، وثَمّ آيات أخرى تنضوي تحت هذا الباب كالآية : [**وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ**] *(النحل ١٦/٨٩)*. قال المفسّـــرون : إنّ " في" هنا بمعنى "من" [2]، ويظنّ الباحث أن الذي دفع المفسّرين إلـــى هـــذا التقدير أو التأويل هو الآية القرآنية الرابعة والثمانون من سورة النحل: [**وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثم لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ...**].

ولكـــنْ فاتهم أنّ المعنيين في الآيتين مختلفان ، ثمّ إنّ المعنى يضطرب في الآيـــة ٨٩ من سورة النحل إذا قدّرنا الحرف " من " بدلاً من الحرف " في " ، ألا تـــرى ضـــعفاً فـــي القول : ويوم نبعث مِن كلّ أمّة من أنفسهم شهيداً عليهم ؟! إذ يصـــبح شـــبه الجملة من الجارّ والمجرور حشواً لا طائل وراءَه ، وهذا الحشوُ لا يجرؤ على الاقتراب من أساليب القرآن ولغته. أليس القول "من كلّ أمّة " قريباً من القـــول " من أنفسهم " ؟! فالفرق بين الآيتين واضح، والله عزّ وجلّ ((**كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم**)) [3] .

---

[1]- انظر: البحر المحيط جـــ٢ ص ١٩٢ .

[2]- انظـــر: الهـــروي . أبو الحسن علي بن محمد ت ٤١٥ هـــ . الأزهية في علم الحروف ص ٢٨٩ تحقـــيق :عـــبد المعين الملوحي ، ط١ سنة ١٩٨١ . مجمع اللغة العربية بدمشق ، ومغنيَ اللبيب ص ٢٢٥ .

[3]- الكشاف جـــ٢ ص ٥٨٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ذهبت عائشة عبد الرحمن إلى أنه لا يقوم أحد الحرفيْن وهما "من" و " اللام " مقـــام الحرف "في" في النصّ القرآني ، وليس المقصود منه التعليل المستفاد من حـــرف اللام كما في الآية : **[فهم في ريبهم يترددون]**؛ وإنما مناط التعبير في هذا الانغماس والملابسة الملحوظة في ظرفية " في "[1] وما قيل في هاتين الآيتين يُقال في الآية :

[...حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا...] *(يونس ١٠/٢٢)*

ذهـــب جلّهـــم إلـــى أنّ " في " هنا بمعنى " على "[2] بدليل قوله تعالى في موطـــن آخر:**[فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ]** *(المؤمنون ٢٣/٢٨)* .

والباحـــث لا يرتضـــي هذا التأويل؛ لأنّ الحرف "في" في الآية الأولى يدلّ علـــى التحصُـــن والتّمنّع من أي خطر محدق بمن نزل في الفلك، وهذا يتلاءم مع سياق الآية الذي يدلّ على أمان الناس، حتّى إذا فرحوا بما أوتوا كان لله فيهم شأن آخر .

وكما اختلفت "في"عن الحرف "على" فإنّها تختلف في الدلالة عن "إلى" ومن ذلـــك علـــى ســـبيل المـــثال قوله تعالى:**[وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ]** *(الأنعام ٦/٤٢)*. وقوله تعالى:**[وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ]** *(الأعراف ٧/٩٤)*

جـــاء في آية الأنعام (أرسل إلى)، وفي الأعراف (أرسل في) ((والإرسال إلـــى شـــخص مـــا يقتضي التّبليغ ولا يقتضي المكثَ، فإنّك قد ترسلُ إلى شخصٍ رســـالةً فيبلّغها ويعود، وأما الإرسال في القرية أو في المدينة، فإنّه يقتضي التبليغ

---

[1]- انظر: الإعجاز البياني للقرآن ص ٢٠٢ .

[2]- انظر: البرهان في علوم القرآن جـ٤ ص ٣٠٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والمكـــث، فإنّ (في) تفيد الظرفيّة، وهذا يعني بقاء النبيّ بينهم يبلّغهم ويذكرهم بالله ويـــريهم آياتـــه المؤيّدة، ولا شكّ أنّ هذا يدعوهم إلى زيادة التضرع والمبالغة فيه فجـــاء بالصّـــيغ الدالـــة علـــى المـــبالغة في الحدث أو الإكثار منه فقال:(**لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ** ..)) [1]- على زنة يفعّلون – فانظر إلى كلّ لفظة أو حرف كيف وضع في المكان اللائق به! وكيف وظّف التوظيف المناسب له! بحيث إنّنا لو استبدلنا به حرفاً آخر لجفّ ماء الكلام ولسُدّ باب الإعجاز.

ومن التضمين ما جاء في قوله تعالى:[... **فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ**...] *(النحل ١٦/٢٦)*.

ربّمـــا ســـأل ســـائل عن الفائدة التي يؤدّيها شبه الجملة (من فوقهم) مع أنّه معلوم بأنّ السّقف لا يكون إلا من فوق.

ذكر شارح الآية في الأمالي أنّ كلمة "على" هنا بمعنى "عن" أي أنّ السّقف خرعنهم أي: بسببهم أو من أجلهم [2] فإنّ الله – تبارك وتعالى – أهلكهم فهم كمن خـــرّ عليهم السّقف، وقد جاء قوله (من فوقهم) للتأكيد ، دلالة على أنّ السّقف سقط فعـــلاً فـــتمّ الهلاك [3]. وثمّ مذهب للعرب ذكره الشريف المرتضى، وهو أنّ لفظة "علـــى" فـــي مثل هذا الموضع لا تستعمل إلا في الشّر، والأمر المكروه. أمّا اللام فهـــي تســـتعمل فـــي خلاف ذلك، فيقال خَرِبَت عليه ضيعتُه [4]، ولكنّها مع اللام وغيرها من حروف الجر تستعمل: عمِرت له ضيعتُه، وولدت له جاريتُه، ولا يقال

١- الســـامرائي فاضـــل صـــالح ، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ط٢ سنة ٢٠٠١ م ، دار عمار ، عمان – الأردن . ص ٤٣

٢ – انظـــر: الشـــريف المرتضـــى ت٤٣٦هـــ . علي بن الحسين الموسوي العلوي ، الأمالي " غرر الفوائـــد ودرر القلائـــد " . ، تحقـــيق : محمـــد أبو الفضل إبراهيم ط٢ سنة ١٩٦٧ . دار الكتب العربي ، بيروت – لبنان . جـــ١ ص٣٥١

٣- انظـــر: أبـــو واصـــل محمـــود ، شذرات نفيسات من أبحاث متنوعات ط١ سنة ١٩٨٨، عمان – الأردن ص ١٢

٤- انظر: الشريف المرتضى ، الأمالي "غرر الفوائد ودرر القلائد " ، ج١ ص ٣٥١-٣٥٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولـــدت علـــيه جاريته، وإذا قال أحد:(قال عليٌّ) و(روى عليٌّ) فمعنى ذلك أنّه قال وروى فـــي الشّـــرّ والكـــذب، ومصدّق لما جاء به المرتضى، قوله تعالى : **[وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ]** *(الحاقة٦٩/٤٤-٤٥)*

أمّا إذا قال أحدنا (قال عنّي) فمعنى ذلك أنّه قال حقاً في الخير [١].

ومن التضمين ما جاء في قوله تعالى:**[... لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ]** *(التوبة ٩/٣٣)* .

" لـــو" هنا بمعنى "إنْ " الخفيفة. قال الفراء " لو" تقوم مقامَ إن الخفيفة ولولا أنّ "لـــو" بمعـــنى " إنْ " لا قتضت جواباً ؛ لأنّ "لو" لا بدّ لها من جواب ظاهر أو مضـــمون مضـــمر[٢]، كقوله تعالى: **[وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ]** *(الأنعام ٦/٧)* .

وذهـــب بعضـــهم إلى أنّها بمعنى " أنْ " الناصبة للفعل المضارع بعدها كما فـــي الآيـــة الكـــريمة **[وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ]** *(القلم ٦٨/٩)*. وإنما جاء الفعل مـــرفوعاً فـــي الآية – وهو وجه جيّد– على معنى التمني[٣] وقد زعم هارون ابن موسى الأزديّ [٤] (ت١٧٠هـــ) – وهو عالم بالقراءات والعربية– أنّ الآية وردت فـــي بعـــض المصـــاحف **[وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُوا]** أي بالنصب. وآية ذلك حذفُ النون؛ لأنّه من الأفعال الخمسة، فلو هنا على رأي البصريين مصدريّة بمعنى "أنْ" أي: ودوا إدهانَكم [٥] وإنْ كانت "لو" بمنزلة " أنْ "، فلن يكون لها جواب، وينسبك

١- المصدر السّابق ص ٣٥٢ .

٢- انظر: فقه اللغة وأسرار العربية ص ٣٩٩ .

٣- انظـــر: ســـيبويه ، عمـــرو بـــن عثمان الكتاب تحقيق : إميل يعقوب ط١ سنة ١٩٩٩ دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان . جـــ ٣ ص ٣٦

٤- لـــم يبيّن سيبويه من هو هارون ، ولكنّ هذا الاسم ورد في كتابه خمس مرات في مجال القراءات، وهو بصريّ ، كما رجّح ذلك " علي النجدي ناصف " في كتابه " سيبويه إمام النحاة " ص ٩٨ .

٥- انظر: سمير استيتية ، الشرط والاستفهام في الأساليب العربية ط ٢٠٠٠ . ص ٤١

© Arabic Digital Library Yarmouk University

منها وممّا بعدها مصدر يقع مفعولاً لـــ " ودّوا " كأنّه قيل : "ودّوا أنْ تدهن فيُدهنوا " فلو" هنا جاءت مفرّغة من دلالتها الشرطية ، فوردت في السياق الذي ترد فيه " بمعـــنى " أنْ " [1].فالفعل الثاني جاء معطوفاً على الأوّل نصباً، وللنصب وجهان: أحدهمـــا: إنّه جواب (ودّوا) لتضمّنه معنى ليت، والثاني : إنّه على توهّم أنّه نطق بـــ " أن" أي: ودّوا أنْ تدهـــن فيدهنوا، فيكون عطفاً على التوهّم، ولا يجيء هذا الوجـــه إلا على قول منْ جعل "لو" مصدريّة بمعنى "أنْ " ، والوجه الأوّل تتمرّ به الـــنّفسُ ، أمّـــا الوجـــه الثانـــي فلا، ولستُ أعلم كيف أنّ عالماً جليلاً كأبي حيّان الأندلسي ينزلقُ إلى مثل هذا الرأي الممجوج ؟! فكثير من النحاة من يفر من القول " العطـــف علـــى التوهّم "، فهو جائز في كلام الناس ونثر البلغاء، غير جائز في القرآن، فلا توهُّمَ ولا تخيُّل في التنزيل العزيز .

ومـــا أجلُّ مقولةَ شهاب الدين الخفاجيّ (ت ١٠٦٩هـــ) في حاشيته . " لكنّ عـــبارة التوهم غير مناسبة لقبح لفظها هنا" [2]. فالتوهم لا ينشأ عنه إلاّ توهّم قبيح يتأبّاه العقل .

ومـــن بليغ التضمين ما جاء في قوله تعالى: **[هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا]** *(الإنسان ٧٦/١)* .

نلاحـــظ مـــن فهمـــنا للآية أنّ "هل" قد أُخرجت عن بابها إلى معنى "قد "، وتقديـــر الآيـــة: قد أتى عليه ذلك [3]، وذهب ابن جني إلى أنّ "هل" هنا يمكن أنْ تكون مبقّاةً على بابها في هذا الموضع من الاستفهام. فكأنّه قال – والله أعلم – هل أتـــى على الإنسان هذا ؟ وهذا استفهام لا ينتظر جواباً؛ لأنّه تقريريّ، والاستفهام

---

[1]– المرجع السابق ، والصفحة ذاتها .

[2]– الخفاجـــي ، شـــهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر. الحاشية على تفسير البيضاوي ، ضبط :عبد الرزاق المهدي . ط١ سنة ١٩٩٧. دار الكتب العلمية – لبنان . جـــ ٩ ص ١٨

[3]– الخصائص جـــ٢ ص ٤٦٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

التقريريّ بمنزلة المثبت الحقيقي في عُرف النحاة، وأظنّ أنّ "هل" هنا للتنبيه أو للتبكيت.

وقد ذهب أبو البقاء العكبريّ إلى أنّها هنا للتقرير أو للتوبيخ [1]، إنْ كان المعنى: هلْ أتى على الإنسان هذا ؟ فلا بدّ في جوابه من (نعم) ملفوظاً بها أو مقدّرة [2]. ولا يرى الباحث أنّها تحمل معنى الاستفهام؛ لدخول همزة الاستفهام عليها؛ إذ يستحيل اجتماع حرفيْن لمعنى واحد، فخرجت "هل" عن الاستفهام إلى معنى الخبر. والتقرير ضَرْب من الخبر، وهو ضدّ الاستفهام[3].

ودليلي على أنّ "هل " في الآية بمعنى " قد " هو أنّ أبا بكر (وقيل عمر) – رضي الله عنهما – قال حين تليت عليه الآية : " ليتها تمّت " أي : ليت تلك الحالة تمّت ، وهي كون الإنسان شيئاً غير مذكور ، ولم يُخلقْ ولم يكلّفْ [4] ، فلو لم تقع الآية موقع التثبيت والتقرير لما كان من المنطق السّويّ في شيء أنْ يصدر مثل هذا التمنّي من أبي بكر أو عمر رضوان الله عليهما .

ومن التضمين ما جاء في قوله تعالى:**[أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ...]***(البقرة ٢/ ٢٥٨)*.

ثم قال **[أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا...]** *(البقرة ٢/٢٥٩)* .

إنّ الآية الأولى محمولة على المعنى، حتّى كأنّه قال: أرأيتَ كالذي حاجَّ إبراهيم في ربّه، أو كالذي مرَّ على قرية، فبهذا المعنى يحسُن العطف ، فجاء بالثاني وهو" أو كالذي " أي المعطوف، على أنّ الأول أي المعطوف عليه قد سبق

---

[1]- انظر: التبيان في إعراب القرآن جـ٢ ص ٤٤٠ .

[2]- انظر: الخصائص جـ٢ ص ٤٦٢ .

[3]- المصدر السابق ، جـ٢ ص ٤٦٣ .

[4]- انظر: الخبر في البحر المحيط جـ٨ ص ٣٨٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ذكره[1] وموضع الكاف – على هذا الوجه– النصب والتقرير: أو رأيتَ مثل الذي. ودلّ على هذا المحذوف الآية [ألمْ تـرَ إلـى الّذي حاجّ...][2]، ومعنى"كالذي" في الآية الثانية: أرأيتَ مثلَ الذي ، فحذف لدلالة " ألم ترَ إليه"؛ لأنّ كلتيهما كلمةُ تعجيب[3]، وقـد استحسن هذا الرأيَ أبو حيان الأندلسيّ؛ لأنّ إضمار الفعل لدلالة المعنى عليه أسهل من العطف على مراعاة المعنى [4].

وخلاصـة القـول فـي هاتيْن الآيتين ، أنّ الآية (أو كالذي مرّ على قرية) معطوفـة على قوله (ألم ترَ إلى الذي حاجّ) على المعنى، إذ إنّ معنى (ألم ترَ إلى الذي): أرأيت كالذي حاجّ، فعطف قوله (أو كالذي مرّ) على هذا المعنى[5].

إنّ الشّـواهد القرآنية على التضمين كثيرة، ويعسُرُ على الواحد منا استيفاء مواطـنها؛ لذلـك رأيت الاقتصار على ما أحصيتُهُ، فالتضمين بحر لا يُنكشُ ولا يُفـثج، وقد رأينا أنّه يرقى بالعبارة فصاحةً وبلاغة، وبالمعنى علوًّا وتمكناً، وليس مـن أحـدٍ يشك في أنّ العرب عُنيَت بالمعنى عناية عظمى، فهي إذا أرادته مكنته واحتاطت له [6].

---

[1]- انظـر: تفسـير الطـبري جـ٥ ص ٤٣٨ ، وانظر: ابن قتيبة الدينوري ، تفسير غريب القرآن ، تحقـيق : السيد أحمد صقر ص ٩٤. ط١٩٥٨ دار إحياء الكتب العربية. انظر: الخصائص جـ٢ ص ٤٢٣. وانظـر الكشاف ج١ ص ٣٣٤ وانظر: البيضاوي. أبو سعيد ناصر الدين عبد الله ت ٦٩١هـ ، تفسير البيضاوي ، ضبط عبد الرزاق المهدي . ط١ سنة ١٩٩٧. دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان . جـ٢ ص ٥٨٥

[2]- انظر: التبيان في إعراب القرآن جـ١ ص ١٧٣ .

[3]- انظر: الفراء ، معاني القرآن جـ١ ص ١٧٠ ، وانظر: الكشاف جـ١ ص ٣٣٤ .

[4]- انظر: البحر المحيط جـ٢ ص ٣٠١ .

[5]- انظـر: القرطبـي. أبـو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ت ٦٧١هـ، الجامع لأحكام القرآن، تحقـيق : محمـد إبراهـيم الحفناوي، ط١ سنة ١٩٩٤. دار الحديث، القاهرة – مصر جـ٣ ص ٢٨٨

[6]- انظر: الخصائص جـ٣ ص ١٠١

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لقد تضاربت آراء اللغويين والنحاة حول التضمين رفضا وقبولا، ثم اختلفوا فيه، من حيث كونه حقيقة ، أو إنه خروج عن الحقيقة إلى غيرها توسعا أو مجازا، ونستطيع أن نجعل اختلافهم في مذاهب ثلاثة .

١-**المذهب الأول:** يقرر أن المادة المتضمنة قد استُخْدِمَتْ على الوجه الحقيقي مع قطع الصلة بينها وبين الأصل .

٢-**المذهب الثاني:** يقرر أن المادة قد استخدمت على الوجه المجازي مع القرينة الدالة .

٣-**المذهب الثالث :** يجمع بين المذهبين، فيقرر أن المادة مستخدمة على الحقيقة والمجاز في آنٍ واحد .[١]

ومذهب البصريين أن أحرف الجر لا ينوب بعضها عن بعض بقياس، كما أن أحرف الجزم وأحرف النصب كذلك، وما أوهم ذلك، فهو عندهم إما مؤول تأويلا يقبله اللفظ، وإما على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف، أو على شذوذ النيابة.[٢]، وهذا قريب من قول ابن جني في تعريفه" اتصال الفعل بحرف ليس مما يتعدى به؛ لأنه في معنى فعل يتعدى به" [٣].

أما الكوفيون فيُجوّزون نيابة بعضها عن بعض قياسا، وقد رجح ابن هشام (ت ٧٦١ هـ) مذهبهم، فقال : " ومذهبهم أقل تعسفا " [٤].

والباحث يميل إلى مذهب البصريين؛ لأن الحروف قد تتقارب في الفائدة بينها، وقد تتقارب الأفعال في معانيها، ولكنْ لكل حرف معنى لا يؤديه الآخر، ولكل فعل مفهوم لا يتضمنه فعل آخر، وإن ظن أحدنا أن الفعلين مترادفان، وأرى

١- من وحي القرآن ، ص١١٦ .

٢- انظر: مغني اللبيب ص١٥٠-١٥١.

٣- الخصائص ج٢ ص ٤٣٥ .

٤- مغني اللبيب ص ١٥١ ، وانظر: المخزومي مهدي ، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، ط٢ سنة ١٩٥٨ ، مصطفى البابي الحلبي ص ٣٢٦

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أيضـــا أن مذهـــبهم أحـــق بالاتـــباع والاقتداء به؛ لأنه كثيرا ما يلجأ إلى التفسير البلاغي، حين يعرض للتضمين. "مع شيء من التكلف في بعض الأحيان" [1].

كما أن إشراب فعل معنى فعل آخر ألطف في الصنعة من إنابة حرف عن حـــرف، وأقول : ألطف في الصنعة وأدخل في كلام العرب؛ لأنهم يجعلون للفعل معـــنى مـــع الحـــرف وآخر مع غيره. وبذلك تكون الكلمة الواحدة قد أدت مؤدى كلمتين، ألا ترى أن إعطاء مجموع معنيين أقوى من إعطاء معنى واحد [2] ؟!

ومعـــنى ذلـــك أنّ في التضمين جمعا بين الحقيقة والمجاز؛ لدلالة المذكور على معناه بنفسه وعلى معنى المحذوف بالقرينة [3].

ولســـت أعلـــم مـــا الذي دفع إبراهيم السامرائي إلى القول: إن التضمين موضوع يكشـــف أن علمـــاء العربية لم يتعقبوا الاستعمالات ويقيدوها، وكان من ذلك أنهم احتالوا على كل ما وجدوه خارجا عما قرروه من قواعد وضوابط فقالوا بالتضمين مثلا [4] ؟!

ولـــم يكـــن الســـامرائي ليقول مثل هذا لولا أنه رأى الآيات التي وقع فيها تضـــمين تفســـر على وجهي الحقيقة والمجاز، وما الضير في ذلك ؟! وإن تعجب فعجب قوله أيضا: إنّ علماء العربية لم يتعقبوا الاستعمالات ولم يقيدوها.

أقـــول: بل فعلوا، وقعدوا لها كل مرصد. ولو أنعمنا النظر في رأيه لوجدناه يريد أن يقول : إن النحويين قد وضعوا ضوابط وقواعد معينة ثم جاءوا واستقصَوْا لغـــة العـــرب ولسانها، فعرضوها على قواعدهم بعد ذلك، فما وجدوه مطّردا قبلوه وما لم يجدوه مطّردا اطّرحوه، وليس هذا صحيحا، فقد أفنَوْا أعمارهم ينظرون في اللغة ويسمعونها .

---

[1]- ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية ص ٢٦٧ .

[2]- انظر: الكشاف ج٢ ص٦٧٠- ٦٧١ وانظر: مغني اللبيب ص ٨٩٧ .

[3]- انظر: شرح التصريح على التوضيح على ألفية ابن مالك ، ج٢ ص٦ .

[4]- انظر: من وحي القرآن ص ١١٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وكـيف لهـم أن يحـتالوا علـى ما وجدوه مخالفا لما قرروه ، وقد وجدوا التضمين واردا في كلام العرب حقا ؟!

وكيف لهم أن يحـتالوا على ما وجدوه خارجا عما قرروه والنحو العربي كله من أوله إلى آخره يزخر بما شذ عن القاعدة وبما ند عن جادة الطريق ؟! .

أما المحدثون فمنهم من أقر بالتضمين، ومنهم من رفضه. والأولى بنا اتباع المجمع القاهري الذي أوصى ألا يلجأ إلى التضمين إلا لغرض بلاغي .[1]

ورأيهـم – عندي– سديد، فما ورد من أمثلة على التضمين، شعرا كانت أو نـثرا تحفـظ شواهد، مع الاقتصار عليها في الوارد، وحصر أمرها في المسموع مـنها، دون محاكاتهـا ؛ فلو فتح باب التضمين على مصراعَيْه لتعذر إقفاله على الإنس والجن .

إن الذي خلَصَ إليه الباحث بعد هذه الدراسة المقتضبة عن التضمين :

أن يلـم كـل متخصـص بالعربية أو غير متخصص بالتضمين ومواطنه وصـوره ؛ لئلا يَبْهَتَ ويحار إذا وقع بين يديه نص فيه تضمين ، فيكون إلمامه به معينا له على فهمه .

فكم من آية في القرآن يكتنفها الغموض فعميت عنها أبصار المفسرين حتى عوّلوا على التضمين ؟!.

وكم من بيت شعريّ أو مستوى لغوي أتعب النحاة جميعا حتى وجدناهم إلى التضمين يفزعون ؟!.

---

[1]– انظـر: مجلـة مجمع اللغة العربية في القاهرة من سنة ١٩٣٤ – ١٩٣٥ ، الجلسة السابعة عشرة ج١ ص٣٣ ، وانظر: النحو الوافي ج٢ ص٤٦٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إن للتضـــمين أهمـــية عظمـــى ، فلولاه لوجدنا أن كثيرا من كلام الشعراء يـــتعرض للـــنقد ، وإن كـــانوا قد عاشوا في فترة الاحتجاج اللغوي التي تنتهي ب (١٥٠ هـــ) ، كعنترة بن شداد العبسي (ت ٢٢ ق.هـــ) .

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر

للحرب دائرة على ابني ضَمْضَمِ [١].

فخطـــأ إبراهـــيم اليازجي (ت ١٩٠٦ م) عنترة ؛ لإدخاله الباء في مفعول "خشيت". والمعنى هنا جائز على التضمين، فقد ضمن الشاعر الفعل "خشي" معنى "غَرِضَ" يقال : غَرِضَ بمقامه أي : ضجر وملّ [٢].

والـــذي يراه الباحث هو التخفّف من هذا ؛ لأنه لو كثر التضمين في كلامنا أو مؤلفاتـــنا لتعذر على كثير من المتخصصين تذوقه بلّهَ الذين ليس لهم إلمام يسير بالعربية وعلومها ؟!.

١- انظر: ديوان عنترة ط٢ سنة ١٩٩٢ دار صادر ، بيروت – لبنان . ص٣٠

٢- انظـــر: إميل بديع يعقوب ، معجم الخطأ والصواب في اللغة ط١ سنة ١٩٨٣ ، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان . ص ٥٣

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الثاني

تعلّات النحويّين في الحمل على المعنى

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المبحث الثاني

*** تعلّات النحويّين في الحمل على المعنى ***

لا بد – قبل الولوج في الحديث عن تعلات النحاة البصريين في الحمل على المعنى – من الكلام باختصار شديد عن بعض التيارات النحوية، وعن سمات كل تيار منها؛ حتى نقف على حقيقة التفكير النحوي البصري ؛ وعلى تباين آرائهم النحوية .

ظهر في البصرة في بواكير التقعيد النحوي ثلاثة مناهج انحدرت من المدرسة البصرية التي كان يتزعمها أبو الأسود الدؤلي (ت٦٩ هـ). يقول ابن سلاّم الجمحي (ت ٢٣١هـ) :

" وكان أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها هو أبو الأسود الدؤلي ".[1] نستخلص من كلام ابن سلام أن أبا الأسود هو رأس مدرسة نحوية، وقد ظهر بعده نحاة كثر اختلفت آراؤهم، وتنوعت ثقافاتهم، وبناء على ذلك تفتقت المناهج الثلاثة لاختلاف خصائص كل تيار أو منهج .

وأول هذه المناهج ظهورا هو المنهج القياسي الذي تزعمه عبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي (ت ١١٧ هـ)، وعيسى بن عمر ، وقد كانا شديدي التجريد للقياس .

ويقول ابن سلام أيضاً :" إن الحضرمي كان أول من بعج النحو ومدّ القياس والعلل".[2]

---

[1] – الجمحي ، محمد بن سلام ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة – مصر . ج١ص١٢

[2] – المصدر السابق ج١ ص ١٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومعنى البعجُ في اللغة : التوسع والامتداد [1]، ومعنى تجريد القياس : استنباطه ومد حكمه على الأنماط اللغوية الواردة عن العرب ؛ لذلك وجدناه كثير التلمّس لأخطاء الشعراء وزلاتهم.[2] وكان يجنح إلى تخطئة المعربين إذا خرجوا عن المألوف في كلام العرب. ويرى مهدي المخزومي (ت ١٩٩٣م) أن من أراد أن يؤرخ للنحو فعليه أن يبتدئ بعبد الله الحضرمي وعيسى بن عمر ومن في طبقتهما ، إذ لا تلوح الحجج ولا تقوم الدلائل على أن هناك نحاة أسبق من ذينك المذكورين قد تناولوا مسائل النحو بالدرس أو التعليل، وإن كانوا قد تحدثوا في مسائل نحوية فلا نكاد نحس بنضج أو اكتمال.[3]

ومن خصائص هذا التيار تجريد القياس ومد سلطانه على الأنماط المأثورة عن العرب، فكان الحضرمي وتلميذه عيسى بن عمر يُغلّبان القياس على ما صح نقله عن العرب، وينصرفان عن السماع والتلقي والرواية إلى باب من النحو يطّرد وينقاس ، ولو أدى ذلك إلى الطعن على العرب ، سواء أكان هؤلاء العرب من المعاصرين لهما كالفرزدق (ت ١١٠هـ) أم من السابقين كالنابغة الذبياني (ت ١٨ق.هـ)[4]. فقد أعاب الحضرمي على الفرزدق رفعه كلمة "مجلف" في بيت له:

---

[1] - انظر: لسان العرب – مادة "بعج"

[2] - انظر: عمر أحمد مختار ، البحث اللغوي عند العرب ط٤ سنة ١٩٨٢ ، عالم الكتب ، القاهرة – مصر . ص ٨٩

[3] - انظر: المخزومي مهدي – الفراهيدي ، عبقري من البصرة –ط٢ سنة ١٩٨٩ دار الشؤون الثقافية العامة . ص ٧٥

[4] - انظر: الفيروزأبادي مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ) – البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة تحقيق: محمد المصري ط١ سنة ١٩٨٧ – جمعية إحياء التراث الإسلامي منشورات مركز المخطوطات والتراث . ص ١٦٧

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وعض[1] زمان يا ابن مروان لم

يدع من المال ألا مسحتا أو مجلّف

فسأله : على أي شيء ترفع " مجلف " ؟!. فأجابه الفرزدق "على ما يسوؤك وينوؤك ". [2] إغاظة منه ؛ لأنه كثير الطعن في شعره ، كثير التتبع له . فيرى الحضرمي أن القياس يقتضي النصب ؛ لأن ما كان معطوفا على منصوب فهو منصوب. وقد تبارى النحاة في تخريج هذا البيت فأكثروا وأغربوا، حتى قال ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) : إنه أتعب أهل الإعراب في طلب الحيلة فقالوا وأكثروا " ولم يأتوا فيه بشيء يُرتضى" [3] ، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كل ما أتَوْا به احتيال وتمويه ؟!. وجعل بعضهم هذه الرواية من قبيل العطف على المعنى، وهو تعليل قاله الخليل؛ إذ كان يستعظم تخطئة شاعر كالفرزدق ومن في طبقته من الشعراء ، وتخريجه – في رأيي – أصح التوجيهات. إذاً ، نحن نقف إزاء اثنتين : ملكة الفرزدق وكفاءته اللغوية وفي المقابل استقراء الحضرمي وقياسه المتشدد التجريدي .

ومهما يكن من أمر تشدده وتتبعه لمزالق القوم وعثراتهم، إلاّ أنه قدّم لمن جاءوا بعده خدمة جليلة ؛ إذ ابتعد بالدرس اللغوي عن المنهج الوصفي، ثم أسّس القياس وعمّم أحكامه [4].

---

[1]- ثَمّ رواية أخرى للبيت : وعظ زمان، أي بالظاء المعجمة بمعنى الشدة في الحرب . انظر علي ابن عدلان الموصلي النحوي ت ٦٦٦هـ – الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب تحقيق: حاتم صالح الضامن ص ٥٩. مؤسسة الرسالة ، ولكني آثرت رواية الديوان للبيت شرح : خريس علي ط١ سنة ١٩٩٦ ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت – لبنان . ص ٣٢٩

[2]- نزهة الألباء ، ص٢٨ .

[3]- ابن قتيبة. أبو محمد عبد الله بن مسلم – الشعر والشعراء ، ، تحقيق: أحمد محمد شاكر ط ١٩٦٦ – دار المعارف بمصر . ص ٤٨٠

[4]- انظر: نور الدين عصام ، تاريخ النحو ، المدخل ، النشأة، التأسيس ، ط١ سنة ١٩٩٥ دار الفكر اللبناني – بيروت . ص ١٤٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وظهـر تيار ثانٍ في البصرة عرف بالتيار المنهجيّ ، ورائده أبو عمرو ابن العلاء وتلميذه يونس بن حبيب (ت١٨٢ هـ) [*] .

وكـان أصـحاب هـذا المـنهج – في الأعم الأغلب – يعوّلون على الآثار المسـموعة عن العرب كلّما توافرت لهذه الآثار الكثرة المعتمدة. والسّمة الثانية لهذا التـيار أنّ أصـحابه كـانوا يستعملون القياس عند الكثرة، ولكنهم لا يهدرون كلام العـرب، فالعربـيّ في أعينهم سيد لغته، فعليه أن يقول وما على النحاة إلا التأويل والتفسير، طبقاً لمنطق اللغة لا منطق القياس المجرد [١] .

إن مـا يقف شاهدا على صدق نسبة تلك السمة إلى هذا التيار، وهي القياس علـى الأشـيع والأكـثر، رأي بعض الباحثين أن نحاة الكوفة تأثروا بمذهب يونس كما نهجوا نهجه في دراساتهم اللغوية، إذ كَلِفوا بالآثار المسموعة عن العرب.[٢]

وثَـمّ سـمة أخـرى لهذا التيار ، أن أصحابه كانوا يستخدمون القياس عند الكـثرة، ولكـنهم لا يهدرون كلام العرب، ودليل على ذلك أن سيد القراء أبا عمرو ابـن العلاء لم يخطئ الفرزدق على رفعه " مجلف " في البيت، فلم يكن أمامه سبيل إلا أن يقـول: لا أعـرف للبيت وجها في العربية.[٣] وقد تأثر يونس بأستاذه حتى تبنى منحى السماع في التقعيد النحوي .[٤]

---

[*]- لـم أتـرجم لأحـد من النحويين؛ لأنّ الموضوع ليس بصدد الترجمة ؛ ولأنّ الرجل مَنْ بات يعرفهم كمعرفته أبناءَه .

[١]- انظـر: الأسـطي عبد الله محمد ، أبو عمرو بن العلاء ، اللغوي والنحوي ، ومكانته العلمية، . ط١ سنة ١٩٨٦- الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان . ص ٤٦

[٢]- انظـر: الحلوانـي محمـد خـير ، المفصل في تاريخ النحو العربي ج١ ، ط١ سنة ١٩٧٩ مؤسسة الرسالة – بيروت . ص٢٣٦

[٣]- انظـر: نصـار حسـين ، يونـس بن حبيب ، ط سنة ١٩٦٨ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. ص ١٣٧

[٤]- انظـر: موسـى عطا ، رسالة ماجستير " الخلاف بين نحاة البصرة " إشراف : محيي الدين رمضان ص ١٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أمـــا التـــيار الثالـــث فهـــو التيار الخليلي، نسبة إلى واضعه الخليل بن أحمد الفراهـــيدي ، وهـــو الإمـــام المقـــدم الـــذي لا يبارى في تصحيح القياس والتماس العلـــل.[1] ويطلـــق عليه اسم "منهج تصحيح القياس"، وقد وردت هذه التسمية كثيرا فـــي كتب تاريخ النحو، حتى قيل عن الخليل:" كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس " [2]

والمقصـــود " بتصحيح القياس " هو أن ما ورد عن العرب من أنماط لغوية مخالفـــة للقـــياس يلـــتمس لها علة ولكن لا يقاس عليها، وهذا يعني أن هذه الشواهد تحفـــظ علـــى أنهـــا شواهد صحيحة وردت عن العرب بشكل نادر، وأنه لا يسمح بالقـــياس علـــيها، ولـــم تقتصر جهود الخليل على منهجه " تصحيح القياس "، وإنما شـــحذ همـــته التـــي تنحط دونها الهمم للعلّة وأولاها اهتماما كبيرا حتى صار كتاب سيبويه يزخر بها .

تمثلت العلل التي استند إليها أصحاب هذا المنهج في ما يلي :-

١- الضرورة الشعرية ٢- السّماع

٣- الحمل على المعنى ٤- والرد إلى الأصل

وقـــد الـــتمس الخلـــيل علّـــة لوجه الرفع في " مجلف " الذي أنكره أصحاب المـــنهج القياسي، وهذه العلة هي الحمل على المعنى، وهو أن يعتمد على المعنى – لا علـــى ظاهـــر اللفـــظ – فلو أننا حملنا هذا البيت على ظاهر اللفظ – إذاً- لهدمنا قـــاعدة نحويـــة مطـــردة، فلـــيس فـــي كلام العرب لفظ مرفوع عطف على آخر منصـــوب، ويتمـــثل الاعتماد على المعنى – هنا – في قوله :(لم يبق من المال الا

---

[1]- انظـــر: ناصـــف علـــي الـــنجدي ت ١٩٨٢م . سيبويه إمام النحاة ، ، ط٢ سنة ١٩٧٩عالم الكتب . ص٩١

[2]- انظـــر: يـــاقوت الحموي . شهاب الدين أبو عبد الله الرومي الحموي ت ٦٢٦هـــ معجم الأدباء ط٣ سنة ١٩٨٠ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . ج١١ ص ٧٣

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مســحَتْ). فمســحت صــارت فاعلا على المعنى؛ لأن معنى (لم يدع) و (لم يبق) واحد، فاحتاج إلى الرفع، فحمله على شيء في معناه . [1]

أمــا ســيبويه فقــد اســتند إلى علّة أخرى غير علة الحمل على المعنى في تخريج هذا البيت، إذ حمله على الضرورة .[2]

وتعلــيل ســيبويه هــذا أقــل وجاهة – في رأيي – من تعليل الخليل؛ لأن الضــرورة الشعرية من أضعف العلل التي يُعتمد عليها للتخريج. ألا ترى أن فحول الشــعراء– والفرزدق واحد منهم– يفرون من تلك الضرورات في أشعارهم ؟!، في حيــن نجد آيا من الذكر الحكيم لا تستقيم وجوه معانيها، إلاّ بعد حملها على المعنى فمن هنا كان الأخذ بعلة الخليل أوجه عندي.

ومهمــا يكن من أمر مخالفة سيبويه الخليل في بعض المواطن ، فقد احتذى نهجــه فــي القــياس ، فــأخذ بمبدأ تصحيح القياس ، وهذه الخلافات بين النحاة لا تتعدى – في مجملها – التأويل والتعليل . [3]

إن الحمــل علــى المعنى من العلل التي اعتمد عليها الخليل اعتمادا كليا في تخــريج الأبيات التي وردت مخالفة للقياس ، كالبيت المذكور سابقا وأضرابه مما لا يســتقيم لهــا وجــه في العربية دون التأويل ، لم يقس عليها بعض البصريين؛ لأن المســموع منها قليل لا ينهض مسوّغا للقياس عليها، إذاً ، فالصيغة الممنوعة عندهم جائزة ، ولكن بشرط التأويل والتقدير .

---

[1]- الفارقــي، أبــو نصــر الحســن بــن أسد ت ٤٨٧ هـــ الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب ، تحقــيق : ســعيد الأفغانــي ، ط٣ ســنة ١٩٨٠ ، مؤسســة الرسالة – بيروت ص ٢٩٥. وانظر: الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب ص ٥٩ .

[2]- انظر: السامرائي إبراهيم، المدارس النحوية أسطورة وواقع ، دار الفكر للنشر والتوزيع ص ٣٥.

[3]- انظــر: المــدارس النحوية أسطورة وواقع ، ص ١٤٧ ، وانظر: أحمد مكي الأنصاري " مقال " – التيار القياسي في مدرسة البصرة محوليات كلية الآداب بجامعة القاهرة. مجلد ٢٤ ج٢ ص ٢٤

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يقــول عباس حسن (ت ١٩٧٨م) في مثل هذا التقدير وفي احتيال النحاة له: " وإذا كــان القــياس علــيها غــير جائز ففيم التأويل ؟! ألتصحيح كلام العرب أم كلامــنا؟! فــإن كان لتصحيح كلام العرب فلِمَ لا نقيس عليه بعد أن صار بالتأويل صــحيحا، مضمرين في أنفسنا تأويل كلامنا أيضا؛ لنستبيح ما لا تبيحه القواعد إلا بالنــية القلبــية، تلــك النــية التي لا يمتد أثرها إلى ظاهر الكلمة وصيغتها ولا إلى جملتها ولا تُدخل على أحدهما تغييرا ملحوظا ".[1]

وكلمــة عباس حسن في استفهامه " ففيم التأويل " في منأى عن الصحة، فهو يــنكر علــى الــنحاة ذلــك، وإنّ كثيرا من الشعر والنثر لا تبيحه قواعد النحو أو ضــوابط اللغــة، وقائلوهــا ممــن يحتج بكلامهم جملة. فلما كَثُر هذا من المتقدمين وجــب علــى المتأخرين إيجاد تسويغات لما وقع بين أيديهم أو أن يطّرحوها أرضا مخطّئيــن قائلــيها، وحيــن استعظم القوم المتأخرون تخطئة المتقدمين من الفصحاء والــبلغاء فــي مــثل تلك المواطن، آثروا أن يخرجوها، سواء أكان ذلك بالاجتهاد والــتحايل أم بالتفســير والتقدير، مستندين إلى علل شتى، ولكن دون أن يبنوا عليها قواعدهم.

وأمــا قوله في القياس عليها بعد أن صارت صحيحة فلا أميل إلى ذلك أبدا؛ لأنــنا إن فعلــنا كــنّا قد زدنا النحو تعقيدا وتشويشا، وخصوصا أن الذين يتبرمون بقواعــد الــنحو واللغة كثيرون، فليس لنا إلا التأويل دون محاكاة تلك الأنماط، فكلما قل التقدير في النحو دنا من العقول والقلوب معا .

---

[1]- حسن عباس . اللغة والنحو بين القديم والحديث ط٢ سنة ١٩٧١. دار المعارف بمصر. ص ١٥٣

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وخلاصـــة القـول في تلك المناهج البصرية الثلاثة أنها تتفق في المطّرد من الكـــلام، ولكـــنها تخـــتلف في الذي لا يطرد ويخالف القياس. وبذلك تباينت آراؤهم إزاء غير المطرد الذي تمت الإشارة إليه على النحو الآتي :-

١- كان أصحاب القياس المجرد يرفضون تماما الكلام غير المطرد .

٢- كـــان أصـــحاب التيار المنهجي ذوي مرونة تفوق كثيرا أصحاب المنهج الأول وذلـــك لســـعة علمهـــم بلغات العرب وغريبها؛ ولذلك كانوا يقبلون تلك الشواهد القليلة التي كانت ترد مخالفة للقياس .

٣-كانـــت نظـــرة أصحاب تصحيح القياس إلى الشواهد غير المطردة مختلفة؛ ذلك أن هـــؤلاء كـــانوا يلتمســـون علـــلاً لمـــا يـــرد من هذه الشواهد ، فلم يكونوا يرفضونها، ولكنهم لم يقيسوا عليها .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لقد أردت في هذا المبحث أن أتحدث عن اشتغال نحاة البصرة في علّة الحمل على المعنى ، فرحت أنبش في بطون الكتاب لسيبويه مستقيا منه العلل والأقيسة. وقد قصرت الحديث عن العلة على جهود البصريين دون أن أذكر الكوفيين لعدة أسباب منها :-

١-إن نحاة البصرة هم الذين شادوا صرح النحو سامقاً، في الوقت الذي كان فيه الكوفيون منشغلين عن ذلك كله بقراءات الذكر الحكيم ورواية الشعر والأخبار وظلوا عن النحو معرضين حتى منتصف القرن الثاني للهجرة .[١]

٢-عُرف عن نحاة البصرة تشددهم في الشواهد التي أثرت عن العرب حتى أسرفوا في الاشتغال بالعلل تأويلا وتخريجا، فجاءوا بالعلل حين وجدوا أنفسهم أمام شواهد فصيحة تخالف مذهبهم وتهدم قواعدهم، فما كان لهم إلا اللجوء إلى التأويل، وإن كان بعضها لا يخلو من تكلف فاسد أو تمحّل بعيد .وكان في المقابل الكوفيون الذين كانوا ينتزعون من المقدار الذي يقفون عليه من كلام العرب حكما، ويستخذونه مذهبا، وهم الذين عوّلوا على الشاهد الواحد أو الشاهدين مما ورد عن العرب .[٢]

٣-إن عقل البصرة أدقّ وأعمق من عقل الكوفة، وكان أكثر استعدادا لقبول العلوم بشتى أنواعها؛ لأنّ البصريين تأثروا بالحركة العلمية العربية وبالفكر الديني والأدبي، وبالتالي كان الاشتغال بالعلل أيسر عليهم، وليس كما قال جرجي زيدان (ت١٩١٤م) إن مبدأ التعليل في النحو العربي مأخوذ عن الفلسفة اليونانية.[٣] كما وأربأ بأستاذ كبير كشوقي ضيف أن يتقفّى أثره في القول إن البصرة وعلماءها تأثروا بالفلسفة اليونانية، وانعكس ذلك على أعمالهم.[٤] ورأيهما مجانب للصواب؛ لأن الكتب الفلسفية والمنطقية لم تترجم في عهد

---

[١]- انظر: ضيف شوقي ، المدارس النحوية ، ص ٢٠ .

[٢]- اللغة والنحو بين القديم والحديث ، ص ١١٣ .

[٣]- انظر: زيدان جرجي تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال ، القاهرة – مصر. ج٢ ص ١٣١

[٤]- انظر: ضيف شوقي ، المدارس النحوية ص ٢٠ – ٢١

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الخلـيل، ولكـنّ امتزاج العقلين العربي واليوناني كان بعد عهد الخليل بزمن.[1] وبـناء على ذلك فإني أرى رأي من ذهب إلى أن العلة النحوية نضجت على يد الخليل نتيجة لنضج الحركة العلمية بمظاهرها الدينية والأدبية والفكرية .

٤-إنّ وصـول الـنحو البصري إلينا في كتب خاصة يتصدرها كتاب سيبويه، يكاد يكـون كاملا إلا ما ضاع من كتب عيسى بن عمر وغيره. فكتاب سيبويه بات يعلـم البحـث والـنظر والقياس، ثم إن التعليل عنده ليس أكثر من إلحاق الحكم النحوي بعلة يلقيها صاحبها بأسلوب الأستاذ المقرر أو العالم الواثق .

وفـي المقـابل لم يصل إلينا من نحو الكوفيين إلا بعض شذرات لم تضعها الأيـام، ولا نعدم أن نجد تعليلات مقبولة مستحسنة لبعض نحاة الكوفة كالفراء الذي طلـع علينـا بعلـل هـي مـن الفلسفة في مكان، وربما كان ذلك بسبب ميله إلى الاعـتزال، وقد أثرت عنه الفلسفة في تصانيفه، فلا عجب ألاّ تخرج علله عن هذا الطابع الفلسفي .[2]

فانظـر – مـثلا – إلـى ذوقه في التعليل ومراعاته المعنى في جواز تذكير الفعل قبل الاسم المؤنث !. كما في قوله تعالى جدّه .

[... فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ...]
(البقرة ٢/ ٢٧٥)، وعدم جواز ذلك إذا جاء بعده .

قـال : "فـإن قـال قـائل أرأيت الفعل إذا جاء بعد المصادر المؤنثة – أي الموعظـة – أيجـوز تذكـيره بعد الأسماء كما جاز قبلها ؟! قلت: ذلك قبيح وهو جائـز، وإنما قبح؛ لأن الفعل إذا أتى بعد الاسم كان فيه مكني من الاسم، فاستقبحوا

---

[1]- انظـر: الكـردي سـعد ، بحـث " العلل التعليمية وأهميتها في النحو العربي " ، مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق ، سنة ١٩٩٨ . ج٤ ص ١٠٠٢

[2]- انظر: المبارك مازن ، النحو العربي ، العلة النحوية ، نشأتها وتطورها ص ٦٦

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أن يضـــمروا منكـــرا قبله مؤنث، والذين استجازوا ذلك قالوا: يُذهب به إلى المعنى وهو في التقديم والتأخير سواء ".[1]

أليس في تعليله هذا سهولة ووضوح ؟! [2] والفراء بذلك يتقفى أثر البصريين.

٥- تعـدّ علّـة الحمل على المعنى من العلل التعليمية، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فـي بدايـة المبحـث الأول، فـلا بـد من إيراد تعليلات تتفق معها في الطابع المنطقـي التعليمي البسيط ؛ حتى يسهل على النشء من المتعلمين فهمها، وهذا مـا أتانـا به البصريون لا الكوفيون. وقد عبّر عن ذلك ناصر الدين الأسد أبلغ تعبـير. قـال "ولكنا لا نملك إلا أن نشير إلى أنّ مذهب البصريين بما فيه من مـيل شـديد إلـى التقعيد والتقنين أقرب إلى الطريقة التعليمية ومذهب المعلمين والتلامـيذ، أمـا مذهب الكوفيين فهو أقرب إلى طريق فهم اللغة فهما صحيحا، وهو بذلك مذهب العلماء لا المعلمين " .[3]

ويـرى الباحـث أن كلام ناصر الدين الأسد شاهد على أن مذهب المعلمين الـذي يتزعمه البصريون يميل إلى وضع القواعد والمعايير النحوية ويعللونها تعليلا سـهلا ويعـتمدون علـى ما وقر في أنفسهم من سلامة ذوق العرب، وهي طريقة قريـبة مـن الطـرق التعليمـية، فيصـل تعليلهم إلى من كانوا يتلمذون لهم بأيسر الطرق. ولهذه الأسباب آثرتُ الاقتصار على تعليلات نحاة البصرة .

---

[1]- الفراء ، معاني القرآن ، ج١ ص ١٢٨ .

[2]- انظر: الحديثي خديجة ، دراسات في كتاب سيبويه. وكالة المطبوعات – الكويت. ص١٥٨

[3]- الأسـد ناصـر الدين ، مصادر الشعر الجاهلي ، ط٥ سنة ١٩٧٨ ، دار المعارف القاهرة – مصر ص ٤٣٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١- تعلّق الخليل -

نـــبدأ بمناقشـــة قول الخليل في قوله تعالى: **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ...]** *(الصّف ٦١/١٠-١٢)* .

فقـــد ذهب إلى أنّ هذا النّوعَ من الاستفهام بمنزلة قوله تعالى " إنْ ". فانجزم الفعلُ " يغفرْ " كما انجزم جواب " إنْ تأتني ". [١]

ومـــا يريد الخليل قوله: إنّ الفعل هنا انجزم في جواب الشرط كما أنّه يجزم فـــي جـــواب الأمر والنهي والتمني والعرض بإضمار شرط في ذلك كلّه، ألا ترى بذلـــك أنّ العوامـــل عـــند الخلـــيل تعمل ظاهرةً ومحذوفة ؟ فثبّت " أصول نظريّة العوامل ومدّ فروعها " [٢].

والـــذي يقودنـــا إلـــيه تعليلُ الخليل هو أنّ الفعل "يغفر" جواب لما دلّ عليه الكـــلام المفهـــوم مـــن الاستفهام، والمعنى:هل تقبلون إنْ دللتُكم، وقد يكون الفعل" يغفـــر" مجزوماً جواباً لـــ" تؤمنون" فالكلام خبر، ولكنّه في معنى الأمر. أي: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا يغفرْ لكم [٣].

إنّ هـــذه الآيـــة من الآيات التي يعتاص علينا فهمها وإعرابها إنْ لم نحملها على المعنى ، فهي تتدرج تحت الجمل الخبريّة الدالة على الأمر .

١- انظر : الكتاب ، ج٣ ص ١٠٩.

٢ – ضيف شوقي المدارس النحوية ص ٣٨ .

٣- انظر: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج١ ص ٢٢٦ وانظر : البحر المحيط ج٨ ص: ٢٦

© Arabic Digital Library Yarmouk University

فجَـزْمُ الفعليــن " يغفـرْ " والمعطــوف عليه " يدخلْكم "؛ لأنهما واقعان في جــواب الجملــة الخــبريّة المقصود بها الأمر، وليس الجزم راجعاً لوقوعهما جواباً للاســتفهام (هــلْ أدلكــم) لفساد المعنى على هذا؛ " لأنّ السؤال عن مجرّد الدّلالة والإرشــاد بــدون عمــل آخــر ممّن اتّجه إليهم السّؤال لا يؤدي إلى أنْ يغفر الله ذنوبهــم، وأن يدخلهم الجنة ، فغفران ذنوب الناس لا يكون مسبّباً عن مجرّد دلالتهم إلــى مــا ينجــيهم وتوجــيه الإرشاد إليهم. وإنما يتسبّب عن الإيمان نفسه ، وعن الجهــاد "[1]. ألا تــرى معي أنّ إحلال معنى الأمر محلّ المضارع قد سوّغ جزم المضــارع في جواب معنى الأمر ؟! ومعنى هذا أن الصورة صورة الخبر والمعنى معنى الأمر.

والــذي أريد أنْ أقوله في كلام الزجاج إنّه قريب كلّ القرب من كلام الخليل فالخلــيل يــرى أنّ الفعل مجزوم في جواب معنى الشرط بينما يرى الزجاج الجملة الفعلــية المضــارعيّة " تؤمــنون" و " تجاهدون" على معنى الجملة الفعليّة الأمريّة وبالتالــي يكون الفعل " يغفر" مجزوماً في جواب الطلب على تقدير " إن " الشرطيّة المحذوفة، وكلامه فيه تسويغ مقبول لجزم المضارع.

ومــثل الآيــة الكريمة كثير من فصيح الأساليب الناصعة التي يحاكيها الناس حــتّى يومــنا هذا – كقول المزارع ينصح لزميله :(تزرع حقلك وتعتني به تحصدْ كثيراً) .

ومــن تعليلات الخليل قوله في الآية الكريمة : **[قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا]** (الكهف ١٨/٩٨)

---

[1] – النّحو الوافي جـ٤ ص ٣٦٦-٣٦٧ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

إنَّ هــذه الآية من باب " هذا شاة "، وهو باب المؤنث الذي يقع على المؤنث والمذكــر وأصــله التأنيــث [1]، فــتقول " ثلاثــة أشخص" وإنْ عنيْتَ نساءً ؛ لأنَّ الشَّــخصَ اســم مذكــر، وقالوا " ثلاثة أنفس" ؛ لأنَّ النفس عندهم إنسان [2]. واسم الإشــارة " هــذا " في الآية يعود على لفظ " السّدّ " أي : هذا السّدّ أو الفعل ، نعمة ورحمة من الله عزّ وجلّ . [3] .

وقد حمل البيت الآتي على الآية السابقة .

وإنَّ كلابــاً هــذه عَشْــرُ أبطــنٍ .

وأنــتَ بريء من قبائلــها العشر [4]

علــى تأنيــث البطن وحذف الهاء من العدد المضاف إليها حملاً على معنى القبائل. فالبطن مذكر إلاّ أن تريد به القبيلة فهو مؤنث [5] .

ومــن تعلــيلات الخلــيل قوله في الآية الكريمة: **[فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ]** *(الشعراء ٢٦/١١٩)*

الفُلــك لفــظ يُطلق على المفرد وعلى الجمع معاً، وقد جاء جمعُ التكسير منه علــى" فُعْــل " كما كُسّر عليه " فَعَلٌ " فنقول للواحد: "هو الفلك " فتذكر، وللجميع : "هــي الفُلــكُ " ولمّــا جمَع قال تعالى: **[... وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ...]** *(البقرة ٢/١٦٤)* كأنّه قال: " والسُّفُن " أو " الجواري ". وهذا كقولنا:

---

[1] – انظر: الكتاب جـ٤ ص ٤١ .

[2] – انظر: المصدر السّابق ، الصفحة ذاتها .

[3] – انظر: النحاس ، إعراب القرآن جـ٢ ص ٤٧٤ ، والكشاف جـ٢ ص ٦٩٨ .

[4] – انظــر: ابــن السّــرّاج . أبــو بكــر محمد بن سهل ت ٣١٦ هـ الأصول في النحو تحقيق :عبد الحسين الفتلي ، ط ٤ سنة ١٩٩٩ ، مؤسسة الرسالة – بيروت . جـ٣ ص ٤٧٧

[5] – انظــر: السّجســتاني. أبــو حــاتم سهل بن محمد ت ٢٤٨ هـ التذكير والتأنيث. تحقيق : إبراهيم السّامرائي . مطبعة الصّقدي . ص ٢٧

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أسَـد وأُسْد، ومثله: رَهْن – ورُهْن [1]. فالضمّة التي في " فُلك " وأنت تريد الجمع غير الضمة في " فُلك " وأنت تريد الواحد .

ومعنى كلام الخليل أنّ لفظة الفلك تصلح في سياق الإفراد والجمع، فيستوي فيها الاثنان. فمن قال في جمع أسَد: أُسْد لزمَهُ أنْ يقول في جمع فُلْك: فُلْك أي بإبقاء اللفظ على صورته الأولى [2]. والفلك بمعنى السّفينة، يذكّر ويؤنث وتقديرهما مختلفان، فإنّه إذا كان واحداً فكبناء قُفْل [3] وإذا كان جمعاً كان كبناء " حُمْر". وأظنّ أنّ اختلاف التقديرَيْن راجع إلى إزالة اللّبس، حتّى يظهر المفرد فنميزه من الجمع ، وأرى أنّ الفيصل في التمييز بين المفرد والجمع هو السّياق فحسب ، فلمّا قال " المشحون " علمنا أنّه صفة لمفرد مذكر " المركب" ، ولمّا قال "التي تجري" علمنا أنها صلة لجمع مؤنث أو مفرد مؤنث " السّفينة "، إذاً فهو يكون واحداً وجمعاً بلا علّة " [4]، وليس في كلام العرب جمع وواحد بلفظ واحد وحركة أوله في الجمع مثلُ حركته في الواحد إلاّ الفلك [5] ، فهذا اللفظ نجده في القرآن يتلوّى ويتغيّر، فقد ورد جمعاً مؤنثاً في الآيتين الكريمتين .

[... حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا...]
(يونس ١٠/٢٢) .

---

[1] – انظر: الكتاب جـ٤ ص ٥٦ .

[2]– انظر: المبرّد ، محمد بن يزيد ، المقتضب، ، تحقيق: عبد الخالق عضيمة. جـ ٢ ص٢٠٥

[3]– انظر: الفيروزآبادي ، مجد الدين بن يعقوب ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تحقيق: محمد علي النجار ، المكتبة العلمية ، بيروت – لبنان . جـ٤ ص ٢١٥

[4]– انظر: ابن خالويه ، الحسين بن أحمد ، ت ٣٧٠ هـ ، ليس في كلام العرب ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، ط٢ سنة ١٩٧٩، مكة المكرمة . ص ١٣٢-١٣٣

[5]– انظر: المصدر السابق ص ١٣٣ ، وانظر: ابن سيده . أبو الحسن علي بن إسماعيل ت ٤٥٨ هـ المخصص ، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي . منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت – لبنان . جـ١٧ ص ٢٨

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقوله تعالى: [... وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ...](فاطر ٣٥/١٢).

وأظـنّ أنّه لا ضابط يمنع من استعمال هذه اللفظة جمعاً ومفرداً، فقال تعالى "فـي الفلـك المشـحون" ولم يقل المشحونة مثلاً، مراعاة للفواصل؛ لأنّ آي سورة الشعراء تنتهي بحرف النون.

ومـن هـذا الـباب لفظ "الطّفل" فقد ورد في التنزيل العزيز مفرداً يراد به الجمع، وهذه صورة من صور الحمل على المعنى.

قـال تعـالى: [... وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً...] (الحج ٢٢/٥) ولفظ "طفل"، أصلاً ، مفرد وجمعه " أطفال" وهو الصّغير مـن كلّ شيء، " وقد يكون الطفل مثل الجُنُب " أي يأتي للمفرد والجمع[١]، ويجوز أنْ يُثـنى ويجمع ويؤنّث فتقول: طفلان وأطفال وطفلة [٢]، وقد يكون أُفرد هنا؛ لأنّ مخـرجه مخـرج التمييـز، كمـا تقول: زيد أحسنُ النّاس ثوباً[٣]. ووَضْع الواحد موضـع الجمـيع كثـير في لسان العرب، ومنَ المفسّرين مَن حمل لفظ طفل على معـنى الجـنس أو لأنّـه مصدرٌ في الأصل [٤] ، وكما نعلم فإنّ المصادر لا تجمع لأنهّـا تـدلّ على الكثرة وإنْ كانت مفردة، ولستُ أرغب في حمل لفظ الطفل على المصـدرية ؛ لأنـه يجمع على أطفال [٥] ، وقد ورد هذا الجمع في التنزيل العزيز قال تعالى : [وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا...] (النور ٢٤/٥٩) .

١- انظر: بصائر ذوي التمييز جـ٣ ص ٥١٠ .

٢- انظر: المخصّص جـ١٧ ص ٣٠ .

٣- انظر: المقتضب جـ٢ ص ١٧٤-١٧٥ .

٤- انظر: البحر المحيط جـ٦ ص ٣٢٨ .

٥- انظر: المفردات في غريب القرآن ، مادّة " طفل " .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وربمـــا نســـتطيع حمل الآية على الالتفات، ففي الآية عدول عن الجمع إلى الإفـــراد [1]، وسياق الآية جاء بصيغة الجمع، كقوله: الناس– كنتم– خلقناكم– لكم– نخـــرجُكم، ثـــم وردت لفظة الحال بصيغة المفرد "طفلاً " لا بصيغة الجمع "أطفالاً " المناســـبة لضـــمير الجمع العائد على المخاطبين في الألفاظ المذكورة، فإنّ الالتفات يشـــمل التنويع بين الضمائر والانتقال من معنى إلى معنى.[2] ففي رأيي أن بعض مواطـــن الالـــتفات ينضـــوي تحت الحمل على المعنى كهذه الآية مثلا. وإن كانت وظيفتا الضّربيْن مختلفتيْن .

ويـــرى إبراهيم السامرائي أنّ " طفلا " في الآية اسم جامع يقابل " الأطفال " أي البـــناء كمـــا يكـــون مفردا يكون دالا على الجمع، وهذا من الكلم القديم الذي لا نعرفه إلا في كلام الله جلت عظمته.[3]

ولســـت أؤيـــده فـــي مـــا ذهب إليه ،فلا يقول قوله إلا من استقصى الشعر الجاهلـــي كله أو استظهر به غاية الاستظهار، فربما كان مثل ذلك في الكلم القديم أو فـــي الشـــعر الـــذي ضـــاع أكـــثره ، وإن لم نقف على مثل ذلك الاستعمال في أشعارهم فقد يكونون تكلموا به في ما بينهم ، فالقرآن بلسانهم نزل .

ومـــن هذا الباب لفظ " الطاغوت ". قال تعالى : **[وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ]** *(الزمر ٣٩/١٧)* .

. يقـــول ســـيبويه: إن الطـــاغوت اســـم واحد مؤنث ، يقع على الجميع كهيئة للواحـــد .[4] ولفـــظ المفـــرد الـــذي معناه الجمع هو صورة من صور الحمل على المعنى .

---

[1] – انظر: طبل حسن ، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ط١ سنة ١٩٩٠ . ص ١١٥

[2]– انظـــر: طـــبانة بـــدوي ، معجـــم البلاغة العربية ، الالتفات ،ط٤ سنة ١٩٩٧ ، دار المنارة جدة ، ودار ابن حزم . ص ٦٢٦

[3]– انظر: من وحي القرآن ص ٩١ .

[4]– انظر: الكتاب ج٣ ص٢٦٣٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والطـــاغوت هـــو الشـــيطان، وأصله الطُغوُوت مشتق من قول القائل : طغا فـــلان يطغـــو إذا عدا قدره فهو كالجبروت والخلبوت: بمعنى الكذب والخداع وهو على وزن فَعلوت.[1]

وتأنيـــث " الطـــاغوت " فـــي الآية لعودة الضمير عليها مؤنثا حملا لها على معنى الآلهة التي كانوا يعبدونها .[2]

ومـــن هـــذا الباب قوله تعالى **[خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ]** *(البقرة ٢/٧).*

قـــال : علـــى ســـمعهم وهو يريد أسماعهم، فالسمع في معنى المصدر فوحد كمـــا تقول : يعجبني حديثكم، ويجوز أن تكون إضافة السمع إليهم دلالة على معنى أســـماعهم.[3] فالسمع لفظ يقع مع طائفة قليلة من الألفاظ التي تكون مفردة توصف بجمـــع، ومـــا ســـوى تلـــك الطائفة لا يدخل في كلام العرب من حيث دلالتها على الجمع .[4]

وقـــد أعجبنـــي تأويل الشيخ محمد متولي الشعراوي– رحمه الله– في سبب وقـــوع السمع مفردا في القرآن ، وضرب لذلك مثلا: أنّ طائفة من الناس يجلسون فـــي مكان واحد، كل واحد منهم يرى غير ما يراه صاحبه، ولكنهم جميعا يسمعون الصوت نفسه، فمن هنا جمع البصر وأُفردَ السمع .

ومـــن تعلـــيلات الخلـــيل ما قاله في الآية الكريمة **[أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ]** (الحج ٢٢ / ٦٣).

---

[1]– انظر: تفسير الطبري ج٥ ص٤١٩ .

[2]– انظر: المخصص ج١٧ ص ٢٩ .

[3]– انظر: معاني القرآن وإعرابه ، ج١ ص ٨٣ .

[4]– انظر: " ليس في كلام العرب " ص ١٤٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقــد سأله سيبويه عن الفعل المضارع الناقص " تصبح " : لِمَ لم ينصب بعد الفــاء، فأجــاب بــأنّ الــرفع لازم؛ لأن الكلام موجب، وقد حمل الآية على معنى التنبــيه، وحمل الاستفهام على المعنى، والتقدير: أتسمع؟! أنزل الله من السماء ماء فكــان كذا وكذا، والفعل مرفوع في الآية؛ لأن النصب يغير المعنى وينقض النفي[1] والاســتفهام في الآية بمعنى الخبر أو الإثبات والتقرير، فكأن الاستفهام لا تأثير له فهــو هنا بمعنى اعلمْ. [2] أو قد رأيت، والذي نعرفه أن ما بعــد الفــاء ينتصب إذا كــان المســتــفْهم عــنه ســــبباً له، وليست رؤية الغــيث نازلا توجب اخضرار الأرض بأيــة حــال، وإنمــا يجب عن الماء [3]، ولستُ أملك إلا أن أشير إلى أن تعليل الخليل يؤدي إلى الفهم الصحيح لهذه الآية .

ومــن تعليلات الخليل في الآية الكريمة **[وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ]** *(المنافقون ٦٣ /١١)*

أنْ جعل هذه الآية وقاسها على بيت شعري لزهير بن أبي سلمى (ت ١٣ ق.هـ)

بدا لي أني لست مدرك ما مضى

ولا سابقٍ شيئا إذا كان جائيا [*]

---

[1]- انظر: الكتاب ج٣ ص ٤٢ .

[2]- انظر: الفراء ، معاني القرآن ج ٢ ص ٢٢٩ .

[3]- انظر: التبيان في إعراب القرآن ج٢ ص ١٨٣ .

[*]- جعــل ابــن جنــي خــبر ليس في البيت – وهو المعطوف عليه –من الأصول ، وجعل المعطوف فــرعا علــيه ونجــد فــي البيت أن الأصل لم يراع فيه الخفض ، ولكن الفرع روعي فيه الجر . انظر: الخصائص ج٢ ص ٣٥٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فإنمـــا جاء اسم الفاعل "سابق" مجرورا؛ لأنه شاع في كلامهم دخول الباء في خـــبر "لـــيس" فلما كان الأمر كذلك ، توهموا وقوعها في موضعها، فجاء ما عطف علـــى مجـــرورها مجـــرورا وكأنّها موجودة ، وكذلك هذا الفعل "وأكن" ، فلما كان الفعـــل الـــذي قبله قد يكون جزما ولا فاء فيه تكلموا بالثاني وكأنهم قد جزموا قبله فعلى هذا توهموا هذا.[1]

ومـــن هـــنا تأتي أهمية العلة. فهي ركن من أركان القياس ، والقياس أصل مهـــم مـــن أصـــول الـــنحو العربي، فلا قياس بلا علة ؛ فلذلك تسارع النحاة إلى اســـتنباطها من تلك الظواهر اللغوية ، وأقيسة الخليل قائمة على التشابه بين المقيس والمقـــيس عليه في المعنى، فإنّ وجها من وجوه الشبه يكفي أحيانا في نظره لإجراء مـــثل هـــذا القياس، فليس شرطا أساسيا أن يتشابه المقيس والمقيس عليه تشابها تاما فـــي جميع الوجوه ، أي أن العلة عند الخليل تدور حول التشابه بين الأصل والفرع في ناحية من النواحي أو أكثر[2] .

إن هـــذه الآيـــة يـــنطقها الذي نزل به الموت، فيتمنى الرجعة كأنه قال:هلاّ أخّرتني[3].

" فلـــولا " هـــنا تفيد معنى العرض لا التحضيض ؛ إذ لا يمكن لرجل حانت ســـاعته أن يحض الله – تقدست أسماؤه – على تأجيل ساعته ، بل يطلب ويعرض لأن فـــي التحضـــيض إزعاجـــا، وفـــي العـــرض لينا وتأدبا، وقد تأتي هنا بمعنى الاســـتفهام[4]، وحملهـــا على التمني – في رأيي– أحسن لقول ابن عباس رضي الله

---

[1]- انظر: الكتاب ج ٣ ص١١٧ .

[2]- انظـــر: عبابـــنة جعفـــر ، مكانـــة الخليل بن أحمد في النحو العربي ، ط١ سنة ١٩٨٤ دار الفكر ، عمان – الأردن . ص٢١

[3]- انظر: تفسير الطبري ج٢٨ ص ٧٦ .

[4]- انظر: مغني اللبيب ص ٣٦٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

عـنهما: " هـذه الآيـة أشد على أهل التوحيد ؛ لأنه لا يتمنى الرجوع في الدنيا أو التأخير فيها أحد له عند الله خير في الآخرة " .[1]

وجـزم الفعل المضارع الناقص " أكن "؛ لأنه جاء معطوفا على ما قبله على تقديـر إسـقاط الفـاء، وجـزم " أصّدّق " ولولا الفاء لكان " أصّدّق " مجزوما.[2] والفعـل " أصّـدّق " هنا منصوب بأنْ ، والمصدر المنسبك من أنْ وصلتها في قوله فأصّـدّق مبتدأ محذوف الخبر والجملة جواب شرط مقدّر، أي إن أخرتني فتصّدقي ثابت، فالفاء هنا رابطة لا عاطفة للمصدر المؤول . [3]

وفـي هـذا الكـلام غموض وتشويش، والأفضل أن نقتصر على القول إن الجـزم هـنا محمـول علـى موضـع الفـاء، دون حمله على ما عملت فيه، أي النصـب.[4] ومعـنى كـلام المبرد أن الجزم هو عطف على موضع فأصّدّق؛ لأن موضـعه قـبل دخـول الفاء فيه جزم؛ لأنه جواب التمني، وجواب التمني إذا كان بغـير فـاء أو واو مجـزوم؛ فلذلك جزم الفعل، ومن لم يجزم فإنما فعل ذلك؛ لأن جواب الشرط غير واجب فيه الجزم .

والـذي يريد الباحث قوله في تعليل الخليل إنه لم يكن موفقا تماما، فقد رأى أن الفعـل " أكن " عطف على محل الفعل الذي قبله على توهم جزمه، أو عطف " أكـن " على " أصدق"، وهو منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية ، فجعل موضع " أصـدق " الجـزم علـى توهم إسقاط الفاء منه، والأولى بنا أن نقول : إن الفعل عطـف على ما قبله على تقدير إسقاط الفاء أي جزم " أصّدّق "، فالتقدير لفظ أليق مـن الـتوهم، فـلا توهم في التنزيل العزيز، وأرى أن نستبدل بهذه التسمية تسمية

---

[1]- انظر: تفسير القرطبي ج١٨ ص ١٢٧ .

[2]- انظر: المقتضب ج٤ ص٣٧١ .

[3]- انظر: حاشية شهاب الدين الخفاجي على تفسير البيضاوي ج٩ ص ١٨٤ .

[4]- انظر: المقتضب ج٢ ص ٣٣٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أخـــرى. أمـــا فـــي غير القرآن فلنا أن نقول : العطف على التوهم،[1] كما جاء في بيت زهير وبيت الأعشى (ت ٧هـ).

إن تركبوا فركوبُ الخيل عادتُنا

أو تنزلون فإنا معشر نُزُلُ [2]

وهـــناك تعليل آخر للآية– وقد رأيت فيه وجها حسنا– وهو حمل الآية على الشـــرط ، فلـــو أنـــنا حملنا "لولا" على معنى "إن" الشرطية لاستقام المعنى ، على تقدير" إنْ أخّرتني أكنْ " فيكون الجزم جوابا للشرط أو جوابا لمعنى الاستفهام.[3]

نلاحظ مما سبق أن النحاة انقسموا إلى فريقين :

فـــريق يـــرى العطف على الموضع أو المحل كأبي جعفر النحاس [4] وأبي علي الفارسي [5] والزمخشري [6]، وفريق يرى الجزم على توهم الشرط الذي يُدلّ عليه بالتمني ، ولا موضع هنا، وفي مقدمتهم الخليل .

وقـــد فـــرّق أبـــو حـــيان الأندلســـي بين العطف على التوهم والعطف على الموضـــع ، قال:" العامل في العطف على الموضع موجود دون مؤثره، والعامل في العطـــف علـــى الـــتوهم مفقـــود وأثره موجود ".[7] والذي أراه في الآية أنّ العامل مفقـــود، ولكـــنّ أثـــره موجـــود وهو "الجزم". ألا ترى أن الشرط ليس ظاهراً في الآيـــة؟! ومـــنهم مـــن ذهب إلى أنّ أداة الشرط وفعل الشرط محذوفان، ودل على

---

[1]- انظر: مغني اللبيب ص ٥٥٣ .

[2]- انظـــر: الكـــتاب ج٣ ص ٥٦ ، وانظـــر: مكـــرم عبد العال سالم ، شواهد سيبويه من المعلقات في ميزان النقد ط١ سنة ١٩٨٧ ، مؤسسة الرسالة – بيروت . ص ٨٢

[3]- انظر: التبيان في إعراب القرآن ، ج٢ ص٤١٤ .

[4]- انظر: النحاس ، إعراب القرآن ج٤ ص ٤٣٦ .

[5]- انظر: البحر المحيط ج٨ ص ٢٧١ .

[6]- انظر: الكشاف ج٤ ص٥٤٦ .

[7]- البحر المحيط ، ج٨ ص ٢١٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المحـــذوف ما قبله.[1] والباحث يرى أن تعليل الخليل أدق ، على أن نقلع عن لفظي "الـــتوهم" و "التخـــيّل" حيـــن نعرض لآية في القرآن. ومهما يكن من أمر اختلاف الـــنحاة فـــي العطـــف علـــى التوهم أو العطف على الموضع. فإنّ ما يعنينا هو أن الحمل على المعنى يشمل كليهما .[2]

ومـــن تعلـــيلات الخلـــيل في الآية القرآنية: **[إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا..]** *(التحريم ٦٦/٤)*.

أنْ أجابـــنا عـــن التساؤل: كيف جاز في الآية إضافة لفظ " قلوب" وهو جمع تكســـير على زنة فُعول إلى مثنى، مع أن الله – تعالى جدّه – لم يجعل لأحدٍ منا من قلبين في جوفه ؟!

ذهـــب الخلـــيل إلـــى أنّ هذه الآية كقولنا: فعلنا، أي بإدخال النا الدالة على الفاعليـــن مـــع أنّ اللّذيـــن قاما بالفعل اثنان، على أن يكون الشيئان كل واحد منهما بعـــض شيء مفرد من صاحبه، كقولنا : ما أحسنَ رؤوسَهما!. والخليل بهذا المثال يجعـــل الاثنين يتكلمان بما فعلا وكأنهم ثلاثة. " وقد قالت العرب في الشيئين اللذين كـــل واحـــد مـــنهما اســـم على حدة وليس واحد منهما بعض شيء كما قالوا في ذا لأن التثنـــية جمـــع. فقـــالوا كمـــا قالوا: فعلنا" [3]. وعلى هذه الآية جرى كثير من أســـاليب العـــرب، فقـــد قالوا : ما أحسنَ وجوههما! ولم يقولوا ما أحسن وجهيهما! والـــذي يعضـــد تعليل الخليل قول الاثنين : نحن فعلنا [4] فقاس ما وقع في صيغة التعجـــب علـــى مـــا وقع في الفعل المتصل بنا الدالة على الفاعل، فليس للاثنين أن يأتـــيا بفعل دال على عملهما بغير إسناده إلى النا، ولكن العرب أرادت أن تفرق بين مـــا يكون منفردا، أي قائما بذاته ؛ إذ لا يصلح حين يجزّأ كقولنا: ثوب ودار، وبين

---

[1]- انظر: الشرط والاستفهام في الأساليب العربية ص ٥٥

[2]- انظـــر: حاشـــية الصـــبان علـــى شـــرح الأشموني على ألفية ابن مالك دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه . ج٢ ص ١٥٨

[3]- الكتاب ج٤ ص٩٨ .

[4]- انظر: الكتاب ج٢ ص٤٥ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

مـــا يكـــون شـــيئا من شيء كالعضو من الإنسان أو الحيوان مثلا، ومعنى هذا أن العـــرب اســـتعملت للضرب الأول وهو ما كان منفردا إذا ثُنّيَ لفظ التثنية، في حين اســـتعملت للضـــرب الثاني وهو ما كان شيئا من شيء لفظ الجمع وفعلت ذلك عَيْن عَمْـــد للـــتفريق بيـــنهما. وعلى هذا – في أغلب الظن – ينتفي قولهم في علة عدم الـــتقاء تثنيتين في كلمة واحدة : إنما فعلوا ذلك توخّيا للخفة .[1] فماذا هم صانعون فـــي قول رؤبة بن العجاج (ت ١٤٥هـــ): ما أحسن رأسيْهما ؟! وماذا هم صانعون في قول بعضهم: " ظهراهما مثل ظهور التُرسيْن " .[2] ؟!

ونســـتطيع أن نقول: من الألفاظ ما يجمع – غالبا – وأنت تريد التثنية، وذلك إذا كـــان مـــا في البدن من جارحة واحدة.[3] وهذه الآية من باب حمل المثنى على معـــنى الجمع.[4] وهي صورة من صور الحمل على المعنى، أو صورة من شجاعة العربـــية؛ لأن كلام الآية من البديع، ففيه قوة وتصرف من جمع في اللفظ إلى تثنية فـــي المعنى مع الحفاظ على الفصاحة والبلاغة، فصار الكلام بذلك شجاعا " بالنسبة إلـــى العربـــية تشبيها بالرجل الذي تكون فيه شجاعة تحمله في الحرب على التقديم والتأخير، والقرب والبعد، والإقبال والإدبار ".[5]

---

[1]- انظـــر: تفســـير الجلالين ، الآية ، وانظر: الألوسي . أبو الفضل شهاب الدين محمود ت ١٢٧٠ هـــ روح المعانـــي فـــي تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، إدارة الطباعة المنيرية دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان . ج ٢٨ ص١٥٢

[2]- انظر: الكتاب ج٢ ص٤٥ .

[3]- انظـــر: " لـــيس في كلام العرب " ص٣٤٠ ومعاني القرآن وإعرابه ج٢ ص٢٢ والتبيان في إعراب القرآن ج٢ ص ٤١٨ .

[4]- انظـــر: الفارســـي . أبـــو علـــي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار ت ٣٧٧ هـــ ، البغداديات تحقيق : صلاح الدين عبد الله السنكاوي ، مطبعة العاني ، بغداد – العراق . ص ١٤٠

[5]- ابـــن الأثـــير الحلبـــي ، نجـــم الديـــن أحمد بن إسماعيل ت ٧٣٧ هـــ ، جوهر الكنز " تلخيص كنز البـــراعة فـــي أدوات ذوي البراعة " ، تحقيق : محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف بالإسكندرية . ص ١١٩

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وأظـــن أن أول مـــن جعل علة الحمل على المعنى من باب شجاعة العربية هو ابن جني.[1]

ومـــن تعلـــيلات الخليل في الآية الكريمة : **[السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً]** *(المزمل ٧٣ /١٨)* .

زعمـــه أنّ هذه الآية كقولنا : قطاة مُعَضِّل، أو امرأة مرضع.[2] وواضح من الآيـــة، أن السماء – وهي لفظة مؤنثة – حملت على التذكير، فقال منفطر ولم يقل مـــنفطرة، وحمـــل المؤنـــث على المذكر كثير في القرآن، وهو صورة من صور الحمل على المعنى.

إن الخلـــيل في تعليله يريد أن يفرق بين " السماء منفطر"،"والسماء منفطرة ". فالســـماء مـــنفطر: أي السماء ذات انفطار، وكذلك قولنا: للمرأة "مرضع": أي التي بهـــا الرّضـــاع، أو" التي معها صبيّ ترضعه" [3] والمقصود بذلك على النسب، ولو قلـــنا: ســـماء مـــنفطرة لجـــاء القول على الفعل ، بمعنى انفطرت مرة واحدة دون انتظار انفطار آخر .

وذهـــب بعضهم إلى أن السماء تذكر وتؤنث ؛ لأنه كالنخل وما يجري مجراه مـــن أســـماء الأجناس التي تذكر وتؤنث ؛ فلذلك أتى " منفطر " على التذكير ، أي بإسقاط الهاء .

---

[1]- انظر: الخصائص ج٢ ص ٣٦٠ .

[2]- انظر: الكتاب ج٢ ص٤٣ .

[3]- الفراء ، معاني القرآن ج٢ ص٢١٤

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وأحَـبُّ الأقــوال إلى الباحث هو حمل لفظ السماء على معنى السقف [1] كما ذهــب إلـــى ذلك أبو عمرو بن العلاء قال: السّماء منفطرة، ألقي الهاء لأن مجازها السقف تقول: هذا سماء البيت. [2]

والدلـيل علـــى ذلك قوله تبارك وتعالى **[وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا...]** *(الأنبـياء ٢١ /٣٢)*، وذلـــك لا يضـــعف من مجيء "السماء" بمعنى الجمع، كقوله تعالى **[...ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ...]** *(البقرة ٢/٢٩)* .

فالسماء هنا محمولة على المعنى أو محمولة على الجمع الآيلة إليه .[3]

ثـــم نجد في موضع آخر من التنزيل العزيز أن لفظ " السماوات " وهو جمع مؤنـــث ســـالم يحمـــل على معنى المفرد ، كقوله تعالى **[أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...]** *(الأنبياء ٢١/٣٠)* .

فالســـماوات فـــي الآية بمعنى المفرد، بدليل عودة الضمير في " كانتا " بلفظ التثنـــية، ولو أراد الله – تقدست أسماؤه – الجمع لقال : كانت، ثم قال ففتقناهما. أو بحملها محمل العقلاء كُنّ – وفتقناهُنّ . والله أعلم .

إن علـــة الحمل على المعنى واحدة من العلل الكثيرة التي خاض فيها الخليل تعلـــيلا، وأولاهـــا اهـــتماما كبيرا، ثم أخذ يضع لكل ظاهرة نحوية علة عقلية، وقد رأيـــنا ذلـــك ممـــا عَرَضْتُ من آيات حملت على المعنى، ولا جرم أن الخليل في تعلـــيله – باعـــتراف الـــنحاة كلهم – سيد القوم وحامل اللواء [4]. ولأن الخليل كان

---

[1]- انظـــر: مكـــي بـــن أبـــي طالب ، مشكل إعراب القرآن ، تحقيق : ياسين محمد النواس ، ط٢ سنة ٢٠٠٠م ، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق – سورية . ص ٧١٩

[2]- ابـــن فـــارس ، الصـــاحبي فـــي فقـــه اللغة وسنن العرب في كلامها تحقيق : السيد أحمد صقر ط ١٩٧٧ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة – مصر . ص ٢٤٥

[3]- انظر: تفسير الجلالين ، الآية .

[4]- انظـــر: مقدمـــة شوقي ضيف على كتاب الإيضاح في علل النحو للزجاجي. تحقيق : مازن المبارك ط١٩٥٩ ، مكتبة دار العروبة والقاهرة – مصر . ص "ب"

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أكثر النحاة أستنباطاً للعلل؛ ولأنه " زعيم المدرسة النحوية القياسية التقعيدية ".[1] فلم يكن من الغريب أن يسألوه عن تلك العلل : أعن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك، أجاب: " إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها ".[2] وبعد أن فهم الخليل لغتها واستوعب طرائق لسانها وقع على تلك العلل، وجاء بالحجج والبراهين على ذلك، فاعتلّ بما رأى أنه علّة، وما ساعده على استنباط العلل وتخريج ما وقع إليه من كلام العرب أو تخريجه ما جاء في القرآن من آيات حملت على المعنى، هو أنه من أصحاب الكلام؛ بدليل شهادة الجاحظ وحمزة ابن الحسن الأصفهاني .[3]

ثم إنّ الخليل- عفا الله عنه - ترك باب العلّة مفتوحا على مصراعيه، ولكن دون أن يتعدى ذوق العرب في ما يستحسنونه أو يستقبحونه من استعمالاتهم، فما أن سمع القوم منه ما قال: " فإن سنح لغيري علّة لما علّلته من النحو هي أليق مما نكرته بالمعمول، فليأت بها " [4] حتى راحوا يوسعون نطاق العلة ، فاتسعت بذلك شقة الخلاف بينهم؛ لأنها صارت عندهم كالقياس، مما عاد على النحو بالضرر؛ إذ إنّ لفيفا من هؤلاء النحاة أُنسِي أن الغاية من التعليل هو إزالة الإبهام عن اللغة ولهذا وجدنا ابن مضاء القرطبي يشن حملة شعواء على الذين يلتمسون مثل تلك العلل ، ونادى بنفيها ما عدا البسيطة منها التي تعين على فهم كلام العرب .[5]

---

[1]- المخزومي مهدي ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، أعماله ومنهجه ، ط٣ سنة ١٩٨٦ دار الرائد العربي ، بيروت – لبنان . ص ٦١

[2]- الإيضاح في علل النحو ، ص ٦٦ وانظر: مقالة علي النجدي ناصف " حول الدراسات النحوية " ، مجلة مجمع اللغة القاهريّ سنة ١٩٧٧ . ج٤٠ ص٧

[3]- انظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي ، أعماله ومنهجه ص ٥٦

[4]- الإيضاح في علل النحو ص ٦٦ .

[5]- انظر: " الرد على النحاة " ص١٥١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- تعلاّت سيبويه في الحمل على المعنى .

لـــم يكـــن سيبويه أقل من أستاذه الخليل اشتغالا بالتعليل. ولا بد من الإشارة إلـــى أنّ فضـــل سيبويه في حركة التعليل هو فضل في الإكثار، فقد استقل تعليلات القـــوم، فـــراح يوسع ما كان نزرا قليلا عند شيوخه المتقدمين.[1] وليس غريبا أن نلفـــيَ تشـــابها كبـــيرا بيـــن تعلـــيلاته وتعليلات الخليل من حيثُ عنايتُها بالمعنى واهـــتمامها بقياس الشبيه بشبيهه. وهو في ذلك يكمل البناء الذي وضع الخليل لبناته الأولـــى معتمدا في كل ذلك على ذوق سليم وحسّ لغويّ سديد ينفر من الثقل ويأنس للخفـــة ، ومعـــتمدا علـــى إيمانه بأن العرب أمة حكيمة ، " فراح يعلل متوخيا وجه الحكمة والصواب ".[2]

ومـــن تعليلاته ، في الآية الكريمة :**[بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ]** *(البقرة ٢/١١٢)*.

أنْ أجـــرى الضمير العائد على الاسم الموصول "من" مفردا على لفظ الواحد فـــي الأول، وهو ضمير "أسلم" المستتر وتقديره "هو" وجعل الآخر على المعنى.[3] فـــإذا حملـــت "مـــن" علـــى المعنى جاء ما يعود عليها جمعا، ومثل هذا ما نُطِقَ به مذكـــرا ثـــم أنـــث. نجد في الآية أن الفعل وُحّد وذُكّر على " لفظ من"، ثم قال "ولا خـــوف علـــيهم" فجمع، ورجع من لفظ "من " إلى معناه ، فالحمل كان مناصفة بين اللفـــظ والمعـــنى، " وهـــذا جـــيد ؛ لأن "مـــن" تكون جمعا على لفظ الواحد وكذلك الاثنان".[4]

---

[1]- انظر: النحو العربي ، العلة النحوية ، نشأتها وتطورها ص ٦٣ .

[2]- المرجع السابق ص ٦٥ .

[3]- انظر: الكتاب ج١ ص١١٠ .

[4]- المقتضب ج٢ ص ٢٩٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولا يجـوز القول : بلى من أسلموا ، ثم بعد ذلك وهو محسن .[1] ونفهم من هـذا الكـلام أنـه مـن الضـعف في لسان العرب الابتداء بالحمل على المعنى ثم الانصراف إلى الحمل على اللفظ .

ولكـن الآيـة قدّمت اللفظ وأخرت المعنى، وذلك دقيق حسن .قالوا إنه ليس فـي شـيء من العربية ما رُجع من معناه إلى لفظه، إلا في آية واحدة في القرآن اسـتخرجها ابـن مجاهد وهي قوله تعالى:[...**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا**] *(الطلاق ٦٥/١١)* .

فـرجع بعـد الجمع إلى التوحيد ، وهذه الآية تفنّد رأي من ذهبوا إلى أنه لا يرجع من المعنى إلى اللفظ .[2]

نخلـص مما تقدّم إلى أن "من" لها لفظ ومعنى، والألفاظ الجارية عليها تكون محمولـة على لفظهـا ومعـناها، [3] وإن كنـت أميل إلى حملها على المعنى في المواضـع التـي قـد توقع في لبس، كالحديث مع المؤنث فنقول: من قام ؟! حملا علـى اللفـظ، وهـذا يُعمّي على المخاطب، ولو حمل الكلام على المعنى لقلنا: من قامـت ؟! وفـي ذلـك إزاحة للّبس. ومن تعليلات سيبويه قوله في الآية الكريمة : [... **فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا...**] *(النساء ٤/٤)*

إنّ هـذه الآيـة مما جاء على لفظ الواحد يراد به الجميع [4] و قال:" وليس بمسـتنكر فـي كلامهـم أن يكون اللفظ واحدا والمعنى جميع ".[5] أقول: هذا النوع قليل في القرآن .

---

[1]- انظر: " ليس في كلام العرب " ص٢٢٠ .

[2]- انظر: المصدر السابق ص ٢١٩ .

[3]- انظر: المخصص ج١٧ ص٧٥ .

[4]- انظر: الكتاب ج١ ص٢٧١ .

[5]- الكتاب ج١ ص٢٦٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويجـوز فـي الآية أن نقول " أنفُساً ". ويرى الباحث أنّ توحيد النفس ههنا أبلـغ في التفسير والتبيين؛ لأن الغرض بيان الجنس.[1] والواحد يدل عليه، فإن كان لفـظ الواحـد يـدل دلالة الجمع، فالأنسب – إذاً – المجيء بلفظ الواحد. فما أغنى الآيةَ عن لفظ الواحد لو دخل الضيم على المعنى !.

ومـن تعليلات سيبويه قوله في الآية الكريمة **[وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ(٢١) وَحُورٌ عِينٌ]** *(الواقعة ٥٦ /٢١-٢٢)*

" لمّـا كـان المعـنى في الحديث على قولهم: لهم فيها، حمله على شيء لا يـنقض الأول فـي المعـنى" [2]، ومعـنى قول سيبويه: أنّ في جنات النعيم أكوابا وأبـاريق وكأسا من معين وفاكهة ، ولهم فيها لحم طير وحور عين ، فالعطف هنا بالـرفع علـى كـلام مجرور بالمعنى، فإنه يطاف بالأكواب والأباريق ، ولكن لا يُطـاف بـالحور، فكـان لا بد من تأويل الرفع على ما يتسق والسياق، شريطة ألا يُفسـد الـتأويل معـنى السياق، وأظن أن تقدير سيبويه " لهم فيها " يفي بالغرض. ومنهم من قدر كلاما آخر فقال: عندهم أو ثَمّ حور عين .[3]

وقـد قـاس سـيبويه على الآية قول العرب: "هذا ضارب عبد الله وزيدا ". فجـاز نصب " وزيدا " على إضمار فعل يُفهم من سياق الكلام، وجاز إضمار الفعل هـنا؛ لأن معـنى "ضارب" وهو اسم فاعل يؤدي إلى معنى الفعل (ضرب) ، وإن كان لا يعمل عمله ، فحمل على المعنى دون أن ينقُضَ الأول في المعنى .[4]

---

[1]- انظر: الكشاف ج١ ص٥٠١ .

[2]- الكتاب ج١ ص٢٢٨ .

[3]- انظر: التبيان في إعراب القرآن ج٢ ص٣٩٦ .

[4]- انظر: الكتاب ج١ ص٢٢٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويفهم من كلام سيبويه أنّ الرّفع في الآية محمول على إضمار خبر يدل عليه قوله تعالى :[يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ](الواقعة ٥٦/ ١٧) فلا يحمل على معنى يطوف، وإنما على تقدير خبر كقولنا (لديهم) أو (عندهم)، وبهذا التقدير يستقيم المعنى دون اللجوء إلى العطف الذي يفسد المعنى به، والذي يعضد هذا التقدير مجيء آي أُخَرَ في التنزيل العزيز مسبوقة بهذا الظرف كقوله تعالى [1] [وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ] (الصافات ٣٧/٤٨). وقوله تعالى [يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ] (الصافات ٣٧ /٤٥)

ومن تعليلاته في الآية الكريمة [مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ] (الأنعام ٦/ ١٦٠)

تسويغه مجيء العدد "عشر" في الآية بحذف التاء مع أنه أضيف إلى مذكر؛ وذلك لأن واحد الأمثال "مثل" مذكر. والقاعدة تقول: إن كان الموصوف مذكرا أنث العدد، وإن كان مؤنثا ذُكّر. وذهب سيبويه إلى أن موضع " أمثالها " ليس موضعا يحسن فيه الصفة، كما يحسن فيه الاسم " فلما لم يقع إلا وصفا صار المتكلم كأنه قد لفظ بمذكرين ثم وصفهم بها ".[2] وقاس على الآية قولهم :"ثلاثة نسّابات "، فالأصل أن يقال : ثلاث نسّابات على حذف التاء من العدد ؛ لأنه مضاف إلى معدود مؤنث " نسّابة "، ولكنهم قالوا " ثلاثة "كأنه وصف المذكر. نفهم من ذلك أن تذكير العدد في الآية جاء مراعاة لموصوف المحذوف وهو حسنات .[3]

---

[1]- انظر: أبو علي الفارسي ، البغداديات ، " المسائل المشكلة " ص٢٢٠ .

[2]- الكتاب ج٤ ص٤٦ .

[3]- انظر: معاني القرآن وإعرابه ج٢ ص٣٠٩ ، وانظر: البغداديات ص٥١٧ وانظر تفسير الرازي ج١٤ ص١٠ وشرح التصريح على التوضيح ج٢ ص٢٧١

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وإضـــافة العـــدد إلـــى غير اسم غير جائز في لسان العرب، ولكن جاز هنا لأن الأمثال في الآية تشبه الاسم المعدود وهو المحذوف "حسنات" .[1]

وأفضـــل مـــن جـــاء بجديد في هذه الآية هو العكبري قال: إن تذكير العدد "عشـــر" ؛ لأن الأمـــثال "محمولـــة على المعنى ومعناها مؤنث ؛ لأن مثل الحسنة حســـنة ".[2] وهـــذا فـــي رأيـــي أبلغ في التعبير، ألا ترى أن لفظ " أمثالها" يؤدي غرضين ؟! : معنى الحسنات والتنويع؛ بحيث لا يتكرر اللفظ مرتين .

ومـــن تعلـــيلات سيبويه قوله في الآية **الكريمة [وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ...]** *(يوسف ١٢/٣٠)*

إن لفـــظ النســـوة في معنى الجمع؛ ولذلك لم يكسر عليه الواحد [3]. ومعنى كـــلام ســـيبويه أن سبب حذف العلامة من الفعل " قال " هو أن النسوة بمعنى جمع النســـوة ، فكـــأن التذكـــير في الفعل بتأثير معنى النسوة وهو الجمع، وقد يعبر عن الجمـــوع بالجماعـــة والجمع.[4] والنسوة هو جمع قلة لا واحد له من لفظه. [5] وقد زعـــم ثعلـــب أنّ النسوة عدد قليل، والنساء اسم جمع يدل على الكثرة ؛ ولذلك ذكّر الفعل "قال". ولم يقل " قالت"؛ لأن المذكر قبل المؤنث، والقليل أسبق من الكثير.[6]

---

[1]- انظر: المقتضب ج٢ ص ١٤٩ و ج٢ ص١٨٥ .

[2]- التبيان في إعراب القرآن ج١ ص٤٢٩ .

[3]- انظر: الكتاب ج٢ ص٣٥ .

[4]- انظر: المخصص ج١٦ ص٨١ .

[5]- انظر: المقتضب ج٣ ص ٣٤٩ .

[6]- انظر: " ليس في كلام العرب " ص ٢٣١ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

أمـــا يونس بن حبيب، فقد كان له أثر بيّن في النحو، حتى قيل فيه" له قياس فـــي النحو ومذاهب يتفرّد بها ".[1] ومن تعليلاته قوله في الآية الكريمة **[وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ]** *(يونس ١٠/٤٢)*

إن "مَـــن" وإن كان لفظها مفردا ، فقد حملت محملَ الجمع، وهذا حمل على المعنى، على إلحاق الواو والنون، إذ جيء بالفعل جمعا " يستمعون " .

ثـــم قـــال إن "مـــن" تأتي منردة، ومن ذلك قول العرب: "من كانت أمك" ؟! بإلحـــاق تاء التأنيث لما عنت مؤنثا.[2] أما باقي النحاة الذين روى عنهم سيبويه في كـــتابه كعيسى بن عمر، والأخفش الأكبر، وهارون ، فلم يذكر أحد من العلماء أنهم كانوا ينشطون للقياس أو أنهم كانوا أهل تعليل .

وعلـــى الـــرغم مـــن نفـــاذ بصيرة يونس في النحو والقياس ، إلا أنه ظلم قلـــيلا فـــلا تكـــاد شخصـــيته تـــأخذ " المكانة التي تستحقها في كتب معظم النحاة المتأخريـــن ".[3] نلاحـــظ مما تقدم أنّ نحاة البصرة تزعموا مدرسة خاصّة امتازت بأنها اتخذت من القياس والتعليل أصلا من أصول عملها اللغوي .[4]

---

[1]- الســـيرافي ، الحســـن بن عبد الله بن المرزبان ت ٣٦٨ هـــ ، أخبار النحويين البصريين ، تحقيق : طه الزيني ، ط١ سنة ١٩٥٥ . ص ٢٧

[2]- انظر: الكتاب ج٢ ص ٤٣٦ .

[3]- محمـــود حســـني محمود ، بحث " موقف من يونس بن حبيب " ، مجلة مجمع اللغة الأردني ، السنة الثالثة ، ١٩٨٠ م مطبعة شوقي معبدي ، عمان – الأردن . ص١٣٣

[4]- انظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي ، أعماله ومنهجه . ص٣٧ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

** الفصل الثاني **

السّياق والكشف عن المعنى

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

** المبحث الأول **

أثر السياق في الحمل على المعنى

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أثر السياق في الحمل على المعنى

السـياق (Context) : هـو مصـدر الفعل الثلاثي "ساق"، نحو قولهم : ساق الإبل وغيرها ، يسوقها سوقاً وسياقاً . واسم الفاعل منه سائق .

قـال تعـالى [**وجـاءت كلُّ نفسٍ معَها سائق وشهيد**] (ص ٢/٥٠) أي : يسوقها إلى محشرها [١].

ومـا سـميت السـوق بذلـك ، إلا لأن التجارة تجلب إليها وتساق المبيعات نحوها .

وسياق الكلام هو النص الذي تُحشَر فيه الألفاظ وتُساق إليه .

يتضـح ممـا سـبق أن سياق الكلام هو تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه، وهـو- فـي عـرف المفسـرين والفقهاء- الكلام الذي يسير على نَسق واحد ، أو ترتيـب متَشـابه أو انتظام متقارب. ولو أنك حدجتَه ببصرك لوجدته يخرج مخرجاً واحداً ، أو يقع على غرض واحد [٢].

إن للسـياق أثـراً بالغاً، وأهمية لا تخفى في تحديد المعنى وفهم الكلام، فإنّ الأصـل الاشـتقاقي وصـيغة الكلمـة التي صيغت بها، وإن اتحدا فربما لا يكفيان لـتحديد المعـنى تحديـداً دقـيقاً؛ لأن لكـل كلمة معانيَ محتشدة فيها ومختزنة في تضـاعيف حـروفها "ويتعيـن أحدهـا عند استعمال اللفظة في جملة معينة وسياق محدد" [٣].

---

[١]- لسان العرب . مادة "سوق " .

[٢]- انظـر : الحارثـي عبد الوهاب أبو صفية ، دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم ط١ سنة ١٩٨٩. عمان – الأردن ص ٨٦

[٣]- أبو سكين عبد الحميد محمد ، نظرات في دلالة الألفاظ. ط١٩٨٤ . مطبعة الأمانة . ص ٢٦

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إنّ تحديد معاني الألفاظ ، أيّا كانت هذه الألفاظ يتطلب منا مراعاة السياق، فما بالك إذا كانت هذه الألفاظ من القرآن ؟!

فلا بد من مراعاة سياق الآيات بوساطة إدراك العلاقة بين الكلمة وغيرها إذ لا يوجد هناك فصل بين المعاني في السياق ، ولا تكون منعزلة عن بعضها في الذهن، بل هي مترابطة كل الارتباط .

فكتاب الله الكريم آخذ بعضه برقاب بعض ، حتى إن الواحد منّا يظنه كلمة واحدة ؛ فيخلص من آية إلى آية ، ومن كلمة إلى كلمة بما يلائم ارتباطها وتماسكها في ضروب من المعنى المتكامل ، فكأنه أفرغ في قالب واحد [1].

تعدّ نظرية السياق واحدة من نظريات دراسة المعنى ، وإحدى الركائز الثلاث المتضافرة لتحديد المعنى ، وهي :- المادة الأصلية للكلمة ، والبناء الصرفي ، والسياق [2].

وقد ذهبوا إلى أنّ البحث في سياقات التلفظ يقع في مفترق الأبحاث الفلسفية واللسانية [3] .

والسياق مهم جداً في التفسير وتحديد المعنى للّفظة القرآنية ، فهو يعين الغرض منها ، ويُشعر بالدلالة. وبمعونته فسّر العلماء بعض الظواهر اللغوية وتأويل مجيئها على ذلك الوجه الذي وردت عليه ؛ لذلك لم ينظر المفسرون في الكلمة أو الآية على حدة وحدة مستقلة ، بل ربطوها في ما قبلها وفي ما بعدها مراعاة لسياق النص القرآني ؛ لأنه قد تتهيأ للكلمة الواحدة معانٍ كثيرة بحسب

---

[1]- انظر : عبد الغفار السيد أحمد. من علوم القرآن ، دلالات النص ط ١٩٧٧ . دار المعرفة الجامعية . ص ١١

[2]- انظر : نظرات في دلالة الألفاظ ص ١٨ .

[3] - انظر : ابن بوبكر شعبان ، الجنس في العربية ، ملاحظات دلالية حول ظاهرة التذكير والتأنيث. مجلة صناعة المعنى وتأويل النص . جامعة تونس . ص ٤٥

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اخـــتلاف المناســبات والبيئات، ولا تتعين تلك المعاني على وجهها الصحيح إلا بعد وضعها في سياقها واستعمالها في جملة من الكلام .

وســياق الآيات لا يقتصر على ما قد فات من الآيات ؛ وإنما هو ارتباط في ما بينها ومناسبة السابق واللاحق .

وقــد وجدنــا العلماء المتقدمين يعتمدون على السياق لنصرة ما اختاروه من آراء ، كأبــي عمــرو بن العلاء في قراءته للآية [**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ...**] *(سبأ ٣٤/١٠)* . وســأبين – إن شاء الله – أثر السياق في قراءته وقراءة غيره . وقــد تنبّه سيبويه للسياق فعقد له باباً دون أن يجهــر به قولاً ، وإنما تناوله بالإيماء والتأشــير من وراء جُنُر ، كقوله :" هذا باب ما يكون فيه المصدر حينا لسعة الكلام والاختصــار" [١]. وقــال : " ونلــك قولك : متى سير عليه ؟! فيقول : مَقْدَمَ الحاج وخفــوق الــنجم ... فإنما هو : زمن مقدم الحاج ، وحين خفوق النجم . ولكنه على سعة الكلام والاختصار " [٢] .

فســبب الحــذف في الكلام ؛ هو أن ثم في السؤال ما يدل عليه. وقد ارتسم المــبرد خطاه. قال : "... وأول ما يحتاج إليه القول أن يُنظمَ على نسق وأن يوضع على رسم المشاكلة " [٣]

وكــان ابــن جنــي علــى إدراك واضح بالسياق وأهميته في دراسة المعنى ونــبه إلــيه في غير موضع . قال : " وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها ، وذلك فــي ما حكاه صاحب الكتاب من قولهم : سير عليه ليل . وهم يريدون : ليل طويل وكــأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها . وذلك أنك تحس

---

[١]- الكتاب ج١ ص٢٨٢.

[٢]- المصدر السابق ، والصفحة ذاتها .

[٣]- المبرد . الكامل في اللغة والأدب مكتبة المعارف ، بيروت – لبنان . ج١ ص ٣٣٥

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فـــي كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل أو نحو ذلك ، وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته " [1].

وقـــد أولى اللغويون المتقدمون السياق اهتماما كبيرا ، لا سيما في معجماتهم التـــي صنفوها على هذا الأساس . فلم يكن معجم تهذيب اللغة أو الصحاح أو لسان العـــرب أو القـــاموس المحيط ليكون بهذا الحجم لولا أنهم تقصَّوُا الألفاظ ، وطرقوا سياقاتها حتى وقفوا على كل معنى ودرسوا الكلمات في ظلال السياق .[2]

وكـــان الإمـــام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـــ) كلفا بهذا العلم في تفسيره حتى قال فيه : " أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط ". [3]

قـــال ابن العربي (ت ٥٤٣ هـــ):" ارتباط آي القرآن بعضها ببعض – حتى تكـــون كالكلمـــة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني – علم عظيم " [4]. وقد أوما بعـــض الـــنحاة إلـــى الســـياق دون التصريح بذلك ، كقول العكبري في قوله تعالى **[أَوَلَـــمْ نُمَكِّـــنْ لَهُـــمْ حَرَمًا آمِنًا ...]** *(القصص ٢٨/٥٧)*.عداه بنفسه ؛ لأن معنى نمكـــن: نجعل، وقد صرح به في قوله تعالى **[أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا...]** *(العنكبوت ٢٩/٦٧)* فقوله :" صرّح" هو التفسير بالاعتماد على سياق القرآن .[5]

نلاحـــظ مـــن كلام العكبري أنه يتخذ من القرآن نصا واحدا متكاملا ، فهناك عـــدة ســـياقات فـــي القـــرآن الكريم ، كسياق الآية، وسياق الآيات، وسياق النص وســـياق الســـورة – مـــن جهـــة الأغراض والمقاصد ، ومن جهة النظم المعجز – والسياق القرآني، وهو تفسير الآية بالآية .

---

[1]- الخصائص ج٢ ص٣٧١.

[2]- انظـــر : حـــيدر فـــريد عوض. علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية ط٢ سنة ١٩٩٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة – مصر . ص ١٥٨

[3]- الســـيوطي . الإتقـــان فـــي علوم القرآن. تحقيق : عصام فارس الخرستاني . ط١ سنة ١٩٩٨ . دار الجيل – بيروت . ج٢ ص٣٠٠

[4]- المصدر السابق ، والصفحة ذاتها .

[5]- التبيان في إعراب القرآن ج٢ ص٢٤٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وما من شك في أن فصل السياق الخاص عن باقي السياقات " من شأنه أن يؤدي إلى الميل عن سنن الصواب في التفسير " .[1]

وكان أبو حيان الأندلسي ممن يترافع إلى سياق الآيات . قال :" والذي يدل عليه السياق أن الأجور ما يترتب على الطاعة والمعصية ".[2]

وفي موضع آخر قال :" وهو بعيد من سياق الآية .." [3]

ولم يكن الزركشي أقل منهم إجلالا للسياق . قال :" وسياق القرآن يدل على إرادة الأزواج ، وفيهن نزلت " .[4] ولست أعلم أحدا من المتقدمين أو المتأخرين أنكر على غيره استعماله السياق في الكشف عن المعنى ، وما كان لينكره أحد وقد رأينا أساطين اللغة والنحو على بابه يتدافعون .

يمكن تقسيم السياق إلى أربعة سياقات: السياق اللغوي ، والسياق العاطفي وسياق الموقف ، والسياق الثقافي .

ولا ننكر أن علماء علم اللغة الحديث الغربيين هم الذين طوّروا نظرية السياق ، وفتّحوا لها أبوابا مؤصدة ، ففرعوها ، وبسطوا القول فيها ، وحامل لواء هؤلاء هو فيرث ، مؤسس المدرسة الإنجليزية في علم اللغة الحديث .[5]

وما يعنينا من تلك السياقات الأربعة ، هما سياق اللغة ، وسياق الموقف في تحديد تأثير السياق على علة الحمل على المعنى .

فالسياق الثقافي والسياق العاطفي لا يمسان الحمل على المعنى ، فالأول يختص بالكشف عن المعنى الاجتماعي ، وهذا أمر منوط بحضارة معينة ، أو

---

[1]- دلالة السياق ، منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم . ص ٨٨ .

[2]- البحر المحيط ج٣ ص١٣٩ .

[3]- المرجع السابق ج٤ ص٢٢٦ .

[4]- البرهان في علوم القرآن ج٢ ص١٩٧ .

[5]- انظر : علم الدلالة ، دراسة نظرية وتطبيقية ص ١٥٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مجـــتمع معين . والثاني يختص بالمعنى الوجداني ، أو بانفعال المتكلم ، ولا ينسحب هـــذان الســـياقان على الآيات المحمولة على المعنى ، ولكنهما غاية في الأهمية ، إذ إن الملابســـات المحـــيطة بـــنزول الآيـــات الكـــريمة تمثل جانبا مهما من الجوانب المســـاعدة علـــى فهـــم المـــراد ، ذلك الجانب هو سياق الحال ، أو الموقف الثقافي والاجتماعـــي ، وهذا ما تعتد به نظرية السياق الحديثة أيما اعتداد . فهذان الموقفان يبرزان الحمل على المعنى بشكل غير مباشر .

أمـــا ذانـــك الســـياقان، سياق اللغة وسياق الموقف، فالأول يبحث في البيئة اللغويـــة التي تحيط بكلمة أو عبارة أو جملة ، ويستحضر النص القرآني جميعه عند تفسير بعضه ؛ لأن القرآن يفسر بالقرآن ، وهذا أصح طرق التفسير. فإن ما أجمل فـــي مكـــان فإنـــه يفســـر فـــي موضع آخر ؟! وما اختصر في آية فإنه بسط في أخرى.[1]

أمـــا سياق الموقف فإنه يوضح معنى اللفظ ، أو أنه يسد في الدلالة مسد كلام محـــذوف ، وهـــذا المحذوف يكون قد أشير إليه قبلا في سياق الكلام ، أو قد ذكر كلام يضاهئه في المعنى ، كما أشرت إلى ذلك آنفا في كلام سيبويه وابن جني .

وســـياق الحـــال يدل دلالة اللفظ المذكور ، وإن لم يذكر هذا اللفظ في الكلام وهـــذا كثـــير في كلام الناس ، حيث إنهم يستغنون عن ذكر ألفاظ كثيرة في كلامهم اعتمادا على سياق الحال في أن يدل دلالتها .

لكـــي نفهـــم نظـــرية السياق حق الفهم لا بد من الاعتماد على ثلاثة أركان أهمهـــا المقام . مع ملاحظة ما يتصل بهذا المقام من عناصر أو ظروف وملابسات وقـــت الكـــلام الفعلـــي. وينعكس اهتمام المفسرين في سياق الحال من اهتمامهم في أســـباب الـــنزول ، أو مكـــان النزول ، وتضم الأحداث والوقائع والملابسات لنزول

---

[1]- انظـــر : ابـــن تيمية ت ٧٢١ هـــ مقدمة في أصول التفسير تحقيق : محمود محمد محمود نصار ط ١٩٨٨ . دار الجيل للطباعة – مصر . ص ٩٣

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الـــنص القرآني . وهذه الأحداث لها أهمية في فهم معاني الآيات وما تشير إليه من دلالات .[1]

فالمقـــام والمقـــال أساســـان متميزان من أسس تحليل المعنى ، ويدخلان في تحديـــد المعـــنى الدلالـــي .[2] " وكلما كان وصف المقام أكثر تفصيلا كان المعنى الدلالـــي الـــذي نـــريد بلوغـــه أكثر وضوحا في النهاية حين تصبح كل عبارة من عـــبارات الـــنص واضحة بما يجليها من القرائن الحالية التاريخية والقرائن المقالية التي في وصف المقام " [3]

ولـــو أننا حاولنا فهم المقال منفصلا عن المقام لجاء فهمنا إياه قاصرا مبتورا أو خاطـــئا . ولذلـــك قال القدماء " لكل مقام مقال " ، فمقامات الكلام متفاوتة ، وإن لكـــل كلمـــة مـــع صاحبتها مقاما. فالسياق الذي يقع فيه ترهيب غير الذي يقع فيه ترغيب ، ففي الأول مقتضى غير مقتضى الآخر .[4]

فالمعـــنى الوظيفـــي متعدد بالنسبة للمبنى الواحد ، ثم إن ما يتسم به المعنى الوظيفـــي للمبـــنى الواحد من التعدد والاحتمال يجعل الناظر في النص يسعى دائما وراء القرائـــن اللفظـــية والمعـــنوية والحالية .[5] فسياسة القرينة في العربية شريعة مـــن شـــرائع الألفاظ [6] ، فلفظ الهدى – مثلا –له سبعة عشر معنى ، منها: الثبات والديـــن ، والدعـــاء ، وغيرها . ومن هذه الألفاظ ، الصلاة ، والرحمة ، وكلها مما يتبســـط فـــي اســـتعماله بوجوه من القرائن ، وهذه القرائن تعين على تحديد معنى

---

[1]- انظر : علم الدلالة ، دراسة نظرية وتطبيقية ص ١٦٩ .

[2]- انظـــر : حسّـــان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها ط١٩٩٤ دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب . ص ٣٤٥

[3]- المرجع السابق ص ٣٤٦ .

[4]- الســـكاكي ، أبـــو يعقـــوب يوســـف بـــن أبي بكر ت ٦٢٦ هـــ ، مفتاح العلوم ضبط وشرح : نعيم زرزور ط١ سنة ١٩٨٣ . دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان . ص ١٦٨

[5]- انظر : اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٨٠ .

[6]- انظر : الرافعي ،إعجاز القرآن ص٧٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الكلمـــة فـــي المعجـــم ، فهو متعدد ومحتمل ، ولكن معنى اللفظ في السياق واحد لا يتعدد ، ثم إن ارتباط كل سياق بمقام معين يحدد في ضوء القرائن الحالية .[1]

وفكـــرة المقـــام هـــذه هي المركز أو المحور الرئيس الذي يدور حوله علم الدلالـــة الوصفية في الوقت الحاضر [2] ، فليست المعجمات منتهى أرب الباحث في بحـــثه عن المعنى . صحيح أنها تمده بالمعنى المعجمي أو الدلالة المعجمية ، ولكن ذلـــك ليس كل شيء ، فلا بد من البحث عن عناصر لغوية أخرى ذات أثر واضح فـــي تعيين المعنى ، كالظروف والملابسات التي تكتنف الألفاظ ، أو صلة المواقف الاجتماعـــية بهـــا، والعصـــور المتتابعة والبيئات المتعددة وهذا ما سماه البلاغيون المقـــام . ألا ترى أنّ المقام هو الذي يحدد تلك الكلمة ويستدعي الأخرى وينبذ تلك؟ فلكل كلمة مع صاحبتها مقام .[3]

نلاحـــظ مـــن كـــل مـــا ســـبق أن للمعنى حصيلة معنيين ، المعنى المقامي والمعـــنى المقالي ، ولا يهمنا هنا إلا المعنى المقامي ، وإذا كان المعنى المقامي هو جمـــيع ملابسات الكلام فإنه يفصح عنها سياق الحال أو جوّ السياق ، وهو مجموع الظـــروف التي تحيط بالكلام ، أي أن تحديد المعنى المقصود لا يتم إلا بمعرفة هذه الظـــروف ،[4] ويشـــمل عناصـــر كثيرة تتصل بالمتكلم والمخاطب وظروف إنشاء الخطـــاب ، كـــل هـــذا يعيننا على تتبع وجوه التناسب بين أجزاء الآيات ، ثم على الوقوف على وجه التناسب بين أجزائها وما يرمز إليه هذا التناسب .[5]

---

[1]- انظر : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٣١٦ .

[2]- انظر : نظرات في دلالة الألفاظ ص ١٤ .

[3]- المرجع السابق ، والصفحة ذاتها .

[4]- انظـــر : الراجحـــي عـــبده ، فقه اللغة في الكتب العربية ط ١٩٨٨ دار المعرفة الجامعية – مصر . ص ١٦٧

[5]- انظر : دلالة السياق ، منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم ، ص ١٢٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يعـد السـياق القرآنـي أفضل جانب تطبيقي يبيّن ظلال الفروق الدقيقة بين المفـردات [1] ، وسـأبين – إن شـاء الله – مـا للسياق من أثر في إظهار المعنى فالسـياق – مثلا – يحدد العلة من مجيء الجمع بلفظ المفرد أو العكس ، وليس من المـنطق السّـويّ في شيء أن أدرس الحمل على المعنى في القرآن دراسة وصفية محضـة ؛ لأن المـنهج الوصـفي فـي إيضـاح الوضع المعنوي للتركيب اللغوي والكشـف عن المعنى لا ينقع غلة وحده ، فليس من بد من تعزيز ذلك المنهج بمنهج تحليلـي يبيـن ويكشـف عن الحمل على المعنى ، ويظهر لطافته وما فيه من فن وجمال ينطوي عليه السياق اللغوي .[2]

وخلاصـة القول في السياق : إن له تأثـيرا في الحمل على المعنى وتحديد معـنى الكلمـة ، ويكشـف عـن تلون الدلالات وتعدد الاستعمالات اللفظية ، وهو ملهمها فجورها وتقواها .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

---

[1]- انظـر : ياسـوف أحمد ، من جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير " رسالة ماجستير " إشراف : نور الدين عتر ط1 سنة ١٩٩٤ . دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع . ص ٦٣

[2]- انظـر : جطـل مصـطفى ، جانسـيز علـي ، بحث " السياق اللغوي وأثره في الدلالة على معنى الطلـب وأدواتـه " مجلـة بحـوث جامعـة حلب ، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية العدد ٣١ سنة ١٩٩٦ . ص ٢٣ .

- أثر السياق في الحمل على المعنى -

إنّ أشـكال الحمل على المعنى، أو كما سمّاها بعضهم " الفصائل النحوية" [1] تخضـع لتأثـير السياق ، فليس مجيء اللفظ المفرد دالاً على معنى الجمع من باب العبـث ، أو التصـرف باللغـة فحسـب ، إنّما الغاية من ذلك خدمة الفكرة وإثراء المعنى وإحرازه .

والسـياق مـتى أعطـى المعـنى المراد استغنى عمّا سواه ؛ لأنّ ذكره من الفضول أو الحشو الذي يتنزّه عن الكلام البليغ فضلاً عن البيان المعجز .

أبـدأ بمناقشة الفصيلة الأولى من فصائل الحمل على المعنى وهي ((تذكير المؤنـث))، وهـو باب واسع جداً ؛ لأنه ردّ فرع إلى أصل [2]. والمذكر والمؤنث مـن الظواهـر اللغوية التاريخية التي عُني بها النحاة واللغويون عناية كبيرة ، حتى أربـت مصـنفات المتقدميـن ومؤلفاتهم على العشرات من الكتب في مادة " المذكر والمؤنـث" فظفـرت العربـية بمـادة علمية مفيدة حين شارك النحويون أصحابهم اللغوييـن فـي ضـبط هذه المسألة ، وربما بذلوا قصارى جهودهم ليقفوا على هذه الظاهـرة وقفة المدرك ؛ لأن القرآن الكريم قد حفّل بها وزخر حتى فاض واستبحر فـراح النحاة يفيدون ممّا وقع من هذه النصوص في القرآن الكريم حتى قنّنوا عليها قواعدهـم فقـالوا : إنّ علامـة التأنيث ليست ذات أصالة في التأنيث وليست شيئاً لازمـاً ؛ لأنهـا غير مختصة بالمؤنث . ألا ترى أن كثيراً من الأفعال المسندة إلى فـاعل مؤنـث لا تجد فيها علامة دالة على تأنيثها، بل جاءت بالتذكير في كثير من آي الذكر الحكيم [3] ؟

---

[1]- انظر : الراجحي عبده ، فقه اللغة في الكتب العربية ص١٥٥.

[2]- انظر : الخصائص جـ٢ ص ٤١٥ .

[3]- انظر : ابن يعيش . أبو البقاء يعيش بن علي ت٦٤٣هـ ، شرح المفصل. تقديم: إميل يعقوب ط١ سنة ٢٠٠١ .دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان . جـ٣ ص٣٥٨

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومـــن هـــذا القبيل قوله تعالى [وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ] (الأعراف ٧/٥٦) .

ربمـــا ســـأل سائل عن علة تذكير كلمة " قريب " . وقد وقعت خبراً لمؤنث " رحمة " !

ذهـــب أكـــثر المفسّـــرين واللغويين إلى أنّ الرحمة هنا محمولة على معنى " المطـــر " [١]. والباحث يستحسن استبدال كلمة " الغيث" بالمطر؛ لاختلاف دلالتيهما فلم يرد ذكر المطر إلا في سياق العذاب والانتقام، وليس هذا مقام العذاب.

وحَمـــلُ الرحمة على معنى الغيث أو "المطر" – كما قالوا – وجه حسن؛ لأنّ الســـياق يعضـــد ما ذهبوا إليه ويخدم تفسيرهم فإن الله – تعالى جدّه – يتحدث عن إرســـال الرياح متفرقة قدّام الغيث [٢]، ويتحدث عن السحاب الثقال وعن الماء . كلّ ذلـــك يشـــير بوضـــوح إلى الغيث. قال تعالى [وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَـــدَيْ رَحْمَـــتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ] (الأعراف ٧/٥٧)

وذهـــب بعضهم إلى أنّ الرحمة بمعنى "الرُّحْم" أو العفو والغفران، وهم بذلك يلتمســـون وجهـــاً مســـوّغاً لتذكير الخبر، بجعلهم ما أخبر عنه مذكراً في المعنى[٣] وهـــذا الذي أراده الجوهري، فقد ذهب إلى أنّ المراد بالرحمة هو الإحسان [٤]. وما يظهر شقاق القوم في هذه اللفظة أنّ الفيروزآبادي أحصى لها تسعة عشر معنى[٥].

١- انظر : الأخفش الأوسط ، معاني القرآن جـــ٢ ص ٣٠٠ وتفسير الطبري جـــ١٢ ص ٤٨٩. والخصائص جـــ٢ ص ٤١٢ والتبيان في إعراب القرآن جـــ١ ص ٤٤٥ وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني جـــ٨ ص ١٤٣ .

٢- انظر : تفسير الجلالين . الآية .

٣- انظر : النحاس ، إعراب القرآن جـــ٢ ص ١٣١ .

٤- الصحاح . مادة " رحم " .

٥- انظر : بصائر ذوي التمييز جـــ٣ ص ٥٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقــد قال أبو عبيدة إنّ تذكير " قريب " على المكان أي : " مكاناً قريباً " [1] وخطّــاه الأخفــش الصغير ، علي بن سليمان (ت٣١٥ هــ) في ذلك ؛ لأنه لو كان الأمــر على ما قال لكان " قريب " منصوباً في الآية لا مرفوعاً ، ويرى الباحث أنّ الأخفــش مصــيب في تخطئته لأبي عبيدة ؛ لأنّ العرب تقول:"هو قريباً منك" [2]. فالنصــب هنا على الظرفية المكانية ، وخبر المبتدأ "هو" محذوف تقديره " موجود " متعلق بشبه الجملة .

ويــرى السيوطيّ أنّ تذكير كلمة " قريب"؛ لإضافتها إلى اسم الجلالة "الله" [3] فاكتســب المضاف "رحمة " صفة التذكير من المضاف إليه " الله ". واستشهد النحاة علــى صحة ما قالوه من اكتساب المضاف من المضاف إليه صفته بمثلهم المصنوع " قُطعَــت بعضُ أصابعه ". فإنْ تعجبْ فعجب استشهادهم بمثلهم هذا ، فلا حاجة إلى أنْ يلتمســوا الحجة الداحضة من أقوالهم أو أشعارهم إنْ كان القرآن قد جاء بالدليل فلــو أنهــم استدلوا على ما يريدون إثباته بأمثلة من القرآن نفسه لكانوا أسدّ توجيهاً وأصوب تعليلاً. قال تعالى [**وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ**] *(ق ٥٠/٢١)*.

ولــيس ما ذهبوا إليه مما تسكن إليه النفس ، فليس المضاف في الآية مكتسباً التأنيث ، ولكن ذلك هو مراعاة الفاعل في المعنى [4] .

ولسْــتُ أعلــم لم ذهبوا هذا المذهب وهم الذين قالوا : إنّ " فعيلاً " من أبنية الصــفات لا تلحقــه الأداة ، سواء أكان بمعنى فاعل أم مفعول ؟ فالمؤنث والمذكر فــي زنــة " فعــيل " يستويان. قال سيبويه : ((وأمّا " فعيل " إذا كان في معنى " مفعول " فهو في المؤنث والمذكر سواء " [5] .

---

[1]- انظر : تفسير القرطبي جـ٧ ص ٢٢٠ .

[2]- انظر : الكتاب جـ١ ص ٤٧٧ .

[3]- انظر : السيوطي ، الفرائد الجديدة تحقيق : عبد الكريم المدرس ط١٩٧٧. وزارة الأوقاف ، التراث الإسلامي – العراق جـ٢ ص ٥٨٢. وانظر : تفسير الجلالين . الآية .

[4]- انظر : السامرائي إبراهيم ، النحو العربي نقد وبناء ص ١٦٢ .

[5]- الكتاب جـ٤ ص ١١٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

" وقريب " في الآية بمعنى فاعل ، كما أنّه لو قال آتٍ [1] .

ومـــن الآيـــات التي روعي فيها المضاف إليه في المعنى قوله تعالى [**وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا**] *(آل عمران ٣/١٠٣)* .

شـفا الشـــيء : حرفه ، ولكنه لم يقل : " فأنقذكم منه " بالتذكير ، وإنما جاء بالتأنيث "مـــنها" ؛ لأنّ المقصود في الخبر النار ، أي فأنقذكم منها بالنبيّ صلى الله علـيه وسـلم [2] . ومـــن الآيات التي أخبر فيها عن المؤنث بصيغة " فعيل " قوله تعـــالى [**اللَّـهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ**] *(الشورى ٤٢/١٧)* .

فقـد حُملـت الساعة في الآية الكريمة على معنى البعث ؛ ولذلك جاز تذكير خـبر " لعلّ " قريب " [3]. ويرى الباحث أنّ الأفضل حمل الساعة على " المصير " مـراعاة للنص القرآني، فقد ورد في سياق الآيات قوله تعالى [**... اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**] *(الشورى ٤٢/١٥)* .

ومـــنَ الآيـــات التي ذكر فيها المؤنث قوله تعالى [**فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَـالَ هَـذَا رَبِّـي هَـذَا أَكْـبَرُ فَلَمَّـا أَفَلَـتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**] *(الأنعام ٦/٧٨)* .

كـان الأصـلُ فـي الآية أنْ يقال: هذه ربّي؛ لأنّ الشمس مؤنثة، وإنْ كان تأنيـثها غير حقيقي، ولكنّه عُدل عن اسم الإشارة المؤنث إلى اسم الإشارة المذكر؛ لأنّ المعـنى :هـذا الطـالع ربي ، وجيء باسم الإشارة مذكراً لا مؤنثاً ضرباً من الائـتلاف فـي الـنظم ، فلم تراع المطابقة . فلو نظرنا في الآيتين السابقتين للآية

---

[1]- انظـر : شـرح الأشـموني ، علي بن محمد بن عيسى . ت٩٠٠ هـ تقريباً ، على ألفية ابن مالك. تحقـيق : عـبد الحميد السيد محمد عبد الحميد ط١٩٩٣. المكتبة الأزهرية للتراث – مصر . جـ٤ ص ١٨١

[2]- انظر : الزجاج ، معاني القرآن وإعرابه جـ١ ص ٤٥١ .

[3]- انظر : الكشاف جـ٤ ص ٢٢١. .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المذكـورة لوجدنـا أن السـياق جـاء بذكـر اسم الإشارة "هذا " مرتين ، تارة مع الكوكـب وأخـرى مـع القمر ، فالمشار إليهما مذكران فتمت المطابقة . قال تعالى **[فَلَمَّـا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّـا رَأَى الْقَمَـرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ]** *(الأنعام ٦/٧٦-٧٧)*.

وربّمـا تكون علّة تذكير اسم الإشارة على التأويل ، فالآية من باب قولهم : " قبضـت ألفـاً تامّـة " مع أنّ الألف مذكر. بدليل قوله تعالى **[... يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَـةِ آلافٍ مِـنَ الْمَلائِكَـةِ مُسَوِّمِينَ]** *(آل عمران ٣/١٢٥)* فتأنيث الألف في قولهم : " قبضْتُ ألفاً تامّة " على تأويل المعدود " الدراهم " [1] .

وكذلك الأمر مع اسم الإشارة " هذا " في الآية ، وإنْ كان للشمس . لكن من حيث إنه مدلول هذا اللفظ (الله). والله أعلم .

ومـن الآيـات التي ورد فيها تذكير المؤنث قوله عزّ شأنه **[سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ]** *(الحاقة ٦٩/٧)* .

نـرى في الآية أنّ صفة النخل – وهو اسم جنس جمعيّ – أنّثت حَملاً على المعنى، وتذكر حَملاً على اللفظ .

---

[1]- انظـر : الحريـري ، القاسـم بـن علي بن محمد ت ٥١٦ هـ درّة الغوّاص. تحقيق : عبد الحفيظ فرغلـي علـي القرنـي ط١ سـنة ١٩٩٦ دار الجيل ، بيروت – لبنان . مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة – مصر . ص ١٦٧

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وعلــة التذكير أنّ النخل اسم جنس، وليس بين النخل الذي هو جمع ومفرده " نخلــة " إلا التاء (أو كقول بعضهم الهاء في حال السّكت عليها)؛ فلذلك هو جارٍ على سنة الواحد ، وإنْ عنيت به جمع الشيء ، ويستوي فيه التذكير والتأنيث [1].

ويــرى الباحث أنّ اللغتين متساويتان ، فلا مفاضلة بين اللغات في القرآن ولا راجــح ولا مــرجوح ؛ حيــث إنّ كلّ لفظة وقعت في السياق المناسب الذي يتجاذبها دون غيرها من الألفاظ ، ويرى أيضاً أنّ هذا التنويع في استعمال القرآن الألفــاظ يعود إلى اختلاف لسان العرب وتنوّع استعمالاتهم للفظ ، فأهل الحجاز– مــثلاً – يؤنــثون النخل فيقولون: هي النخل. وأهلُ نجْد وتميم يذكرون ويؤنثون ، فــيقولون: نخل كريم وكريمة ، فجاء القرآنُ جامعاً للغات العرب ولهجاتهم ، فإنما بلسانهم نزل.

وفي آية أخرى جاءت صفة النخل مذكراً . قال تعالى [**تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَــازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ**] *(القمر ٥٤/٢٠)* . وما من شك في أن الفاصلة روعيت في الأيتيــن ، ولكــنْ ليس على حساب المعنى ، وإنما وضعت كل صفة في موضعها ففــي الآيــة الأولــى قال: خاوية، وهي صفة تلائم سياق الآيات، فالعرب توظف التأنيث في مقام الكثرة، قال سيبويه:" واعلم أنّ المذكر أخفّ عليهم من المؤنث" [2] ولهــذا اســتعملت الكثرة مع المؤنث ؛ لأنه أثقل عليهم . والنخل في آية " الحاقة " أكــثر مــنه في آية " القمر" . قال تعالى [**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَــخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا....**] *(الحاقة ٦٩/٦-٧)* . وفي سياق التذكير قال [**إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ**] *(القمر ٥٤/١٩)* .

---

[1]- انظر : المقتضب جــ٣ ص ٣٤٦ وانظر : المخصص جــ١٧ ص ٧٨ وانظر : البيان في غريب إعراب القرآن جــ٢ ص٤٠٥.

[2]- الكتاب جــ١ ص ٤٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ففـي سـورة " الحاقـة " زاد في وصف الريح فقال (عاتية)، وهذه الزيادة توحـي بشدة التدمير والاقتلاع [1]. ثمّ ورد في سياق سورة "الحاقة" زيادة في وقت التدمـير والتعذيـب وهـو ثمانية أيام، وذلك يقتضي تدميراً أكثر وأبلغ [2]، فالنخل الخاويـة تشـمل الـنخل المنقعر ، أي المنقلع [3] وزيادة ؛ ولذلك جاء التأنيث وفيه زيـادة في المعنى عن التذكير ، فجاءت كلّ لفظة في مكانها المناسب . فسبحانه ما أجلّ كلامَهُ ! .

وفـي موضع آخر من التنزيل العزيز حملت لفظة النخل على المعنى . قال تعـالى [**وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ**] *(ق٥٠/١٠)*. ومعنى باسقات: طوال [4] فحملهـا علـى التأنيث مراعاةً للسياق ؛ لأنّ الآيات تتحدث عمّا أعدّه الله لعباده في الأرض من الطيبات والرزق . [**رِزْقًا لِلْعِبَادِ...**] *(ق ٥٠/١١)*. فالمقامُ مقام بَسْطٍ وتعدادٍ وتفضل ؛ [**... فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ**] *(ق ٥٠/٩)* لإقامة الحجة علـى العـباد . وقـد بيّنتُ سابقاً أنّ تأنيث النخل يوحي بالكثرة ؛ لذلك فإنّ التأنيث يناسـب السياق والمقام . وسبب آخر في حمل " النخل " هنا على معنى الجمع ، هو أنّ السـياق فيه عطف . وعطفُ جمع المؤنث (**بَاسِقَاتٍ**) على جمع المؤنث (**جَنَّاتٍ**) أولـى من عطف " باسق" – في حالة حمل " النخل " على اللفظ – على " جنّات " ، وهذا نوع من التشاكل الموسيقي .

وبـناءً علـى مـا سلف ، من تذكير النخل وتأنيثه وإفراده وجمعه نستطيع القـول : رأيْـت خمساً من النخل ، وخمسةً من النخل ، شأنه في هذا شأن المعدود الـذي يدلّ على المذكر وعلى المؤنث ، حيث يصحُ – سعةً – في اسم العدد مراعاة هذا أو ذاك .

---

[1]. انظر : السامرائي فاضل صالح ، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ص ٩٤.

[2]. المرجع السابق ، الصفحة ذاتها .

[3]. انظـر : الـيزيدي ، عـبد الرحمن عبد الله بن يحيى بن المبارك ت٢٣٧ هـ غريب القرآن وتفسيره. تحقيق : محمد سليم الحاج ط١ سنة ١٩٨٥ عالم الكتب . ص ٣٥٩

[4]. القاموس المحيط . مادّة " بسق ".

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وممـــا ذُكّـــر فيه الفعل معَ أنّ فاعله مؤنث، قوله تعالى [لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ...] *(الأحزاب ٣٣/٥٢)*

فقـــد ذكر الفعل " يحل " مع أنّ الفاعل مؤنث حقيقي وليس مجازيا ، فلم يقل " تحـــلّ " – وهـــو الأصل – لأنّ النساء بمعنى " جمع النساء " ولفظ " جمع " مذكر فتمـــت المطابقـــة على المعنى. وقد يكون سبب ذلك أنّ لفظ " النساء " هو بذاته يدلّ علـــى التأنيـــث حتى لو لم يسند إليه فعل يقوم دليلاً على تأنيثه ، فترك الفعل لذلك على أصله وهو التذكير [١] .

وأحَـــبُّ الوجـــوه إلـــى الباحث أنّ سبب التذكير يعود إلى الفاعل المفهوم من المعـــنى ، وهـــو المصـــدر " تبديل "، فالذي لا يحلُّ للنبيّ صلى الله عليه وسلم هو استبدال زوجات أخر بأزواجه التّسع ، وهذا يفهم من سياق الآية [... وَلاَ أَنْ تَـــبَدَّلَ بِهِـــنَّ ...] *(الأحزاب ٣٣/٥٢)* ، فما حرم على النبي صلى الله عليه وسلم هو أن يـــتّخذ من نسائه بدلاً . ألا ترى أنّ تحريم التبديل بهن بمعنى تحريم النساء عليه من بعدهـــن ؟! فلمـــا اســـتوى معنى المصدر " تبديل " مع اسم الجمع " النساء " جاز التذكير على تأويل المصدر.

ومـــن الآيـــات التـــي ذُكّر فيها المؤنث قوله تعالى [وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ] *(البقرة ٢/١٣٥)*

ذكـــر ابـــن الشجري (ت ٥٤٢هـــ) أنّ كلمة " حنيفاً " أعربت في الآية حالاً مـــن " إبراهيم " عليه السلام [٢] ، ولكنّه رأى أنْ تُعرب حالاً من المضاف " ملة " . والباحـــث يذهـــب مذهبه ؛ لأنّ الحال من المضاف إليه " ضعيف في القياس ، قليل فـــي الاستعمال" [٣]. ألا ترى أنك لا تستطيع أن تقول جاءني ابن أختي مسرعةً ؟!.

١- انظر : حجة القراءات ص ٥٧٩ .

٢- انظر : ابن الشجري ، هبة الله بن علي، الأمالي الشجرية دائرة المعارف العثمانية . ج١ ص ١٨

٣- التبيان في إعراب القرآن جـــ ١ ص ١٠٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وتقديـــر الآيـــة هو : [**بلْ نتّبع ملة إبراهيم حنيفا**] [1] ، ولكنّنا لو جعلنا الحال من المضـــاف لبقيـــت عقبة كؤود تعترضنا ، وهي مجيء الحال مذكراً مع أن صاحب الحال جاء مؤنثاً " ملة " .

ولحـــلّ هذا الإشكال لا بدّ من حمل لفظة " ملّة " على المعنى . قالوا إنّ الملة هي الدين عينه [2] ، فكأنّه قيل : بلْ نتبع دين إبراهيم حنيفاً .

والســـياق يعضُـــدُ ما ذهب إليه هؤلاء القوم . قال تعالى [**... دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**] *(الأنعام ٦/١٦١)* .

فملّـــة – في الآية – جاءَت بدلاً من " ديناً " ، هذا يعني أنَّ اللفظين في معنى واحد . أو على أقل تقدير هما متقاربان . والله أعلم .

ومـــن بديـــــع قوله تعالى في تـــذكـــير المؤنث [**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ...**] *(الكهف ١٨/٥٩)* .

مـــعَ أن كلمـــة " القرى " مؤنثة ، إلاّ أنه لم يقل " أهلكناها " وهذا حقّ الكلام ولكـــنّه – تعـــالى جدّه – أراد أهل القرى أو أصحابها [3] وهم الأقوام الذين يسكنون فـــي القـــرى ، كقـــوم عادٍ وثمود ولوط وغيرها من الأقوام التي دمّرت عبرة لمن بعدهم.

وهـــذه الآيـــة مـــن قبيل قوله [**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ...**] *(يوسف ١٢/٨٢)* . فلم يُـــراع لفظ القرى في الآية ، وإنما حُملت على معنى الأقوام . وهذا كقولنا : جاءت تميم، وإنْ كان القادمون بني تميم ، فبقيت التاء علامة على حذف شيء في الكلام.

١- انظر : الكتاب جـــ١ ص ٣١٤ .

٢- البحر المحـــيط جـــ١ ص ٥٧٧ وانظر : البغدادي ، عبد القادر عمر ت ١٠٩٣ هـــ خزانة الأدب ولـــبّ لـــباب لســـان العـــرب ، تحقيق : عبد السلام هارون ط١٩٦٨ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة – مصر . جـــ٣ ص ١٦٥

٣- انظر : الكشاف جـــ٢ ص ٦٨٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والسـياق يكشـف لـنا عن ترك المطابقة بوساطة قرينة المطابقة ، وتحديداً بوسـاطة النوع الذي هو قرينة لفظية ؛ إذ إنّ واو الجمع في الفعل " ظلموا " تندرج تحت قرينة العدد ، وهي بدورها دلت على المؤنث " القرى " [1] .

ومـن بلـيغ ما جاء في تذكير المؤنث قوله تعالى [إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ] (*الشعراء ٢٦/٤*).

قـد يسـأل أحدنـا عـن صحّة مجيء الخبر عن الأعناق جمع مذكر سالماً (خاضعين)، وهذا الجمعُ لا يُخبرُ به إلاّ عن العقلاء ، فهل الأعناق تعقل ؟! .

ذهـب الأخفـش الأوسط إلى أنّ المراد بالأعناق هو الجماعات [2]. وذهب بعضـهم إلـى أنّ الكلمة – هنا – بمعنى الرجال الكبراء أو الطوائف [3] ، كما يقال في وصف أشراف القوم : هم الرؤوس والنواصي والصدور [4] .

ويـرى الكسائي أنّ سبب التذكير هو أنّ بعض المؤنث يُذكر إذا أُضيف إلى مذكـر [5] ؛ فـلأنّ كلمـة " أعـناق " أضـيفت إلى ضمير جمع (هم) فقد روعي المضـاف إليه في المعنى ، فاكتسب لفظُ الأعناق من إضافته للمذكر العاقل "الناس" وصـفهُ فأخبر عنه إخباره [6] . فالخضوع لهم لا لأعناقهم فحسب ، وإنما أقحم لفظ الأعـناق " لبـيان موضـع الخضوع " [7] ، أي أنّ " الأعناق " محمولة على معنى أصـحابها . كقوله تعالى [فَكُّ رَقَبَةٍ] (*البلد ٩٠/١٣*) والمراد بالرقبة هنا صاحبها

---

[1]- انظر : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٢١٢ .

[2]- انظـر : الأخفـش . أبو الحسن ، سعيد بن مسعدة ت٢١٥ هـ معاني القرآن . تحقيق : فائز فارس ط٢ سنة ١٩٨١ . مكتبة مركز الدراسات الإسلامية . جـ٢ ص ٤٢٤

[3]- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـ٢ ص ٢٧٧ .

[4]- انظر : المفردات في غريب القرآن . مادة " عنق " والكشاف جـ٣ ص ٣٠٦ .

[5]- انظـر : الكسـائي ، علي بن حمزة ت ١٨٩ هـ ، معاني القرآن تقديم : عيسى شحاتة ط١٩٩٨ . دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة – مصر . ص ٢٠٥

[6]- انظر : البحر المحيط جـ٧ ص ٦ .

[7]- الكشاف جـ٣ ص ٣٠٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهـذا من سنن العرب في كلامها ، فإنّها تقتصر على ذكر بعض الشيء وهي تريد كلّـه [1] ، ولا يـنكر أحد ما للسياق من تأثير على مجيء الصفة جمع مذكر سالماً حتى تتشابه رؤوس الآيات ، وذلك ضرْب من مراعاة السياق .

ومـن الآيات التي ذُكّر فيها المؤنث قوله تعالى [**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ ...**] *(النحل ١٦/٦٦)* .

فقـد عـاد الضـمير مذكّراً (الهاء في بطونه) على كلمة الأنعام ولم يقل بطونهـا ؛ لأنّ الأنعام اسم جنس ، فعومل معاملة المفرد. فما كان على زنة " أفعال" مـن الجمـوع يقع على الواحد كما يقع على الجميع. حدّث أبو الخطاب " الأخفش الأكبر" أنّه سمع العرب تقول: هذا ثوب أكياش [2] أي من برود اليمن [3].

ويفهـم من كلام سيبويه أنّ الأنعام جمع مدلوله مفرد ، فرجع ضمير المذكر علـى الجمـع بتأويل المذكور . وذهب الكسائي إلى أنّ التذكير على معنى : نسقيكم ممّـا في بطون ما ذكرنا محتجاً بالسياق القرآني. [**كَلا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ**] *(عبس ٨٠/ ١١-١٢)* [4] .

---

[1]- انظر : الصاحبي ص ٤٢١ .

[2]- الكـتاب جـ٣ ص ٢٥٢ . وانظر: أبو علي الفارسي ت٣٧٧ هـ . المسائل العسكريات ، تحقيق : إسماعيل عمايرة ، مراجعة : نهاد الموسى . ط١ سنة ١٩٨١ منشورات الجامعة الأردنية .

[3]- لسان العرب ، مادة " كيش " .

[4]- انظـر : الكسـائي ، معانـي القـرآن ص ١٧٦ ، وانظر : ابن الأنباري . أبو بكر ت ٣٢٨هـ ، المذكـر والمؤنـث تحقـيق : محمـد عـبد الخالق عضيمة . ط١٩٨١ . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث – مصر . جـ١ ص ٤٦٧

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقـد يـراد بالأنعام هنا " النَّعم " استناداً إلى ما يقتضيه سياق السورة ، فهو يذكـر المسـقى ، وهـو اللبن الخالص ، والنظر في سياق الآيات يُبيّن تعداد النَّعم " فتَعيّنت إرادة الإناث لذلك " [1] .

لا بـدّ مـنَ الإشـارة إلى أنّ هذه الفصيلة النحويّة، أعني تذكير المؤنث، لم يـنكرْها أحـد من النحاة أو اللغويين ، ولكن ذلك مستنكر في الشعر، خصوصاً في شعر المولدين ؛ إذ عدّ ابن جنّي ذلك وجهاً من وجوه الضرورات [2] .

أمّـا الفصـيلة الـنحوية الثانـية مِنْ فصائل الحمل على المعنى فهي تأنيث المذكـر ، فـإذا كـان تذكـير المؤنث هو ردّ فرْع إلى أصل ، فإنّ " تأنيث المذكر أذهب في التناكر والإغراب " [3] .

ومـن بليغ هذا النوع قوله تعالى [**يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ...**] *(لقمان ٣١/١٦)* .

نـرى في هذه الآية أن المضاف إليه " حبّة " روعي في المعنى ، فجاء فعل الشـرط الناقص " تك " بالفوقانية " بالتاء " ولم يُراع تذكير المضاف " مثقال " وهو بمعـنى وزن [4] ؛ لأنّ المـثقال هنا محمول على معنى الحسنة أو السيئة ، أو لأنّ المـثقال مـن الحـبّة [5] .وإنمـا روعي التأنيث من أجل السياق ، فقد بدئت الآية بالتأنيـث [**يَابُنَـيَّ إِنَّهَـا إِنْ...**] *(لقمـان ٣١/١٦)* أي المظلمة ، وختمت الآية بالتأنيـث أيضـاً . [**... يَأْتِ بِهَا اللَّهُ...**] *(لقمان ٣١/١٦)* ومن هنا كان التأنيث أحسن .

---

[1]- البقاعـي ، بـرهان الدين . أبو الحسن إبراهيم بن عمر ت ٨٨٥ هـ . نظم الدرر في تناسب الآيات والسـور. بعـناية دائـرة المعارف العثمانية ط١ سنة ١٩٧٨ . مكتبة ابن تيمية القاهرة – مصر . جـ١١ ص١٩٣

[2]- انظر : الخصائص جـ١ ص ٣٢٧ .

[3]- المصدر السابق جـ٢ ص ٤١٥ .

[4]- انظر : اليزيدي ، غريب القرآن وتفسيره ص ٢٥٥.

[5]- انظر : حجة القراءات ص ٥٦٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومـــن الآيات التي حُمل فيها المذكر على معنى التأنيث قوله تعالى [... أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ] *(هود ١١/٦٨)* .

فقـد مـــنع لفظ " ثمود" من الصرف ، بترك التنوين ، وجره بفتحة نيابة عن الكســـرة ، حملاً على معنى القبيلة ، فاجتمعت في " ثمود " علّتان للمنع من الصرف التـعريف للعلمـــية والتأنيـــث [١]. وسياق القرآن كله جاء بلفظ " ثمود " حملاً على القبـــيلة دون الحـــي . فلـــم يأت مصروفاً أبداً [٢] كالآية (٥٩) من سورة "الإسراء" والآيـــة (١٧) من سورة " فصلت " ، والآية (٣٨) من سورة " العنكبوت "، والآية (١٣) من سورة "ص" والآية (٤٥) من سورة " النمل " .

وممّـــا أنث فيه المذكر قوله تعالى [... قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ] *(البقرة ٢/٦٩)* .

جـــاء الفعـــل " تسُّـــر " بالتاء دلالة على التأنيث مع أنّ فاعله ضمير مستتر يعود على اللون ، وهو مذكر لفظاً .

ذهـــب النحاة إلى أن تأنيث اللون يعود إلى حمله على معنى الصفرة [٣] وهذا المعـــنى مســـتفاد مـــن سياق الآية نفسها [... بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ ...] *(البقرة ٢/٦٩)* فكأنـــه قال : صفرتها تسُر الناظرين ، وهذه القرينة لفظية ، دلت على أنّه ليس ثمّة مطابقـــة بين الضمير المحذوف، وتقديره " هي " وما يعود عليه الضمير من المعنى المفهوم " اللون " .

١- انظر : الكتاب جـــ٣ ص ٢٧٨ وانظر الأنباري ، الإنصاف في مسائل الخلاف تقديم : حسن حمد ط١ سنة ١٩٩٨ دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان . المسألة ٧٠ جـــ٢ ص ٣٩

٢- انظر : الأخفش ، معاني القرآن جـــ٢ ص ٣٥٥ .

٣- انظـــر : الـــزجاج (منســـوب إلى الزجاج) ، إعراب القرآن. تحقيق : إبراهيم الأبياري . ط ١٩٦٣ جـــــ٢ ص ٦١٦ ، وانظـــر : الأنـــباري ، البيان في غريب إعراب القرآن تحقيق : طه عبد الحميد طـــه . مـــراجعة: مصـــطفى الســـقا . ط١٩٨٠ . الهيـــئة المصرية العامة للكتاب جـــ١ ص ٩٣. وانظر : التبيان في إعراب القرآن جـــ١ ص ٧١ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ووجـــه ثانٍ للتأنيث هو أنّ اللون أضيف إلى مؤنث (الها) والضمير يعود علـــى " البقرة " [1]. وليست الإضافة هي سبب التأنيث – كما أشرتُ إلى ذلك قبْلاً – وإنمـــا هـــو مـــراعاة المضاف إليه (البقرة) في المعنى. وهذا قريب من قوله تعـــالى [**وَجَـــاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ**] *(ق ٥٠/٢١)*. فروعي الفاعل " نفس " في المعنى ، فقال جاءَت ، ولو روعيت " كلّ " لأُسقِطتَ التاء منَ الفعل .

وممّـــا أنّث مِنَ الكلام وهو مذكر قوله تعالى [**الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**] *(المؤمنون ٢٣/١١)* .

فقـــد ذهب بعض النحاة إلى أنّ " الفردوس " يذكر ويؤنث " [2] وقال الكلبي (ت ٢٠٤ هـــ) هو البستان بلغة الروم ، والعرب كذلك تسمّي البستان فردوساً [3] وذُهـــب فـــي تأنيث الفردوس في الآية إلى معنى الجنة ، كما جاء في الخبر الذي أورده ابـــن جنّـــي . قـــال : " وقال أبو الحسن لأبي حاتم : ما صنعْت في كتاب المذكر والمؤنث ؟ قال : قلت : قد صنعْتُ فيه شيئاً. قال: فما تقول في الفردوس ؟ قال : ذكر . قال : فإنّ الله – عزّ وجلّ – يقول: [... **الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**] *(المؤمنون ٢٣/١١)* قال : قلت : ذهب إلى الجنة ، فأنث ... " [4].

ويذهب الباحث إلى أنّ الغاية من تأنيث " الفردوس " في الضمير (الهاء) هـــو الجمع والكثرة ، فالفردوس أعلى الجنان ، فمن دخلها فكأنه دخل الجنات كلها فلو عاد الضمير مذكراً على الفردوس " بالهاء ". (**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) لما أدّى إلاّ معنى القلة الذي يؤديه التذكير . والله أعلم .

والقرينة التي وردت في السياق لفظية تمثّلت في عدم المطابقة بين الضمير وما أعيد عليه .

---

[1]- انظر : البحر المحيط جـــ١ ص ٤١٧.

[2]- انظر : ابن الأنباري ، المذكر والمؤنث جـــ١ ص ٤٩٨ .

[3]- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـــ٢ ص٢٣١ .

[4]- الخصائص جـــ٣ ص ٣٠٨ – ٣٠٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وممّـا أنّـث فـيه المذكـر قولـه تعالى [بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ] *(القـيامة ١٤/٧٥)*. جـاء لفظ الإنسان في الآية على معنى " النفس " ، فأصبحت النفس هي البصيرة .

ومـا يؤكـد أنهمـا شـيء واحد قول سيبويه : " ثلاثة أنفس " ؛ لأنّ النفس عـندهم إنسـان . ألا تـرى أنهم يقولون : نفس واحد ولا يدخلون الهاء [١] ؟ وهذه الآيـة كقول العرب : " أنت حجة على نفسك " [٢]. والذي يراه الباحث في هذه الآية أنّهـا لم تخرج عن النسق القرآني المألوف ، فكم من موطنٍ في القرآن جاءت فيه " النفس " موضع صاحبها ! .

كقولـه تعالى [يَوْمَ تَأْتِي كُـلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُـوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَـتْ وَهُـمْ لاَ يُظْلَمُونَ] *(النحل ١١١/١٦)*. وقوله [وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَـهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ] *(ق٢١/٥٠)* .

ومواطـن أخـرى كثـيرة . وأظن أنّ الله تبارك وتعالى يريد أنّ يبين شأو الـنفس وقدرهـا ، ويرفع من ذكرها ، ويبين أنّ خلق النفس شيء عظيم ، كما أنّ العـرب قـد اسـتغنت عـن كلمة " نفس " بكلمة شخص أو إنسان ، وبقي المعنى محمولاً على " النفس " كقول عمر بن أبي ربيعة (ت٩٣هـ) .

فكان نصيري دونَ مَنْ كُنْتُ أتّقي

ثلاث شخوص : كاعبانِ ومُعصِرُ [٣]

فلا بأس – إذاً – في أنْ يحلّ لفظ النفس محلّ الإنسان . والله أعلم .

وممّـا أنّث فيه المذكر قوله تعالى [قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ...] *(الحجرات ١٤/٤٩)* .

١- الكتاب جـ٢ ص ٢١٥ والمخصص جـ١٧ ص ١١٤ .

٢- الأخفش ، معاني القرآن جـ٢ ص ٥١٧ ، وانظر : الزجاج ، إعراب القرآن جـ٢ ص٦١٩ .

٣- الكتاب جـ٤ ص ٤٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فقد جاء الفعلُ " قالت " مؤنثاً ، مع أنّ الفاعل مذكر " الأعراب " وهم سكان البادية ، وهو في الأصل جمع " عَرَب " [1]. وواحده أيضاً أعرابي . وسبب التأنيث هو الحمل على معنى الجماعة [2]. والتفسير يؤكد ما ذهب إليه أبو جعفر النحاس ، وهو أنّ الأعراب هم بنو أسد بن خزيمة ، وهي قبيلة تجاور المدينة [3]. فالتأنيث على معنى القبيلة ، وأصل الكلام : قالت جماعة الأعراب ، فحُذف المضاف وقام المضاف إليه مقامه إعراباً وتأنيثاً . ولو عُدنا إلى السورة لوجدنا أنّ الناس همُ المخاطبون في سياقها ، وهدف الخطاب هو الحضّ على التعارف بين الناس ، وإنْ كانوا شعوباً مختلفة وقبائل متباعدة .

وهذه الآية من قبيل قولنا : " هي الرجال " وإن كنّا نقول في المفرد " هو رجل " فالجمع يُؤنث " وإنْ كان كلّ واحد منه مذكراً من الحيوان " [4] .

ومن الآيات التي حُمل فيها المذكّر على معنى المؤنث قوله تعالى **[بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا]** *(الفرقان ٢٥/١١-١٢)* .

فلفظ سعير مذكر ، ولكن الضمير عاد عليه مؤنثاً في قوله (إذا رأتهم) فحمل على معنى جهنّم ، ومنهم من حمله على معنى النار [5]. وأنا أميل إلى حمل السعير على معنى جهنّم ؛ لأنّ سياق القرآن جاء بالمعنى واللفظ نفسه – تقريباً – فقد قال تعالى في سورة الملك **[وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ(٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ]** *(الملك ٦٧/٦-٨)* .

---

[1]- انظر : المفردات في غريب القرآن . مادة " عرب " .

[2]- انظر : النحاس . إعراب القرآن جـ٤ ص ٢١٦.

[3]- انظر : البحر المحيط جـ٨ ص ١١٦ .

[4]- الكتاب جـ٢ ص ٣٥ .

[5]- انظر : الصاحبي ص ٤٢٦. والبرهان في علوم القرآن جـ٣ ص ٣٦٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ألا ترى أنّ هذا السياق هو الكاشف عن معنى السّعير ؟! .

ولا نستطيع أنْ نستعيض عن السعير بالنار ، أو العكس ؛ لأنّ السعير أشدّ وأقوى ، وهو بمعنى النار الشديدة الاستعار. وحجّة أخرى أسوقها ؛ لأبيّن أنّ السعير هو جهنّم ما قاله الحسن البصري (ت ١١٠هـ) – رحمه الله – : " إنّ السعير اسم مِن أسماء جهنم " [١] .

اللّهُمّ أعذْنا منها ومِن لظاها !

ومن بليغ تأنيث المذكر قوله عزّ شأنه [**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ...**] *(البقرة ٢/٢٧١)*

إنّ الأصل في الكلام عودة الضمير مذكراً على المصدر (إبداء) المفهوم من فعل الشرط المجزوم (تبدوا) ، ولكن عاد الضمير عليه مؤنثاً " هي" .

وليس الضمير " هي" عائداً على كلمة الصّدقات [٢]، ولو كان الأمر كذلك – إذا – لما كان هناك إشكال . والذي دلنا على عودة الضمير على المصدر وليس على الصدقات هو سياق الآية نفسها ، فالسّياق هو الذي كشف لنا عن المصدرين . قال تعالى [... **وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ...**] *(البقرة ٢/٢٧١)* . فذكر الضمير العائد على المصدر "إخفاء" المشتق من الفعل " تُخفي". فتأنيث الضمير "هي" مع أنّ المصدر " إبداء" مذكر، على حذف مضاف . والتقدير : إبداؤها نعم ما هي ، وقد تكون "هي" على معنى الجمع . يقول البقاعي : " فقد جمع لها –أي هي – الأمداح المبهمة ؛ لأنّ " نعم " كلمة مبالغة تجمع المدحَ كله " وما " كلمة مبهمة تجمع الممدوح فتطابقتا " [٣].

---

[١]– الكشاف جـ٣ ص ٢٧١.

[٢]– انظر : البرهان في علوم القرآن جـ٣ ص ٣٦٧ .

[٣]– نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور جـ٤ص٩٩ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

أمّا الفصيلة النحوية الثالثة من فصائل الحمل على المعنى فهي التعبير عن الجمع بلفظ الواحد .

يقول ابن فارس عن هذا الأسلوب : " ومِنْ سنن العرب ذِكرُ الواحد والمراد الجميع " [1] .

ومـن بديع قوله تعالى في حَمْل المفرد على معنى الجمع [... **وَنُقِـرُّ فِي الأَرْحَـامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَـلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْـلاً ثُمَّ لِتَـبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ** ...] *(الحج ٢٢/٥)* .

كُنـت قـد ناقشتُ هذه الآية في الفصل الأول ، وبيّنت كيف حملت لفظة " طفـل " علـى المعنى . فوردت مفردة يراد بها الجمع [2]. أمّا الآن فأعرضُ لعلّة ذلك مستعيناً بالسياق .

إنّ سياق الآية الذي وردت فيه كلمة " طفل " يتحدث عن مراحل نشوئه في بطن أمّه ، فبعد أنْ كان نطفة ، خلقها علقة ، ثم جعلها مضغة، ثم تنقل في مراحل نمـوّه حـتّى أنشأه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين. والله – تبارك وتعالى – يـريد في الآية أنْ يبيّن ويُدلل على أنّ الإنسان كان صغيراً حقيراً ، ولم يكن شيئاً مذكـوراً . ثـمّ إنّ العنصـر الذي منه خُلقَ مهين . ومع كل ذلك ، فقد نكّب عن عبادته وعدل عن طاعته ، واتبع أمر من لا يستحقّ العبادة . فمن هنا كان الإفراد في كلمة " طفل " أليق . ألا ترى أنّ الإفراد يحمل معنى القلة ؟! وفي القلّة ضعف وهوان .

وقد جاء ابن جني في هذه الآية عجباً ، معلّلاً مجيء اللفظ مفرداً . قال : " ... فحسـن لفظ الواحد هنا ؛ لأنّه موضعُ تصغير لشأن الإنسان ، وتحقير لأمره ، فلائـق بـه ذكر الواحد لذلك لقلته عن الجماعة ... وهذا ممّا إذا سُئل الناس عنه

---

[1]- الصاحبي ص ٣٤٨ .

[2]- انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور جـ١٣ ص١٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قـالوا : وضع الواحد موضع الجماعة اتساعاً في اللغة ، وأنسوا حفظ المعنى لتقوى دلالته عليه ، وتتضمّ بالشبه إليه " [1] .

فأفـرد اللفظ مع جواز الجمع، وقد أكثرت العربُ من هذا في كلامها، وهذا يدلّك على قوّة اعتقادها " أحْوال المواضع وكيف ما يقع فيها " [2].

وفـي موطـن آخر منَ التنزيل العزيز وردت اللفظة نفسها مفردةً يراد بها الجمـع تقويـة للمعـنى . قال تعالى : [... أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ...] *(النور ٢٤/٣١)*

إنّ سـياق الآية يتّفق معَ إفراد هذه اللفظة . ألا ترى أنّ الآية جاءت في نكر كـلّ أولئك الذين يحل للنساء أنْ يُظهرْنَ زينتهنّ أمامهم ؟ فجيء بصيغة الجمع عند كـلّ إلاّ في موطنٍ واحد " الطفل " ؛ لأنّ الأطفال أقلّ أولي الإربة احتفالاً واهتماماً بزيـنة النسـاء وظهـوراً على عوراتهنّ ، فجاء بصيغة المفرد تخفُّفاً منَ الاهتمام بهنّ. والله أعلَم .

ومـن الآيات التي حُمل فيها المفرد على الجمع قوله تعالى [أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ...] *(النور ٢٤/٤٣)*

فالسـحاب اسـم جنس ، يُذكّر ويُؤنّث ويفرد ويُجمع [3] وقد جاء في الآية بلفـظ الواحـد ، ولكن بمعنى الجمع [4] ؛ لأنه قال : يؤلف بينه ، فلا يكون التأليف إلا بين قطع متعددة أو أجزاء متناثرة حتى يوصل بينها .

---

[1]- ابن جنّي ، المُحتَسَب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها تحقيق : محمد عبد القادر عطا ط١ سنة ١٩٩٨. دار الكتب العلمية ؛ بيروت – لبنان . جـ٢ ص ٣١٥

[2]- الخصائص جـ٢ ص٤١٩.

[3]- انظر : البحر المحيط جـ٥ ص ٣٦٦ .

[4]- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـ٢ ص ٢٥٦ وأمالي المرتضى جـ٢ ص٣٠٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهذا مستفاد من السياق نفسه ، بدليل قوله تعالى في موضع آخر [هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ] (الرعد ١٣/١٢) .

فكلمة السحاب في الآية محمولة على الجمع " سحابات " [١] ومفردها " سحابة " . ودليل الجمع مجيء الصفة جمعاً على زنة " فِعال " ، " ثقال " مفردها ثقيلة . وهذا من بديع لغة القرآن التي حفظت لنا هذه الفرائد .

ومن حمل المفرد على الجمع قوله تعالى [... وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ] (البقرة ٢/١٣٦) .

فلقد جاء اللفظ " أحد " مفرداً يراد به الجمع ؛ لأنَّ التفريق – كما هو معروف – لا يكون إلا بين اثنين أو أكثر . وهذا " دليل على أنَّ النكرة الواقعة في سياق النفي تفيد العموم لفظاً حتّى يتنزّل المفرد فيها منزلة الجمع ... فلو كان لفظاً ما لا إشعار له بالتعدد والعموم وضعاً لما جاز دخول بين عليها " [٢]

فالنكرة " أحد " هنا محمولة على معنى الفريق أو الكثرة [٣] ، فلا تضاف " بين " إلا إلى جمْع أو إلى واحد معطوف عليه [٤] .

وما يعضُد حملَ " أحد " على معنى الفريق هو ما قاله المفسّرون في الآية إنّنا لنْ نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض . وهذا هو التفريق المقصود في الآية الكريمة .

كما أنّ سياق الآية فيه ذكر لعدد من الأنبياء. قال تعالى [قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...] (البقرة ٢/١٣٦).

١- انظر : الأخفش ، معاني القرآن جـ١ ص ١٠٥.

٢- حاشية الإسكندري ، أحمد بن محمد بن منير على الكشاف جـ١ ص٢٢١ .

٣- انظر : الأنباري ، البيان في غريب إعراب القرآن جـ١ ص ١٨٨.

٤- انظر : التبيان في إعراب القرآن جـ١ ص١٠٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ودليل آخر على أنّ " أحد " بمعنى الجماعة قوله تعالى [**فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ**] *(الحاقة ٦٩/٤٧)* .

فسياق الآية يؤكد ذلك وهو الضمير المخاطب المتصل بحرف الجر (منكم).

ومنَ الألفاظ المفردة التي كَثُر دورانها على ألسنة البلغاء والشعراء – ويراد بها الجمع – لفظ "ضيف ". قال تعالى [... **إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ**] *(الحجر ١٥/٦٨)* .

فقد قالوا إنّ أصل " ضيف" مصدر ؛ فلذلك يستوي فيه الواحد منَ الجنسيْن والجمع في عامّة كلامهم [١] ، وهو – وإنْ كان يحمل على معنى الجمع – إلاّ أنّ أمّهات كتب اللغة تجمعه على أضياف وضيوف وضيفان [٢] ، والذي يدلّ على أنّ لفظ " ضيف " قد تنزّل – في الآية – منزلة الأضياف قوله تعالى " هؤلاء" وهو اسم إشارة مختصّ بالجمع . كما أنّ مخاطبة قوم لوط للنبي لوط – عليه السلام – في قوله تعالى [**قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ**] *(الحجر ١٥/٧٠)* دليل على ذلك

فلو لم يكن الضيوف جماعة لما قالوا له : " العالمين " . وقال تعالى في موضع آخر [**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ**] *(الذاريات ٥١/٢٤)* والمكرمون : اسم مفعول جُمعَ جمعَ مذكر سالماً ، فالضيف جمع لا مفرد .

فلولا السياق القرآني الذي ضمّ في تضاعيفه القرائن اللفظية الدالة على أنّ الضيف يراد به الجمعُ لفاتنا فهم الآية ، ولفاتنا من القرآن شيء عظيم .

١- انظر : ابن الأنباري ، المذكر والمؤنث جـ١ ص ٢٩٢ وانظر : المفردات في غريب القرآن . مادة " ضيف" .

٢- انظر : الزمخشري ، أساس البلاغة مادة " ضيف" .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومـــن الصفات التي وردت في القرآن مفردةً يراد بها الجمعُ . " ظهير " . قـــال تعالى [... وَالْمَلاَئِكَـــةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ] (*التحريم ٦٦/٤*) . فقد وقع اللفظ " ظهير" – على زنة فعيل – خَبَراً للجميع معَ أنه مفرد في لفظه ، ولكنّه في معنى الجمع أي : ظهراء [١]. وذكر بعضهم جمعاً آخر هو مظاهرون ، بمعنى أعوان ، وقالوا إنّ ظهيراً بمعنى فوج مظاهر له ، كأنّهم يد واحدة على من يعاديه [٢] .

أشـــير هنا إلى أنّ صيغة " فعيل " تطلق على المفرد والمثنّى والجمع بلفظ المفرد [٣] . ولا نغفل في هذه الآية عن ذكر السياق وما له من تأثير في وضع كلّ لفظ موضعَه لا ينازعُه عليه لفظ آخر . فرؤوس الآيات أو الفواصل تنتهي بحرف الـــراء ، فكان الإفراد أحسن من الجمع . وعلة أخرى من اختيار الإفراد هي جعل الملائكة كشيء واحد [٤] والله أعلم .

ومـــنَ الألفـــاظ التي أفرد لفظها وأريد بها الجمع. " جُنُب ". قال تعالى [**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ ...**] (*النساء ٤/٤٣*)

فقـــد وحّد " جُنُباً " في موضع الجمع ؛ لأنّ المخاطبين كُثْر . ويقال : رَجُلٌ جُنُب . وامرأة جُنُب ، ونساء جُنُب ، أي أنه يستوي الاستعمال في هذه الكلمة بين الواحـــد والجمـــع والمذكر والمؤنث ؛ " لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب " [٥]. ومِن العرب مَن يثنّيه ويجمعُه فيقول : " رجلان جُنُبان " و " رجال

١- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـــ٣ ص ١٦٧.

٢- انظر : المفردات في غريب القرآن . مادة " ظهر " والكشاف جـــ٤ ص ٥٧١.

٣- انظر : البحر المحيط جـــ٨ ص ٢٨٧ .

٤- انظر : اليزيدي ، غريب القرآن وتفسيره ص ١١٨ . وانظر : ابن الأنباري . المذكر والمؤنث ج١ ص ٣١٨ .

٥- الكشاف جـــ١ ص ٥٤٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أجـــناب " [1]. ولكنّ الاقتصار على كلمة " جُنُب " أفصحُ لغةً وأكثر دوراناً ، وبها جاء القرآن [2] .

والســـياق دليل على أن هذه الكلمة محمولة على المعنى ، فلو أنعمنا النظر فيه لوجدنا أنّ الألفاظ جميعها – أسماءً وأفعالاً وضمائر – وردت بصيغة الجمع ، نحـــو : الذين ، آمنوا ، لا تقربوا ، وأنتم سكارى ، حتى تعلموا ، إلاّ عابري سبيل مرضى ، وغيرها .

فلمـــا ورد لفـــظ واحـــد مفرد بين طائفة من الألفاظ التي وردت كلها جمعاً علمـــنا أنّ الســـياق قـــد أثّر فيه فتجانبه نحو الجمع في المعنى حتى ينسجم الكلام وتأتلف الألفاظ . فسبحانه ما أبلغ كلامه وأجلّ عبارته ! .

ومـــنَ الألفاظ التي وردت في التنزيل العزيز مفردةً يراد بها الجمع ما جاء فـــي قوله تعالى **[وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ]** *(الحاقة ٦٩/١٧)*

فقد حُمل لفظ " المَلَك " – وهو اسم جنس [3] – على الملائكة ، ويدلّ على ذلك سياق الآية **[عَلَى أَرْجَائِهَا]** ؛ لأنّ المراد – والله أعلم – هو أنّ الملائكة على أرجائهـــا ، لا أنّه ملك واحد ينتقل على أرجاء السّماء في وقت واحد. [4] وفي آية أخرى نجد أنّ كلمة " ملك " تطلق على الواحد .

قـــال تعالى **[... وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ...]** *(الأنعام ٦/٥٠)* والمقصود هو ملك منَ الملائكة [5] ، فلا ينبغي للرسول صلى الله عليه وسلم – وهو واحد – أنْ يقول لهم : إنني جمعٌ مِنَ الملائكة . والله أعلم .

١- التبيان في إعراب القرآن جـــ١ ص ٢٨٩ .

٢- انظر : البحر المحيط جـــ٣ ص ٢٦٧ .

٣- البحر المحيط جـــ٨ ص ٣١٨ .

٤- المرجع السابق ، الصفحة ذاتها .

٥- تفسير الجلالين . الآية .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومـــن هذا الضَّرْب لفظ " عدوّ " . قال تعالى [**وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَـــيَاطِينَ الإِنْـــسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ ...**] *(الأنعام ٦/١١٢)* . أجمعت كتب اللغـــة علـــى أنّ كلمـــة " عدوّ " تطلق على المفرد بنوعيْه ، وعلى الجمع بنوعَيْه فنقول : شيطان عدوّ . والشياطين عدوّ . وامرأة عدوّ ونساء عدوّ [١] .

و " عدوّ " في الآية بمعنى " أعداء " . يدلّ على ذلك سياق الآية ، واستناداً إلـــى قرينة لفظية ، هي قرينة المطابقة ، فالبدل " شياطين " جاء جمعاً [٢] ، فليس مِن بدّ أنْ يكون المبدل منه " عدوّ " جمعاً .

ومِن بديع حَمْل المفرد على الجمع قوله تعالى [**... قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ**] *(البقرة ٢/٦٨)*

إنّ القياس في العربية يقتضي مجيء " بين " بين شيئين ، فلا يجوز أنْ تقع مـــع واحـــد ، فـــلا نقول : يجلس زيد بين أخيه ؛ إذ لا يستقيم المعنى حتى يكون الجالســـون ثلاثة أو أكثر [٣]، وجاءت الآية بإفراد اسم الإشارة ، وقد سبقَتْه "بين" ولـــم يقـــل : بين ذيْنك ؛ لأنّ ذلك بمعنى الاثنين أو المذكورَيْن ، أي أنّ البقرة في منزلة بين الفارض والبكر، فلا هي بالمسنة ولا بالصّغيرة . ومجيء اسم الإشارة " ذلـــك " فـــي هذه الآية دالاً على شيئين أبلغ من القول " ذينك "؛ لأنّ " ذلك " يدلّ دلالة صريحة على أنّ المشار إليه قد ورد في سياق الآية ، فاستبدل المفرد بالمثنّى وذلك أبلغ . فلو أنّ " ذينك " جاء في الآية لكان فيها تكرار وحَشو لا طائل وراءه وهـــذا منَ القرآن بعيد . ومن هذا القبيل لفظ " رفرف ". قال تعالى [**مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْـــرَفٍ خُضْـــرٍ وَعَـــبْقَرِيٍّ حِسَانٍ**] *(الرحمن ٥٥/٧٦)* فقد جاء اللفظ " رفرف " مفرداً ، ولكنّه وصف بالجمع " خُضْر " ، ومفرده أخضر . فهو – إذاً – مفرد في معنى الجمع .

١- انظر : ابن الأنباري ، المذكر والمؤنث جـــ١ ص ٣١٧ .

٢- انظر : التبيان في إعراب القرآن جـــ١ ص ٤١٥.

٣- انظر : معاني القرآن وإعرابه جـــ١ ص ١٥٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ولم أجد لفظةً في القرآن الكريم احتدم حول معناها الجدل بين المفسّرين كما احتدم حول هذه اللفظة ، فذكروا أنّ الرفرف هو رياض الجنة [1] ، وقالوا هو المنتشر مِنَ الأوراق ، أو ضرْب من الثياب مشبّه بالرياض أو طرف الفسطاط . وقال الحسن البصري : إنّها المخادُّ [2]. وقال أبو جعفر النحاس : إنّه اسم جمع أي ليس له مفرد مِن لفظه ، كالقوم والرهط [3]. والباحث لا يؤيده في ما ذهب إليه ؛ لأنّ كثيراً من النحاة واللغويين أشاروا إلى أنّ الواحد مِنَ الرفوف هو رفْرَفة . وأوجه الأقوال – عندي – أنّ الرفرف اسم جنس ، واسم الجنس يجوز فيه أنْ يفردَ نعتُه وأنْ يُجمع . وحَسُن جمعُه هنا مقابلته لـ " حسان " الذي هو فاصلة [4]. ومعنى قول أبي حيان الأندلسيّ " مقابلته لحسان " هو تأثير السياق . فلما وردت " حسان " بالجمع حَسُن جمعُ ما قبلها فقال : خُضْر .

ومن بليغ حَمْل المفرد على معنى الجمع قوله تعالى [**بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ...**] (البقرة ٢/٨١) فقد حُملت كلمة " خطيئة " وهي مفرد على معنى الجمع " خطيئات " أو " خطايا ". وما يقوي ما ذهبوا إليه قراءَة نافع المدني (ت ١٦٩ هـ) ، أحد القراء السبعة " وأحاطت به خطيئاته " [5] . ألا ترى أنّ الإحاطة لا تكون للشيء المفرد ؟ إنما تكون لأشياء ، كقولك :(أحاط به الأعداء) وبدليل قوله تعالى [... **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ...**] *(الكهف ١٨/٢٩)*. والسرادق فارسي معرّب ، وهو جمع ؛ لأنّه ليس في كلامهم اسم مفرد ثالثه ألف وبعده حرفان [6]. ولم نسمع أنّ أحداً

---

[1]- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـ٣ ص ١٢٠ .

[2]- انظر : المفردات في غريب القرآن . مادة " رفّ " .

[3]- انظر : النحاس ، إعراب القرآن جـ٤ ص ٣١٨.

[4]- انظر : البحر المحيط جـ٨ ص ١٩٧ .

[5]- انظر : حجة القراءات ص ١٠٢ .

[6]- انظر : المفردات في غريب القرآن . " سردق "

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يقـول : أحـاط زيد بعمرو ، ففي الإحاطة استيلاء على الشيء وإحداق به مِن كلّ جانب[1]. ولا بد للشيء مِن أنْ يكون كثيراً حتى يُحدَقَ به مِن كلّ جانب .

والعلّـة مِن الإتيان بكلمة " خطيئة " مفردةً مآلها السياق ، فقد جاء لفظ السيئة مفرداً ، فلم يقل " سيئات " فأفردت الخطيئة للمشاكلة اللفظية بين الكلمات .

مِـن الألفـاظ المفردة التي وقعت بمعنى الجمع ما جاء في قوله تعالى **[وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ...]** *(البقرة ٢/٤١)* .

فلقـد حُمل اسم الفاعل " كافر" من الثلاثي على معنى الجمع مَعَ أنه مفرد . والـتقدير : لا تكونوا أوّلَ كافرين به [2] مراعاة للسياق . فجوّ السياق يوحي بالجمع فـلا إفـراد فيه . قال تعالى **[وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ.... وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِـي ثَمَـنًا قَلِـيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ]** *(البقرة ٢/٤١)* ، فالأفعال والضمائر جاءت بصـيغة الجمـع فـي سياق الآية ، فحسُن حمل المفرد على الجمع التماساً للمماثلة المعنوية .

وذهـب بعضـهم إلـى أنّ المعـنى " ولا تكونوا أوّل فريقٍ كافرٍ به " [3] . ولسْـت أرى ضرورة في إقحام لفظٍ على الآية حتى يستقيم لهم وجه المعنى ما دمنا نسـتطيع ذلـك بحمـل المفـرد علـى معنى الجمع دون اللجوء إلى التقدير . فأيّ ضـرورة تلجئـنا إلـى تقديـر مضـاف " فريق " ؟ فنجعل من كلمة " كافر" نعتاً لمحـذوف مفـرد لفظاً مجموع معنى. [4] ثم راحوا يقدّرون تقديراتٍ أخرى فجعلوا قوله (أوّل كافر) بمعنى (أوّل مَن كفر) .

وأي حاجـة تلـك التـي تضطرنا إلى استبدال كلمتيْن بكلمة واحدة ؟! وأين البلاغة في ذلك ؟!

---

[1]- انظر : تفسير الجلالين . الآية .

[2]- انظر : معاني القرآن وإعرابه جـ١ ص١٢٣.

[3]- انظر : الكشاف جـ١ ص ١٥٩ وانظر : البيان في غريب إعراب القرآن جـ١ ص٧٨ .

[4]- انظر : مغني اللبيب ص ٢٦٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إنّ حَمْـلَ الكافر على معنى الكافرين – في ظني – أحسن الوجوه ؛ لأنّ هذا الوجـه – علـى أقل تقدير – كثير في القرآن مستفيض في لسان العرب ، فالعرب تقـول : " هـذا أوّل رجل " بإضافة أفعل التفضيل إلى نكرة غير صفة ، مع بقائه مفـرداً مذكـراً ، والـنكرة تطـابق ما قبلها [1] ، ولكنّ المراد هو الجمع، [2] فكأنّ العـرب أرادت أن تقـول : " أوّل الرجال " فحذفت استخفافاً واختصاراً دون أدنى مسـاس بالمعنى ، وهذا ضرْب من البلاغة ، ((فكما استخفّوا بحذف الألف واللام اسـتخفوا بترك بناء الجميع ، واستغنَوْا عن الألف وعن قولهم : " خير الرجال " و " أوّل الرجال ")) [3] .

أسـتطيع أن أوجـز الكـلام في هذه الفصيلة النحوية فأقول : إذا كان اللفظ المفرد يؤدّي مؤدى الجمع دون أنْ يُستضامَ المعنى ، فإنّ الإتيان بالمفرد أفصح في الاستعمال وأخصر في الحروف ، وأطوع للسياق . وذلك أبلغ في الكلام .

أمّـا الشكل الرابع من أشكال الحمل على المعنى فهو التعبير عمّا دون الجمع بلفـظ الجمـع . يقول ابن فارس : " ومن سنن العرب الإتيان بلفظ الجميع والمراد واحد واثنان " [4]

ولا بـدّ مـن الإشـارة هـنا إلى أنّ هذه الفصيلة النحوية يعسر على المرء فهمهـا؛ لأنهـا – دون سـائر أخواتها – تخضع للملابسات المحيطة بالآية وبيئاتها ومناسـبة نزولها ، ثمّ إنّ معرفة الذين نزلت فيهم آية ، أو أنزل فيهم قرآن من فوق سـماوات سبع ، تعين على فهم النص فهماً صحيحاً ، ومن ثَم يمكن تحديد الفصيلة الـنحوية، وهذه الملابسات يمكن أنْ تنفتّق من الموقف الثقافي والموقف الاجتماعي، أو ما يسمّى سياق الحال .

---

[1]- أنظر : البحر المحيط جـ١ ص ٣٣٢ .

[2]- انظر : حسّان تمام ، الأصول دراسة إبستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي . ط١ سنة ١٩٩١ . الدار البيضاء – المغرب . ص ٢٠٢

[3]- الكتاب جـ١ ص ٢٦٥ .

[4]- الصاحبي ص ٣٤٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وليس الواحد منا مطالباً بأنْ يقف على كلّ صغيرة أو كبيرة تختص بأسباب نـزول القـرآن ، فهناك كتب متخصصة في هذا الميدان يمكن الاستعانة بها، ولا نعـدم أنْ نجـد كثيراً من الآيات التي ذُكرت أسبابُ نزولها مبثوثة في بطون كتب التفسـير وعلـى رأسها تفسير الطبري . ومهما يكن من أمر هذا الأسلوب ، فهو لطـيف في بابه ، عظيم الأثر في دلالته ، فمن بديع حمل الجمع على المفرد قوله تعالى [... عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ...] (يونس ١٠/٨٣) .

فهـذه الآية يراد بها الواحد ، فإنّ " فرعون " طاغية واحد ، فكيف أضيف لفظ الملأ إلى ضمير جمع " ملئهم " ، مع أنّ هذا الضمير يعود على فرعون ؟! ثم إن " فـرعون " أفرد في ستة مواطن أخرى ، كقوله تعالى [ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ] (الأعراف ٧/١٠٣).

لقد ذهب الفراء مذهباً يرتضيه العقل ويقبله التأويل ، وهو أنّ الملك أو من يقوم مقامه إذا ذكر بخوفٍ أو بسفر أو قدوم من سفر ذهب الوهم وانصرف الذهن إلـيه وإلـى مَن معَه من خدم وحاشية ، فجمع فرعون ؛ لأنه في أعينهم عظيم [1] ويجوز أن يراد بفرعون : آل فرعون [2] فحذف المضاف ، وأبقي على المضاف إلـيه . وهذا من قبيل قوله تعالى [وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ...] (يوسف ١٢/٨٢) فتوقفت صـحة دلالـة اللفظ على إضمار ، سميت دلالة اقتضاء ؛ لأنّ ذلك يقتضي سؤال أهلهـا . وقـد ردّ أبو حيان الأندلسي هذا الوجه ولم يقبله ؛ لأنّ الخوف يمكن أنْ يسـتحوذ علـى فـرعون ، ولا يمكـن سؤال القرية ، فلا يحذف إلا ما دلّ عليه الدليل [3] .

١- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـ١ ص ٤٧٦ .

٢- المرجع السابق جـ١ ص ٤٧٧.

٣- البحر المحيط جـ٥ ص ١٨٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وذهـب بعضهم إلى أنّ فرعون صار اسماً لأتباعه ، كما أنّ ثمود اسم للقبيلة كلهـا [1] ، وهـذا الـرأي مقبول إلاّ أنّ قول الفراء أحبّ إليّ ؛ لأنّ سياق الآية فيه تخويـف واستعلاء ، وهذا يناسب قول الفراء ، ثمّ إنّ الخوف المرتقب من فرعون لا يكون منه وحده بل من جنوده أيضاً ، فحسُن الجمع هنا . والله أعلم .

ومـن هذا الباب قوله تعالى **[إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ]** *(الحجرات ٤٩/٤)* .

فقـد قـال " يـنادونك " بصيغة الجمع مع أنّ المنادي واحد . يقال إنّ رجلاً جـاء رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى يا محمد ! إنّ مدحي زَيْن وإنّ ذمّي شيْن .

فقـال رسول الله : " ذاك الله تبارك وتعالى "، وهناك روايات أخرى تروى في هذا الخبر ، إلاّ أن فحواها واحد [2] .

ومن بليغ حَمْل الجمع على المفرد قوله تعالى **[وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ...]** *(النحل ١٦/١٢٦)* .

فعَن أبي هريرة (ت٥٩ هـ) – رضي الله عنه – أنّ النبي صلّى الله عليه وسـلم وقف على حمزة (ت ٣هـ) – رضي الله عنه – حين استُشهد ، وقد مُثّل بـه فقال : " لأُمثّلنّ بسبعين منهم مكانك " . فنزل جبريل – عليه السلام – بخواتيم سورة النحل ، (الآية) ، والنبي صلى الله عليه وسلم واقف [3] .

---

[1] – انظر : النحاس ، إعراب القرآن جـ٢ ص ٢٦٥ .

[2] – انظر : تفسير الطبري جـ ٢٦ص ٧٧، وانظر : الصاحبي ص ٣٤٩ .

[3] – السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن. تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . ط١٩٨٧ المكتبة العصرية . بيروت – لبنان . جـ١ ص ٩٦

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فالمخاطـــب في هذه الآية هو الرسول صلى الله عليه وسلّم بدليل سياق الآية التـــي بعدهـــا. [وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ...] (*النحل ١٦/١٢٧*). ففعل الأمر " اصبر" جاء بصيغة المفرد لا الجمع .

وأظـــن أنّ النبـــي صلى الله عليه وسلّم خوطب بالجمع تسليةً وعزاءً من الله تـــبارك وتعالى ، ألا ترى أنّ الأُنس يكون مِن الجماعة وخصوصاً إذا كان المصاب عظيماً ؟! .

وعـــن ابـــن عباس (ت ٦٨ هـــ) – رضي الله عنهما – قال : " هذا خبر منَ الله نبيّه أنْ يقاتل مَنْ قاتله " [١] .

وقـــال آخرون : أراد الله بقوله [وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ] نبيّه خاصة دون سائر أصحابه ، فكان الأمر بالصبر له عزيمة مِن الله دونهم [٢] .

ومـــن بديـــع هـــذا الباب قوله تعالى [وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ] (*النمل ٢٧/٣٥*) .

فـــإنّ كلمـــة " المرسلون " وهي اسم مفعول مجموع جمع مذكر سالماً مع أنّ المرســـل واحـــد . يدلّ على ذلك سياق الآيات . قال تعالى [ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ ...] (*النمل ٢٧/٣٧*) .

يقـــول الطبري : قالت " وإني مرسلة إليهم، وإنّما أرسلت إلى سليمان وحده " ثـــم قال : فلما جاء سليمان ، بإفراد الفعل ؛ لأنّ المرسلين جماعة ، فجعل الخبر في مجـــيء سليمان عن واحد . وقد قالت قبل ذلك : فناظرة بم يرجع المرسلون . فإن كـــان الرسول واحداً ، فكيف جاز قوله : [يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ] بالجمع ؟! وإن كانوا جماعـــة فكيف قيل:[فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ] ؟! وكيف جاز أنْ يقال:[ارْجِعْ إِلَيْهِمْ] ؟! وإنمـــا هـــذا مِن سنن العرب ، فهي تظهر في كلامها الخبر وتجريه على الواحد بم

---

[١] – تفسير الطبري جـــ١٤ ص١٣٢ .

[٢] – المصدر السابق ، والصفحة ذاتها .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يشـــبه وجـــه الخبر عن الجماعة . وما يفهم مِن كلام الطبري أنّ الآية وما بعدها يمكـــن أنْ تحمل على وجهين ، هما حمل المفرد على الجمع ، وحَمْل الجمع على المفـــرد . والباحـــث يستحِبُّ الوجه الثاني على الأوّل ، ويرى أنّ كلمة المرسلين بمعـــنى المرسل ، بدليل قراءَة عبد الله [**فَلَمَّـــا جَاءَوا سُلَيْمَانَ**] على الجمع ، ولم يقـــرأ : [**فَلَمَّـــا جَاءَ سُلَيْمَانَ**] ؛ وذلك للفظ قوله [**بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**] . فيسير الكلام بذلك على وجه واحد ، فصلح الجمع للفظ ، والتوحيد للمعنى [1] .

وممّا عُبّر عنه بالجمْع والمراد به المفرد قوله جلّ ثناؤه [**... إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَـــةٍ مِـــنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ**] *(التوبة ٩/٦٦)* . فقد قال قتادة السّدوســـي (ت ١١٨هـــ) في هذه الآية : كان رجل منهم لا يُمالئُهُم في الحديث أي لا يوافقهـــم علـــى أقاويلهم في النبي محمّد صلى الله عليه وسلم ، وكان يسير مجانـــباً لهـــم. فسمّاه الله – جلّ ثناؤه – طائفة وهو يريد بالطائفة رجلاً واحداً [2] فربّما يكون ذلك من سبيل رفع شأن هذا الرجل . والله تعالى أعلم .

وممّـــا ورد بصـــيغة الجمع ، ويراد به الواحد قوله تعالى [**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ...**] *(المؤمنون ٢٣/٥١)* .

فهذا الخطاب أو النداء موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحدَه ؛ لأنّه لم يكـــن في زمنه رسول مِن الرسل الذين تقدّموه ، ولم يأتِ بعدَه رسول ، فهو خاتم الأنبـــياء والمرسلين . وهذا كقولهم للرجل الواحد في الكلام : أيُها القوم كفّوا عنّا أذاكم [3] .

ومن بليغ حمل الجمع على المفرد قوله تعالى [**وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ ...**] *(النور ٢٤/٢٢)* .

---

[1] – تفسير الطبري جـــ١٩ ص ٩٨ .

[2] – انظر : المرجع السابق جـــ١٤ ص ٣٣٦ . وانظر : الصاحبي ص ٣٤٩ وروايته تختلف قليلاً عن رواية الطبري . والبرهان في علوم القرآن جـــ٢ ص ٢٣٨ .

[3] – البرهان في علوم القرآن جـــ٢ ص ٢٣٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فقـد نزلـت هذه الآية في الصحابي الجليل أبي بكر الصديق (ت ١٣هـ) إذ أقسـم ألاّ يُنفق على مِسْطَح – وهو ابن خالته، مسكين مهاجر بدريّ – لمّا خاض فـي حديـث الإفك عن عائشة – رضي الله عنها – بعد أنْ كان يُنفق عليه فحرَمَهُ رفـده حـتّى نزلت هذه الآية ، فعاد أبو بكر إلى ما كان عليه مِن الإنفاق ، فقال : أولـو الفضـل ، ولم يقل : ذو الفضل ، أو صاحبُ الفضل إعلاءً لشأن أبي بكر . والله أعلم .

ومِـن بليغ حَمْل الجَمع على المثنّى قوله تعالى [**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ(٣١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**] *(الرحمن ٥٥/٣١-٣٢)* .

فقـد جـاء بضمير الجمع المخاطب في قوله " لكم " ، ثم أتبعَ الكلام بضمير المثـنى " ربكما " و " تكذبان " . ولم يقل " ربكم " و " تكذبون "؛ إذ جاء بلفظ التثنية والجمـع على المعنيين المذكورَيْن ، ووجه الكلام أنه أتى به على معنى المذكور أو ذلـك ، فـالمذكور هو الثقلان أو فريقا الإنس والجنّ ، وذلك أي غير المذكور هو أفراد ذيْنك الفريقين ، وهم جمْع [١] .

ويـرى الباحـث أنّ علـة الجمـع – مَعَ أنّ المخاطبين فريقان – هو تأثير السـياق ، فقـد جاء بعض الآيات بالجمع ، قال تعالى [**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسـتَطَعْتُم أَن تَنفُذُواْ مِن أَقْطَارِ السَمَاوَاتِ والأَرضِ ...**] *(الرحمن ٥٥/٣٣)* . فلم يقـل فـي الآيـة : " إن اسـتطعتما " كمـا قـال [**يُرسَـل علـيكما شواظ ...**] *(الرحمـن ٥٥/٣٥)* فثنّى في " عليكما " وفي " تنتصران " للفظ (على لفظ الثَّقَلين) والجمع على المعنى [٢] .

١- انظـر : ابـن الحاجـب. أبو عمر وعثمان بن عمر ت ٦٤٦هـ، أمالي ابن الحاجب تحقيق : فخر صالح قدارة ط١٩٨٩. دار الجيل ، بيروت – لبنان . جـ١ ص ٣٤٩

٢- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـ٣ ص ١١٦-١١٧ .

©Arabic Digital Library-Yarmouk University

أمّـا الشـكل الخامس من أشكال الحمل على المعنى فيتمثل في " حمل الثانـي علـى لفـظ قد يكون عليه الأوّل ، أصلاً كان ذلك اللفظ أو فرعاً " [1] . ويـندرج تحـت هـذا الأسلوب " العطف على التوهم " ، وهذه تسمية لم يرتضها بعـض الـنحاة ، والباحـث يتبنّى هذا الرأي ، فقد ذكَر في الفصل الأوّل أنّ لفظ الـتوهّم قبيح رديء ، والأحسنُ هجرُه والعزوف عنه ؛ إذ لا يليق بالقرآن الكريم الـذي هـو كلام الله ، أنْ يقال فيه مثل هذا ، فتعالى عنه علواً كبيراً ، وأرى أنْ نقـول : العطـف على المعنى المقدر . ولكنّي أستحسن هذا المصطلح في الشعر والنـثر ؛ لأنّ الـتوهّم أو الإيهام مِن سنن العرب " وهو أنْ يتوهّم أحدهم شيئاً ثمّ يجعل ذلك كالحق " [2] .

ومِـن بديـع هذا الضرب قوله تعالى **[قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ]** *(المؤمنون ٢٣/٨٦-٨٧)* .

فلقد جاءت هذه الآية محمولة على المعنى ، وحقّ الجواب أنْ يكون مجرّداً مـن لام المِلْـك ؛ لأنّ السـؤال عـن ربّ هـذه السماوات وربّ العرش العظيم فالأصـل فـي الكـلام أنْ يكون الجواب " الله " ، رداً على سؤال يبدأ بـ " مَن " ولكـن الجـواب جاء مقترناً باللام ، والسؤال غير مبدوء باللام . فلو كان السؤال باللام لكان الردّ أيضاً باللام .

ألا ترى أنّه إذا سألك سائل: مَن صاحب هذه الدار ؟! فقلت: هي لزيد ، فقد أجبـتَه بما يريد ؟ . وقولك زيدٌ ولزيدٍ سواء في المعنى [3]. ومعنى قول الفراء أنّ قوله تعالى **[مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ]** في معنى "لمن السماوات" [4]. ويرى الباحث أنّ

---

[1]- الخصائص جـ٢ ص ٤١١ .

[2]- الصاحبي ص ٣٧٧ .

[3]- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـ١ ص ١٧٠ .

[4]- انظـر : الكشاف جـ٣ ص ٢٠٢ وانظر : التبيان في إعراب القرآن جـ٢ ص ١٩٣ . وانظر : البحر المحيط جـ٦ ص ٣٨٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

حمـــل الآية على المعنى منوط بتأثير السياق ، فقد أجيب عن السؤال بإقحام اللام حتّى يسير الكلام على نسق واحد . وهذا أصل من أصول التوحيد في الألفاظ .

فقـد قـال عـزّ شأنه [**قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**] (*المؤمنون ٢٣/٨٤-٨٥*) . والملاحظ في الآية أنّ الجـواب فيها مقترن باللام ، وهذا هو الأصل في الكلام ، فجاء سائر الأجوبة على الصورة نفسها ، وإنْ لم توحّد الأسئلة في الغرض واللفظ .

ومـن هـذا الباب حَملُ اسم الفاعل على معنى الفعل في قوله تعالى [**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَانُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ**] *(الملك ٦٧/١٩)* .

فقـد عطـف في الآية " يقبضْنَ "على اسم الفاعل "صافّات" لما بينهما مِنَ المشـابهة [١] ، حَمْـلاً على المعنى. والتقدير: " يصففْنَ ويقبضْنَ " أو "صافّاتٍ " وقابضـاتٍ " [٢]. ويرى الباحثُ أنّ حملَ اسم الفاعل على معنى الفعل أفضل من حمـل الفعل على اسم الفاعل؛ لأنّ الفعل أصل، وردّ الفرع إلى الأصل أحسن مِن ردّ الأصل إلى الفرع .

ويذهب أبو حيّان الأندلسي إلى أنّ " مثل هذا العطف فصيح " [٣]. ولكنّ هذا الاختلاف بين المعطوف والمعطوف عليه يؤدّي هدفاً بالغاً ، فالصّفّ لغةً هو جعل الشـيء على خطّ مستوٍ [٤] ، والأكثر عند الطير هو صفّ أجنحتها دون تحريكها وهذا الثبات يُعبّر عنه بالاسم ، والقبض فيه حركة وتجدّد ، فعبّر عنه بالفعل [٥] .

١- انظر : التبيان في غريب إعراب القرآن جـ٢ ص ٤٥١.

٢- انظر : التبيان في إعراب القرآن جـ٢ ص ٤٢١ .

٣- البحر المحيط جـ٨ ص ٢٩٧ .

٤- انظر : المفردات في غريب القرآن . مادّة " صفف " .

٥- انظر : الكشاف جـ٤ ص ٥٨٥ والبحر المحيط جـ٨ ص ٢٩٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهذه الآية مثل قوله تعالى [**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ...**] *(الروم ٣٠/٤٦)* . فقد جاء اسم الفاعل " مبشّرات " المجموع جمعَ مؤنث سالماً منصوباً على الحال ، وعامله " أنْ يرسل " وقد عطف عليه الفعل " وليذيقكم " ، وحتى يحسُن العطف حُمل اسم الفاعل على معنى فعله ، فكأنّه قيل : ليبشّروكم .

ويرى الباحث أنّ اللفظتين وُضعتا موضعهما الملائم لهما قبل التقدير والتأويل ، فجيء باسم الفاعل الذي يفيد الثبات مع الرياح ، فحيثما تكن الرياح يكن الغيث وفي هذا النظام الكوني ثبات . وجيء بالفعل الذي يفيد التغيّر والتبدّل في سياق الرحمة ، فالرحمة تتغير وتتبدّل ، فإنّ لها في كلّ حال لبوساً ، فتارة تكون بكشف الضرّ ، وأخرى يراد بها الرزق والنعمة ، وثالثة يراد بها الهداية . وما أكثر معانيها ! .

ثمّ إنّ للسياق أثراً في حمل اسم الفاعل على معنى الفعل أو العكس ؛ لأنّه لولا وجود أحدهما ما كانت هناك حاجة إلى التأويل ، وبالتالي فإنّ تأثّر أحدهما بالآخر هو ضَرْب من إقامة المماثلة اللفظية والمعنوية بين الألفاظ في النصّ القرآني .

ومن بديع حمل اسم الفاعل على معنى المصدر قوله تعالى [**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ ...**] *(البقرة ٢/٢٤٥)* .

فقد نصب الفعل المضارع " يضاعفَه " بأنْ مضمرة بعد فاء السببيّة على جواب الاستفهام [1] ، ولكنّ النصب لا يجوز إلاّ إذا كان السؤال أو الاستفهام عن القرْض ، وهو اسم مصدر حلّ محلّ المصدر " إقراض " ، كقولهم : أيقرض زيد فيضاعفَه المدين ؟! فالنصب هنا هو الوجه ، ولا وجه للرفع ، ولكن الآية الكريمة

---

[1]- انظر : ابن شُقَيْر . أبو بكر بن الحسن ت ٣١٧هـ ، المحلّى " وجوه النصب ". تحقيق : فائز فارس ط١ سنة ١٩٨٧ مؤسسة الرسالة بيروت – لبنان . دار الأمل ، إربد – الأردن. ص ١٧٦

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تسأل عن المقرض ، وهو الذي يقوم بإقراض غيره ، لا عن الإقراض ، ومَعَ هذا نُصب الفعل .

لا بـــدّ مِـــن حَمْـــل الآية – أو الاستفهام تحديداً – على المعنى حتّى يزول الإشكال ، فقد جاز نصب الفعل ؛ لأنّ الاستفهام عن المقرض صار بمنزلة السؤال عن الإقراض ، فحُملَ المقرض على معنى الإقراض ، وبكلام آخر ، استوى اسم الفـــاعل والمصدر – ههنا – على المعنى دون اللفظ . فأصبح معنى الآية " مَنْ ذا الـــذي يكونُ منه قرضٌ فتضعيف من الله تعالى " [1]؛ إذ لا يحسُن أنْ يُجعل الفعل منصوباً على ظاهر اللفظ في جواب الاستفهام ؛ لأنّ القرض ليس مستفهماً عنه .

ولـــو أننا لم نراع المعنى في الآية واقتصرنا على لفظها – إذاً – لما جاز النصـــب علـــى جواب الاستفهام بالفاء ، والوجه هو الرفع . ألا ترى أنّ القراءة بالنصـــب قد وضعت المقرضَ والإقراض في مرتبة واحدة ، فلم يمسُّهُما هضم ؟! فســـئل عـــن المقرض ، وكان الجواب عن الإقراض ، فهما سيّان عند الله تبارك وتعالى .

إنّ نصب المضارع بعد الفاء على تقدير أنّ الاستفهام عنِ الإقراض لا عن المقـــرض متفق مع سياق الآيات ، فالأمر والحث يلفّان النصّ من أوّله إلى آخره كقوله تعالى [**حَافِـــظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الـــوُسْطَى...**] *(البقرة ٢/٢٣٨)* وقوله تعالى [**... وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...**] *(البقرة ٢/٢٤٤)*

فـــالله – عزّ شأنه – يذكر ما يُحبّ أنْ يفعله عباده المؤمنون ، فحضّ على الحفـــاظ علـــى الصلوات ، ولم يسأل عن الّذين يقومون بهذا ، وكذلك أمره الناس بالقـــتال ، فسأل عن الجهاد نفسه لا عن المجاهدين . فمن هنا لم يكن غريباً حمل الاستفهام عن المقرض على معنى الإقراض حتّى يتمّ التوافق . وتتوحّد المعاني .

.

---

[1] – البيان في غريب إعراب القرآن جـــ١ ص ١٦٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومـــن الآيات التي عطفت على المعنى قوله تعالى [وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْـــنِ لِـــي صَـــرْحًا لَعَلِّـــي أَبْلُـــغُ الأَسْبَابَ(٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى...] (غافر ٤٠/٣٦-٣٧) .

فقـــد قـــرأ حفص بنصب " فأطّلعَ" بأن مضمرة بعد فاء السببية ؛ لأنّه حمل "لعلّ" على معنى التمني ، فكأنّ " لعل " أشربت معنى " ليت " فهي تفيد – أصلاً – الترجي [١]. فوجه النصب على جواب التمني [٢] ، وعلى هذا يكون المعنى : متى بلغت الأسباب اطّلعت [٣] .

وقـــد فرق اللغويون بين التمني والترجي ، فقالوا : يكون التمني في الممكن والممتـــنع ، كقولهـــم : ليـــت الشباب يعود . ووجه التمني يستقيم هنا؛ لأنّ طلب فـــرعون من هامان بلوغ أسباب السماوات أمر مستحيل ممتنع، وهو بجهله اعتقد أنـــه على ذلك قادر ؛ لأنه يعتقد في الإله الجسمية والمكان، تعالى الله عن ذلك [٤] وذهـــب أحـــد الباحثيـــن المعاصـــرين إلى أنّ " لعل" ضُمّنت معنى نشدان الكمال الإنساني بتحقيق تلك المطلوبات الواردة في مضمون " لعل " وما بعدها [٥] ، بينما يختص الترجي بما يجوز وقوعه ؛ ولهذا لا يقال : لعلّ الشباب يعود .

أجاز البصريون أن تقع الفاء جواباً للتمني ، بينما ضعّفوا أو منعوا وقوعها جوابـــاً للترجي [٦] ، فراحوا يلتمسون للنصب وجوهاً وتسويغات . ولكنّ الكوفيين ومعهـــم ابن مالك (ت ٦٧٢هـــ) أجازوا أن يعامل الرجاء معاملة التمني فينصب جوابـــه المقـــرون بالفاء (وهو المضارع الواقع بعد فاء السببية كما نصب جواب

١- انظر : الكشاف جـــ٤ ص ١٧٢.

٢- الفراء . معاني القرآن جـــ٣ ص ٩ .

٣- النحاس . إعراب القرآن جـــ٤ ص٣٣.

٤- البرهان في علوم القرآن جـــ٤ ص ٣٩٤.

٥- انظر : زين كامل الخويسكي . لعل في القرآن الكريم ص ٦٧ ط١ سنة ١٩٨٩. دار المعرفة الجامعية . الإسكندرية – مصر .

٦ – انظر : درة الغواص ص ٦٧٩ . مغني اللبيب ص ٧١٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

التمنـــي) ، مســتندين إلى قراءة حفص لهذه الآية [1] وقراءَة عاصم [**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى(٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى**] *(عبس ٨٠/٣-٤)* .

وأشار ابن مالك إلى ذلك في الفيّته

والفعل بعد الفاء في الرجا نُصب كنصب ما إلى التمني ينتَسِبْ. (الرجز)

وثَـمَّ تـأويل آخر لقراءة النصب ، وهو العطف على المعنى المقدر . فخبر " لعـل " كثـيراً مـا يجيء مقروناً بأن . فمن قرأ بالنصب توهّم أنّ الفعل المرفوع الواقـع خبراً كان منصوباً بأنْ [2] حملاً على عسى. [3] ومعنى هذا أنّ الكلام يكون بعـد التخـيّل على هذه الصورة :(لعلّي أنْ أبلغَ الأسباب أسبابَ السماوات فأطّلعَ) فمن نصب توهّم " أن " في الكلام كما توهموا الباء في المعطوف من بيت زهير .

بـدا لـي أنّـي لَسْتُ مُدركَ ما مـضى

ولا سابـقٍ شـيـئاً إذا كـانَ جـائـيا (الطويل)

ومـن العطـف على المعنى قوله تعالى [**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**] *(هود ١١/٧١)* .

فقـد ذهب بعض النحاة إلى أنّ " يعقوب " منصوب على التوهّم ، فيقال في " يعقـوب " مـا قـيل فـي " إسحاق " ، فكما وهبها الله " إسحاق " يهبها من بعده " يعقوب " [4] وهو بهذا يذهب على طريقة مَن قال :

مشائـيم ليـسوا مُـصلـحـين عشـيرةً

ولا ناعبٍ ..... (الطويل)

---

[1]- انظر : مغني اللبيب ص ٢٠٦ .

[2]- البحر المحيط جـ٧ ص ٤٤٦.

[3]- انظر : مغني اللبيب ص ٣٧٩ .

[4]- انظر : الكشاف جـ٢ ص ٣٨٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومذهب سيبويه والفراء أحبّ إلى الباحث، وهو أنّ " يعقوب " في موضع نصب على المعنى، أي منصوب عطفاً على محلّ " بإسحاق". أو معطوف على " بإسحاق" وموضعه موضع نصب [1]، وهذه الآية من باب قولهم: "مررتُ بزيدٍ وعمْراً مررتُ به " فكأنهم قالوا " مررتُ زيداً " [2].

ويرى الكسائي أنّ " يعقوب " في موضع جرّ على المعنى، والفتحة فيه نيابة عن الكسرة ؛ لأنه ممنوع من الصرف .

والتقدير : وبشّرناها من وراء إسحاق بيعقوب [3] ، ولكنّ سيبويه ضعّف هذا الوجه ولم يُجزه ؛ لأنه لا يجوز الخفض إلا بإعادة الخافض. ألا ترى أنه يقبح قولهم : " مررتُ بزيد أوّل من أمس وأمس عمرو " ؟! وذلك لأنّك فرّقت بين المجرور وما يشركه وهو الواو كما تفرّق بين الجارّ والمجرور [4] .

والباحث – وإن كان يؤثر وجه النصب ؛ لأنّ المعنى يستقيم فيه دون إقحام حرف جرّ عليه ، ولو تقديراً – لا يَرُدُّ وجه الخفض ، " ومِنْ وراء إسحاق بيعقوب " بتقدير حرف جرّ على " يعقوب " ، وحروف الجرّ لا تعمل إلا ظاهرةً وترك التقدير أحسن من التقدير ما دام المعنيان يتحقّقان ، ثم إنّ القراءَة بالفتح في " يعقوب " منوطة بالنية ؛ لأنّ الخفض والنصب – ههنا – في النطق سواء . فكيف نستبيح لأنفسنا أن نضعّف قراءَة حمزة الزيات " (ت ١٥٦هـ) والكسائي [5] وإن عقدا نيّتهما على أنّ الفتح هنا يختصّ بالخفض دون النصب ؟ وما دام الله قد استأثر نفسه بالنيّات ، ولم يُطلع أحداً من خلقه عليها ، وجب علينا أنْ نُحسنَ الظنّ بأصحابها . وما بَالك إذا كان موطنَ الظنّ قارئا الكوفة ، ومن القراء السبعة ؟! .

---

[1]- انظر : الكتاب جـ١ ص ١٤٧ ، والفراء . معاني القرآن جـ٢ ص ٢٢ .

[2]- المصدر السابق ، والصفحة ذاتها .

[3]- انظر : الكسائي معاني القرآن ص ١٦٣ .

[4]- النحاس ، إعراب القرآن جـ٢ ص ٢٩٣ .

[5]- انظر : الفراء . معاني القرآن جـ٢ ص ٢٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويـــرى الباحث أيضاً أنّ الكوفيّين مصيبان في ما ذهبا إليه ؛ لأنّ الخفض فـــي الآية وجه صحيح يقبله السماع ، فقد ورد عن العرب أنّها تُعمل حرف الجرّ محذوفـــاً ، وقـــد أجاز ذلك يونس بن حبيب مستنداً في ذلك إلى سماعه رؤبة ابن العجاج (ت ١٤٥هـــ) يقول : خيرٍ والحمدُ للّه ، وهذا إجابة عن سؤال له : كيف حـــالك ؟! . وسيبويه لا يجيز إضمار حرف الجرّ ، ولو جاز ذلك لقلت : " زيدٍ تريد . مُرَّ بزيدٍ [1] .

ومـــن بديـــع الحمـــل على المعنى قوله تعالى **[وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمْ ...]** *(المائدة ٥/١٢)*

وقال **[وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ...]** *(المائدة ٥/١٤)*

فلقد وردت الآية الثانية معطوفة على الأولى ، وإن طال الفصلُ في الكلام بيـــن الآيتين [2] . وربّما يسأل سائل : كيف جاز عطف **[وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا ...]** على قوله **[وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ]** ؟! .

إنّ الإجابة عن مثل هذا السؤال تكون بحمل الآية الأولى على معنى الثانية لأن قوله **[أَخَـــذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِـــي إِسْرَائِـــيلَ]** بمعنى ((وأخذ الله ميثاقاً من بني إسرائيل)) .

فجـــاء قوله بناءً على المعنى في الآيـــة الثانية **[وَمِنَ الَّـــذِينَ قَالُـــوا إِنَّـــا نَصَارَى ...]** [3] ؛ إذ لا يجوز حمل الآية الثانية على الأولى ، فلو فعلنا لحذفنا من الآية حرف الجرّ " من "، وفي ذلك طمس للمعنى وذهاب به .

فانظـــر كـــيف يكون استنادنا إلى السياق وتعويلنا على نصّ الآيات لتأتلف المعاني وتتشاكل الألفاظ ! .

---

[1]- الكتاب جـــ١ ص ١٤٩ .

[2]- انظر : البحر المحيط جـــ٣ ص٤٦٢.

[3]- انظر : الزجاج . إعراب القرآن جـــ٢ ص ٦١٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومما يُعَدّ من " الالتفات إلى المعنى في المحمول عليه ، وملاحظة وقوع هذا المعنى في الثاني المحمول " العطف على الموضع أو المحلّ ؛ لأنّ الكلام عن المعطوف كان يمكن أنْ يردّ على صورة المعطوف عليه أو أنْ يُصرف إلى معناه.

وقد ربط النحاة بين العطف على التوهم ، والعطف على الموضع وخلصوا إلى أنّه يمكن إرجاعهما إلى أسلوب الحمل على المعنى [1] .

اشترط النحاة شروطاً وضوابط لصحة الأخذ بهذا الأسلوب ، وحدّدها أبو حيّان الأندلسيّ في ثلاثة شروط :

١- أن يكون للاسم لفظ وموضع

٢- أنْ يكون هناك محرز للموضع .

٣- أن يكون الموضع بحقّ الأصالة [2] .

ومن هذا القبيل قوله عزّ شأنه [**... جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**] *(الحج ٢٢/٢٣)* .

نلاحظ في الآية أنّ كلمة " لؤلؤاً " معطوفة على " أساورَ "، فحقّها – إذاً – أنْ تأخذ حركتها ، والفتحة التي في " أساور " إنّما هي نيابة عن الكسرة ؛ لأنها جمع تكسير ، على صيغة منتهى الجموع " أفاعل "، فمنعت من الصرف .

والنصب في " لؤلؤاً " هو عطف على محل " من أساور " [3] ، وهذا رأي يرتضيه الباحث ؛ لأنّ قوله [**يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ...**] حمل على معنى [**يُحَلَّوْنَ فِيهَا أَسَاوِرَ**] أي على موضع الجار والمجرور ، فموضعهما موضع

١- انظر : حاشية الصبّان جـ٢ ص ١٥٨ .

٢- أبو حيان الأندلسي ، ارتشاف الضرب من لسان العرب. تحقيق : مصطفى النماس . ط١ سنة ١٩٨٤ مطبعة النسر الذهبي . جـ٢ ص ١٦٠

٣- انظر : البيان في غريب إعراب القرآن جـ٢ ص ١٧٢ ، وانظر : التبيان في إعراب القرآن جـ٢ ص١٧٥. والبحر المحيط جـ٦ ص ٥٩٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

نصب . وهذا كقولهم : " مررتُ بزيدٍ وعمراً " [1] ولستُ أويد مَن قال : إنّ حرف الجرّ " مِن" يفيد – هنا – التبعيض كأبي حيّان الأندلسي[2]، وإنما هو لبيان الجنس، فعطاء الله أصحابَ الجنّة غير ممنون أو محظور، فكيف يُعطَوْنَ قليلاً ؟! .

ومـــا يقوّي ما ذهبوا إليه في أنّ قوله " مِن أساور " بمعنى " أساور " ، هو ســـياق القـــرآن الكريم ، فقد جاء بهذا المعنى ، قال تعالى [... **وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ** ...] *(الإنسان ٧٦/٢١)* وقد يكون قوله " لؤلؤا " منصوباً بفعل محذوف يفهم مـــن سياق الآية ، مثل : " يُعطوْنَ لؤلؤاً " [3] ، فإنّ الذي كانت الأساورُ حليتَه كان اللؤلؤ عطاءَه .

ومن العطف على الموضع قوله تعالى [**تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا**] *(الفرقان ٢٥/١٠)*

فقد جزم الفعل المضارع " يجعلْ " عطفاً على محلّ الفعل " جعل "، فهو في معـــنى الجزم [4]، وحَسُن أنْ يُعطف المستقبل على الماضي لفظاً ؛ لأنّه في معنى المســـتقبل، فإنِ الشرطية تقلب الفعل الماضي إلى معنى الاستقبال.[5] وليس الفعل "يجعـــلْ" معطوفاً على موضع " إنْ شاء " كما ذهب إلى ذلك أبو زرعة [6] لأنّ " يجعـــلْ " معطـــوف علـــى جواب الشرط (جعل لك)، لا على فعل الشرط (شاء). ومعـــنى الآية:" إنْ يشأ يجعلْ لك جناتٍ ويجعلْ لك قصوراً " [7] والعطف – هنا – فقـــط علـــى جواب الشرط ؛ لأنّ فعل الشرط وجوابه قد تمّ ذكرهما، فكان العطف

١- انظر : أبو زرعة . حجة القراءات ص ٥٩٣ .

٢- انظر : البحر المحيط جـــ٦ ص ٣٣٥ .

٣- البيان في غريب إعراب القرآن جـــ٢ ص ١٧٢ . التبيان في إعراب القرآن جـــ٢ ص ١٧٥ .

٤- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـــ٢ ص٢٦٣.

٥- انظر : البيان في غريب إعراب القرآن جـــ٢ ص ٢٠٢ .

٦- أبو زرعة . حجة القراءات ص ٥٠٨ .

٧- البحر المحيط جـــ٦ ص ٤٤٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

علـــى الجـــواب أحقّ ، ولو أنّ الجواب لم يتمّ ذكره لكان العطف على فعل الشرط واجباً .

ولا بـــدّ من الإشارة إلى أنّ السياق هو الدافع إلى الحمل على المعنى ، فلأنّ المعطـــوف جاء فعلاً مضارعاً ، فلم يكن بدّ من حمل المعطوف عليه على معنى ما يضارعه .

ومـــن الحمـــل علـــى الموضع ما جاء في قوله تعالى [... مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ...] (*الأعراف ٧/٥٩*) .

أجمـــع الـــنحاة على أنّ " غيره " في الآية صفة أو بدل مرفوع على موضع "مِـــن إله " ، لأنّ موضعَه الرفعُ ، فمعنى " من إلهٍ " هو " إله "، وكأنه قال : ما لكم إلـــه غيرُه ؛ لأن " من " زائدة لتحقق الشروط الثلاثة التي ذكرتْها المطوّلات النحوية وهـــي :أن تدخـــل على نكرة ، وأنْ يراد بالنكرة استغراق الجنس ، وأنْ تكون بعد غـــير الواجـــب ، أي في سياق نفي . وهي – وإنْ قالوا زائدة – تفيد التوكيد . ألا ترى أنّ لفظ الزيادة يوحي بالحشو والفضلة ؟.

والقـــرآن فـــوق كـــلّ هذا ، مُبَرأ منه . فقوله " من إله " ينفي جنس الآلهة ، فهـــي كثيرة في أصنافها ، فهناك أصنام وأوثان ، وشمس وقمر ، وطواغيت عُبدت مِـــن دون الله ، فدخول حرف الجرّ نفى كلّ ما ينضوي تحت جنس الآلهة ، ويبقى وجه ربّنا لا نشرك به أحداً .

ويقـــول النحاة في ما يقولون عن الحرف الزائد إنّه يكسب الكلام الذي يحلّ فيه فضل توكيد .

يقـــول علـــي الـــنجدي ناصف – معقّباً على إهمال النحاة الذين لا يتتبّعون بالبـــيان معانـــي التوكـــيد التي يفيدها هذا الحرف في مواقعه من أساليب الكلام مع تـــنوّعها واخـــتلاف مراميها – ((ولا أدري كيف يُترك التوكيد الذي يفيده الحرف

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الــزائد هكذا على حاله من العموم والإبهام ، كأنّ ليــس له سوى معنى واحد يؤدّيه ولا يحيد عنه في كلّ مقام)) [1] .

إنّ الــرفع في " غيره " دلنا على أنّ الآية محمولة على المعنى [2] ، وهو في موضــع " إلا " فتقول : مالكم مِن إله إلا الله . وما لكم إله غيرُ الله [3] ، وإنّما رفع " إلــه " ؛ لأنــنا نزعــنا منه الجارّ [4] . وإذا كانت كلمة " غير " بمعنى " إلا " كان إعــرابها كإعراب ما بعد " إلا ". وهذه الآية من قبيل قولهم : " ما أتاني مِن أحدٍ إلا زيد " ، فإعراب " غيره " في الآية كإعراب زيد [5].

ومــنَ العطــف على الموضع ما جاء في قوله تعالى [**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**] *(سبأ ٣٤/١٠)* .

فقــد وردت كلمة " والطير " منصوبة على محلّ " الجبال "، ويرى الخليل أنّ مَــنْ قــال : " يا زيدُ والنضرَ " فإنّما نصبَ ؛ لأنّ هذا كان من المواضع التي يُردّ فيها الشيء إلى أصله [6] .

ومعــنى كــلام الخليل أنّ الأصل في كلمة " جبال " هو النصب ، وموضعها موضــع النصــب . ألا ترى أنّ البناء على الضمّ صرفها عن ذلك ؟! ، فهي مبنية على الضمّ ، ولكن في محلّ نصب بفعل النداء المحذوف ، وتقديره " أدعو " .

---

[1]- ناصف علي النجدي . بحث " من أسرار الزيادة في القرآن الكريم " مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٧٨. جـ٤١ ص ٥٧

[2]- انظر : الزجاج ، إعراب القرآن جـ٢ ص٦١٨.

[3]- انظر : النحاس ، إعراب القرآن جـ٢ ص ١٣٤ .

[4]- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـ١ ص ٣٨٢، والإنصاف في مسائل الخلاف جـ١ ص ٣٠٦ والبحر المحيط جـ٤ ص ٣٢٤ .

[5]- انظر : الكتاب جـ٢ ص ٣٢٧ .

[6]- المصدر السابق جـ٢ ص١٨٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقـول سـيبويه إنّ أكـثر العرب يقولون : يازيدُ والنضرُ مراعاة للفظ لا للمحـلّ [1] . ولـم يقـف الخـلاف عند هذا الحدّ ، بل امتدّ إلى مسألة أخرى ، فقد اخـتلفوا في وصف المنادى ، فمنهم مَن أجاز الوجهيْن دون ترجيح ، فقال : يا تميمُ أجمعون ، وإنْ شئت قلت : أجمعين [2] ، وإنما أجازوا الوجهين دون ترجيح ؛ لأنّ العرب تحمل على المعنى كما تحمل على اللفظ .

وذهـب أبو عمرو بن العلاء إلى أنّ كلمة " الطير " في الآية منصوبة بفعل تقديره : سخّرنا . أي : وسخّرنا له الطيرَ [3] .

وجعـل الفـراء الآيـة مِن قبيل قولهم : علفتُها تبناً وماءً بارداً ، أو أطعمتُه طعاماً وماءً [4] .

وأسـتطيع أن أوجز العطف على الموضع فأقول: هو أنْ تُشرك بين الخبرين أي بيـن المعطـوف والمعطـوف عليه. فأنْ تعطف على موضع ما تمّ ذكره جائز صـحيح في العربيّة بدليل قول سيبويه : " وليس ينقض إجراؤه عليه المعنى ، وأن يكون آخره على أوّله أولى " [5] .

أمّـا الفصـيلة النحوية الأخيرة فتتمثّل في مراعاة المعنى في الألفاظ المبهمة وفي الجموع .

ومِـن الألفاظ المبهمة كلا ، كلتا ، كلّ ، كم ، مَن ، ما ، أيّ ، بعض ، غير ومثل .

---

[1]- المصدر السابق والصفحة ذاتها .

[2]- انظـر : ابـن جنـي ، اللمـع في العربية تحقيق : فائز فارس ط٢ سنة ١٩٩٠. دار الأمل – الأردن . ص ١٧٣

[3]- النحاس . إعراب القرآن جـ٣ ص ٣٣٤.

[4]- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـ٢ ص ٣٥٥.

[5] - الكتاب جـ١ ص ١١٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يقــول أبو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨هـــ) : اعلم أنّ "مَن " و "ما" لهما لفظ ومعــنى، والألفــاظ الجارية عليهما يحقّ أن تكون محمولة على لفظهما ومعناهما[١] فــإذا جــرى الكلام على لفظهما كان مذكراً موحّداً كقولك : مَنْ قام ؟! سواء أردتَ واحــداً أم اثنيــن أم جماعــة مــن مذكر ومؤنث ، ويجوز أن يحمل الكلام على معــناهما : فــتقول : مَن قامَت إذا أردتَ مؤنثاً [٢] . والحملُ على المعنى في سياق الحديــث عــن المؤنث أعلى – في أغلب ظنّي – درءاً للّبس ، فلا يظنّنّ سامع إذا ســمعك تقول : مَنْ تكلّم ؟! – في حالة الحمل على اللفظ – أنّك تريد رجلاً ، وأنت قــد ســمعتَ صوت المتكلّم ، وتيقّنتَ أنّه صوت امرأة. فالأولى – هنا – أنْ تقول : مَنْ تكلمت ؟!.

أمّــا لفــظ " كلــتا " فقــد قال الكوفيون : إنّه تثنية ، وجعلوا الواحد " كلْت " والتثنــية " كلــتا ". ويقــول البصريون: بل هو واحد وخطّأوا الكوفيين مستشهدين بالآيــة [كِلْــتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا...] (*الكهف ١٨/٣٣*) [٣] فكلا وكلتا، كلّ واحد منهما مثنى معنى مفرد لفظاً مضافان أبداً لفظاً ومعنى إلى كلمة واحدة معرفة [٤] .

ورد قســم من هذه الألفاظ في التنزيل العزيز بالوجهين ، وممّا جاء محمولاً علــى المعــنى ، لفظــة " كــلّ" . قال تعالى[وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ] *(النمل ٢٧/٨٧)*

فقــد حُمــل لفظ " كلّ" على المعنى [٥] ، فجاءت الحالُ منه جمع مذكرٍ سالماً وقد استحسن المبرّد حمل "كلّ " على المعنى هنا وجعله وجهاً جيداً ليس ببعيد [٦].

١- الســيرافي أبــو سعيد ، الحسن بن عبد الله بن المرزبان ، شرح كتاب سيبويه تحقيق : رمضان عبد التواب ط١٩٩٠ . مركز تحقيق التراث . الهيئة المصرية العامة للكتاب . جــ٢ ص ٣٨٤

٢- انظر : المخصص جــ١٧ ص ٧٥.

٣- انظر : " ليس في كلام العرب " ص ٣٣٨ .

٤- مفتاح العلوم ص ١٥٢ والإتقان في علوم القرآن جــ١ ص ٦٠٤.

٥- انظر : الكشاف جــ٣ ص ٣٩٢.

٦- انظر : المقتضب جــ٢ ص ٢٩٨. والإنصاف في مسائل الخلاف جــ١ ص ٣٩٩.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وذهب ابن الحاجب إلى أنّ المضاف إذا لم يذكر مَعَ " كل " ، فالإخبار بالجمع، وإلاّ كان بالمفرد .كقوله [**وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا**] *(مريم ١٩/٩٥)* وسرّ ذلك هو أنّه إذا لم يذكر مضاف " كلّ " معها " أرادوا أنْ ينبهوا على ذلك بخصوصية اللفظ الدال على الجمع وإنْ كانت كلّ تُشعر بذلك " [١]. ويرى النحاة أنّ " كل " إذا أضيفت إلى جمع مُنكّر وجبت مراعاة المعنى حتى يتطابق ما أضيفت إليه في عود ضمير وغيره، [٢] كقوله تعالى [... **عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ**] *(البقرة ٢/٦٠)* . ويرى الباحث أنّ حمل " كل " على المعنى ، إنما هو مراعاة للسياق ، فسياق الآيات يتحدث عن يوم البعث والنشور ، وعن فزع الناس والملائكة ، ومن ثَمّ كان استعمال الجمع أحسنَ في النظم والترتيب، كذلك فإنّ يوم البعث والرجوع إلى الله ، يكون فيه الناس كُثْراً كأنّهم جراد منتشر ، فالمقام والسياق الملائمان لهذا الكلام هو الإتيان بالجمع – وإن كان لفظ "كل " مفرداً – لأن مشهدَ الصّغار والضّعَة في الكثرة أبلغ منه في القلّة .

ومن بليغ الحمل على المعنى قوله تعالى [**وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا**] *(الإسراء ١٧/١٩)* . فقد جاء فعل الشرط مفرداً مذكّرا ، ولكنّ الجواب وقع جمعاً في اسم الإشارة " أولئك " ، والذي أراه أنّ فعل الشرط حُمل على لفظ " مَنْ " فجاء مفرداً ، وحُمل جواب الشرط على معنى "مَن"، فجاءت الجملة الاسمية جمعاً، وحُملت "مَن" على المعنى – ههنا – مراعاة لسياق الآيات ، فإنّ الذين يريدون ثواب الله ويُؤثرون الآخرة على الدنيا، ويَسْعَوْنَ السّعي المُعد للفوز بها هم فريق ، بدليل قوله تعالى [**كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**] *(الإسراء ١٧/٢٠)*

١- أمالي ابن الحاجب جـ٢ ص٧٨١.

٢- انظر : البحر المحيط جـ١ ص ٣٩١- ٣٩٢.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد أفلح إبراهيم السامرائي في شرح علّة مجيء الجواب جمعاً مع أنّ فعل الشرط مفرد ، إذ رأى أنّ الذي يكدّ ويسعى طلباً للآخرة هو مِن طائفة الذين يُشكر سعيُهم [1]. ولكنّ قلمه سرعان ما انزلق به إلى العثار فقال : " فليس لأحدٍ أنْ يطلب مجيء جواب الشرط مناسباً لفعله إفراداً وجمعاً " [2] . ويرى الباحث أنّ السامرائي – رحمه الله – أنسي أنّ الإتيان باسم الإشارة " أولئك " إنّما هو مراعاة لمعنى " مَن " [3] ، وكلام السامرائي يصبح صحيحاً لو أنه اشترط له شرطاً ، كأنْ يقول : "... إنْ كانت أداة الشرط تُحملُ على اللفظ والمعنى". ولمّا لم يضع لكلامه شرطاً أصبح مردوداً ، فلم نجد في المطوّلات النحويّة أو أمّهات كتب اللغة أحداً منَ النحاة يقول : إنْ تدرس تنجحوا . وإنْ كان أحدهم أجاز ذلك فعلى تعسُّف في القول وتمحُّل في التأويل ، وبالتالي لا يجوز القياس على ذلك – كما يريد السامرائي – لأنّ هذه أنماط مِن النادر أو الشاذ .

ومثل هذه الآية كثير مِن الآيات التي روعي فيها الوجهان ، كقوله تعالى **[وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا]** *(الأحزاب ٣٣/٣١)* .

فحُمل الفعل "يقنت" على اللفظ ، وحُمل الفعل " تعمل" على معنى " مَن". [4] وإني أورد هذه الآيات رداً على الذين يَرَوْن أنّ الحمل على اللفظ أقوى ، كابن جني، ولو أنهُم قالوا : الحمل على اللفظ أكثر في لسان العرب من الحمل على المعنى– والكثرة ليست مقياساً للفصاحة – لكانوا أدنى منَ الحق وأبعدَ مِنَ الجوْر، وإني لأظنّ أنّ ابن جني تأثر– في رأيه هذا – بكلام إمام نحاة الكوفة ثعلب الذي

---

[1]– انظر : " من سعة العربية " ص ١٤١ .

[2]– المرجع السابق ، والصفحة ذاتها .

[3]– انظر : البحر المحيط جـ٦ ص ١٩.

[4]– انظر : التبيان في إعراب القرآن جـ٢ ص ٢٧٥.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

كان يستحسن جعل الكلام على وجه واحد. فحاجّه في ذلك الزجاج، وألزمه الحجّة فذكر له الآية المذكورة آنفاً، وقال: كلّ جيد ، أي الحمل على اللفظ والمعنى [1] .

ويرى الباحث أنّه علينا أنْ ننكّبَ عن المفاضلة بين الوجهين ، فليس أحدهما بأولى من صاحبه ؛ لأنّ الوجهيْن وردا في القرآن ، وكلّ ما ورد في القرآن حجّة يؤخذ جملةً .

ومـــن الألفاظ المبهمة التي حُملت على المعنى ، " كم " . قال تعالى [**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**] *(الشعراء ٢٦/٧)* .

إنّ للفظـــة " كم " موضعيْن ، أحدهما ، الاستفهام ، فيستفهم بـــ " كم " وهي بمـــنزلة " كـــيف " و " أين " [2] . وثانيهما الخبر ، ومعناها معنى " ربّ " ، فتفيد الكثرة [3] . وتحمل " كم " تارة على المعنى وأخرى على اللفظ ، كما تمت الإشارة إلى ذلك ، وأينما وقعت " كم " فإنّ لفظها مفرد مذكر ، ولكنّ مدلولها الذي يصدق علـــيه معناها قد يكون غير ذلك ، فيجوز عودة الضمير عليها إمّا مفرداً مذكراً ، مراعاة للفظها ، وإمّا مطابقاً للمعنى المراد منها ، وأحَبّ الوجهيْن إلى الباحث هو مراعاة المعنى الذي يحدّده تمييزها، نحو: كم ملوكٍ في حكمهم ظلموا ! " فكم " هنا محمولة على المعنى ؛ لذلك عاد الضمير " هم " جمعاً لا إفراداً .

وفـــي الآيـــة الكريمة حُملت "كم" على المعنى، والدليل على ذلك ما يؤديه معنى "كلّ" في الآية، فهو يدل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل [4] والـــتعدد . وفـــي موضع آخر من التنزيل العزيز يقول تبارك وتعالى [**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**] *(ق ٥٠/٧)*. وتفيد " كـــم " في الآية " أنّ هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة ". فمن هنا جاز الجمع بين

١- انظر : المزهر في علوم اللغة وأنواعها جـــ١ ص٢٠٣.

٢- انظر : الكتاب جـــ٢ ص ١٥٩ .

٣- انظر : مغني اللبيب ص ٢٤٣.

٤- الكشاف جـــ٣ ص ٣٠٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

" كـم " و " كـل " ؛ لأنّ اللفظتين حُملتا على المعنى ، وليس من المنطق في شيء أن تحمل إحداهما على اللفظ ، وأخراهما على المعنى ؛ إذ لا يصحّ الجمع بالتنافر.

أمّـا المقصـود بـالجموع فهي الألفاظ المصوغة باللفظ المفرد ، ولكنها تدلّ علـى مجموعـة ، ويـندرج تحت الجموع أسماء الجموع كالقوم والرّهط ، والقرن والشرذمة ، والطائفة ، والملأ ، والفريق .

وقـد ورد بعـض هـذه الألفاظ في القرآن كقوله جلّ ثناؤه [**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِـي رَبِّهِـمْ فَالَّذِيـنَ كَفَـرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ**] *(الحج ٢٢/١٩)* .

إنّ المثـنى " خصـمان " مـن بـاب " مـا لفُظ به ممّا هو مثنّى كما لفظ بـالجمع " [١]. والأصـل فـي الكلام أنْ يُقال " اختصما " ، مطابقة في التثنية بين الوصـف والموصوف ، ولكن الخصم في الآية حُملَ على معنى الفريق ، والفريق فيه أشخاص [٢]. أو حُمل على الجمع ، ولو حُمل على اللفظ لقال اختصما.

والخصـم يطلـق علـى الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث [٣]. وقد ذهـب بعض الباحثين المعاصرين إلى أنّ المقصود بذينك الخصمين هو تلك الفرق المتـنازعة والملـل المتـنافرة المخـتلفة التـي جـاء ذكرها في سياق الآيات [٤]. كالصـابئين والنصارى والمشركين والمؤمنين ، فمن هنا ، كان الجمع على المعنى يلائم السياق .

١- الكتاب جـ٤ ص ٩٨ .

٢- انظر : التبيان في إعراب القرآن جـ٢ ص ١٧٥.

٣- انظـر : الأخفـش ، معانـي القرآن جـ٢ ص ٤١٤ . وانظر : الفيومي ، أحمد بن محمد بن علي المقري ت ٧٧٠هـ ، المصباح المنير .. المكتبة العلمية ، بيروت – لبنان . مادة " خصم "

٤- انظر : أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ص ١٢٥.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قال تعالى [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] *(الحج ٢٢/١٧)*

ومن تلك الجموع ، " طائفة ". قال تعالى [وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا...] *(الحجرات ٤٩/٩)*

فقد قال في الآية " اقتتلوا " ولم يقل " اقتتلتا " وهو الأصل ؛ ذلك أن الطائفتين مثنى .

والطائفة من الناس هي الجماعة منهم ، فحَسُنَ حملُها على المعنى ، وفي الآية يراد بها الجمع ، ويكون مفردها طائفاً. ولو روعي اللفظ في " طائفة " وعوملت معاملة المفرد ، لكانت كراوية [١] .

ويرى الباحث أنّ حمل هذه اللفظة على الجمع ؛ لأنّها مصدر بمعنى طيف [٢]، والمصادر – كما ذكرت سابقاً – تدلّ على الكثرة ، وإن كانت مفردة [٣] ولذلك عاد الضمير عليها جمعاً لا مثنى [٤]. كما أنّ لغة الجمع تغلب على سياق الآيات ، كذكرِ المؤمنين ، والراشدين ، والظالمين ، وغيرهم ، وما مِن عجبٍ في أنْ نجد أنّ الاقتتال بين الناس يترتب عليه تشتُّت الكلمة وتفرّق الصفوف ، وتكون الآراء بين أفول وشروق ، فكان الجمع أنسب في التصوير وأبلغ في التعبير .

١- انظر : المفردات في غريب القرآن . مادة " طوف " .

٢- انظر : تفسير الطبري جـ١٢ ص ٤٨٩.

٣- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـ٢ ص ٢٦٣.

٤- انظر : أبو علي الفارسي . البغداديات ص ٤٤٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومـــثل ذلـــك لفظ " فئة " بمعنى ناس أو أقوام [1] . قال تعالى [فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِـــدَارِهِ الأَرْضَ فَـــمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصـــرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَـــا كَانَ مـــنَ المُنْتَصِرِينَ] (القصص ٨١/٢٨)

فقـــد جمـــع الضمير في " ينصرونه " على المعنى دون اللفظ ؛ لأنّ " فئة " لفظهـــا مفرد ومعناها جمع من الرجال [2] ، أو هي الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضـــهم إلـــى بعـــض في التعاضُد [3] ، وهذا الالتحام والتماسك بين رجال الفئة الواحدة يصلح له فعل الجمع ؛

فلذلـــك قـــال " ينصرونه "، ولم يقل " تنصره " حَمْلاً على اللفظ ، والفعل " تنصـــر" لا يؤدّي ما تؤديه الجملة الفعلية " ينصرونه "، المكونة من الفعل " ينصر" والفـــاعل " واو الجماعة " الذي يَعود على أفراد الفئة ، والمفعول به " الهاء" يَعود على " قارون " .

فالصـــورة العددية في " ينصرونه " أقوى منها في " تنصره " ، فإنّ الأولى توحـــي بأنّها أعزّ نفراً مِنَ الثانية ، وهذا يناسب السياق الذي يتطلّب الجمع هنا ، فتقوى الدلالة به ؛ إذ لا معاضدة إلاّ في الكثرة ، ثمّ إنّ العجز عن النصرة إذا كان مِـــن الفـــئة القوية أو الكثيرة ، انصرف العقل إلى قوّة الذي خسف بقارون وبداره الأرض ، وهـــو الله القوي العزيز. ألا ترى أنّه كلما كان بطش الفئة أكبر والعدد أكثر كانت قوّة المنتصر أعظم ؟! وسياق الآية غرضه الكشف عن قوّة الله وقدرته علـــى الانتقام من المتكبّرين ، أمّا إذا كان العجز عنِ النّصرة مِن فئة قليلة العدد لمْ تَرق إلى درجة المناصرة والإغاثة، ومن ثَم، لا وجه للمحاولة والانتصار له، ولا تلبية لصريخه .

---

[1]- انظر : النحاس ، إعراب القرآن جـــ٢ ص ٤٥٨ .

[2]- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـــ٢ ص ١٤٥.

[3]- انظر : المفردات في غريب القرآن . مادة " فيأ " .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كذلــك فــإنّ الجملة الفعلية " ينصرونه " تناسب رأس الآية أكثر من الجملة الفعلية " تنصره " .

* ينصرونه	* " المنتصرين "
– الفاعل يدل على الجمع	– اســم فاعل من الخماسيّ " انتصر " ، وقد جُمع جمعَ مذكرٍ سالماً .

فاللفظان جاءا جمعين ، وهذا ضرب منَ المشاكلة اللفظية .

ومــن بديــع الحمل على المعنى قوله تعالى [**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَــارَ تَجْــرِي مِــنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ**] *(الأنعام ٦/ ٦)*

يقــول الفــراء إنّ القَــرنَ ثمانون سنة ، وقد قال بعضهم سبعون سنة [١] . ولكــنّ الباحث يرى أنّ المعنى الأشيع بين اللغويّين والنحاة هو مئة سنة [٢] ، وليس قــول الفراء – كما توهمُ عبارتُه – أنّ القَرن هو الزّمن ذاته صحيحاً ، ولكنّه بمعنى الأمّــة أو القــوم المقترنيــن في زمن واحد وقد مرّ على ذريّتهم مئة عام ، والجمع قرون [٣] .

والقــرن – فــي الآية – جُمعَ حَمْلاً على المعنى ؛ ولذلك جاءت الصفة جمعَ مذكر سالماً " بالياء والنون " في حالة النصب .

ويجــوز أنْ نقول : قرْن آخر ، ولكنّ الحمل على المعنى أفصحُ هنا وأعلى مراعاةً لشيئين :

١- الفراء ، معاني القرآن جـ١ ص ٣٢٨.

٢- انظر : تاج العروس . مادّة " قرن " .

٣- انظر : المفردات في غريب القرآن . مادة " قرن " .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الفاصلة [1] ، والسياق ، فقد بدا الجمع واضحاً في سياق الآية كقوله : " يَرَوْا " ، أهلكنا ، قبلهم ، مكنّاهم ، نمكّن ، لكم ... .

و" كم " في الآية خبرية بمعنى كثيراً. من هنا، كان الحمل على معنى " قَرْن " أحسن منَ الحمل على اللفظ .

ومنْ بليغ قوله تعالى في حمل لفظة " شرذمة " على المعنى [إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ] (*الشعراء ٢٦/٥٤*) .

فقد جاءت الصفة " قليلون " مجموعة جمع مذكر سالماً معَ أنّ الموصوف مؤنث ، فحملت الشرذمة على المعنى، وهي الجماعة المنقطعة، من قولهم : ثوب شراذم أي متقطع [2] .

وإنْ جعلنا الشرذمة بمعنى الجماعة ، فإنّ العقبة الكأداء ما زالت تعترضنا فلِمَ لم يقل – إذاً – لشرذمة قليلة كما قال في مواضع أخرى : فئة قليلة ؟! ولكن علينا أنْ ننتبه إلى أنّ لنفظ " قليلون " خصيصة دلالية فريدة ولمحة بيانية دقيقة، ولا أظنّ أنّ ثمّ لفظاً آخر من الألفاظ المناظرة له يفي بالمعنى، أو يقوم مقامه، لأن هذا أمر ينطبق تماماً على بني إسرائيل حين كانوا بمصر جماعة غريبة معزولة عن أهل البلاد ، و " قليلون " فيه مطابقة بين الوصف والموصوف ، فشرذمة جمع في المعنى ، و " قليلون " جمع.[3] ويذهب الباحث إلى أنّ الشرذمة في الآية تعني أفراد الجماعة ، فحُمل هؤلاء الأفراد على الجمع المذكر ، وإنْ كان فيهم عدد من النساء ، إلاّ أنّ التذكير غُلّبَ في الكلام ، وهذا من طرائق العرب في كلامها وسننها ، ثمّ إنّ الشرذمة تعني القلة ، وجمع السلامة يؤدي معنى القلّة [4] . والقلّة

---

[1]- البحر المحيط جـ٤ ص ٨٢.

[2]- المفردات في غريب القرآن . مادة " شرذم " .

[3]- انظر : المرطغني عبد العظيم إبراهيم محمد ، مناهج تطبيقية في توظيف اللغة ط١ سنة ١٩٩٦ . مكتبة وهبة . ص ٥٥

[4]- انظر : الكشاف جـ٣ ص ٣٢٠ . والبحر المحيط جـ٧ ص ١٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تلزم جميعهم في المعنى ؛ [1] لأنّ الذين خرجوا مع موسى – عليه السلام – كانوا أحـزاباً فجمع ؛ ليكون كلّ حزب قليلاً ، كما " أنّ جمع الصفة والموصوف منفرد قد يكون مبالغةً في لصوق ذلك الوصف بالموصوف وتناهيه فيه بالنسبة إلى غيره مـن الموصـوفين بـه " [2]. أي أنّ قوله " شرذمة قليلون " أقلّ عدداً من قولنا : شرذمة قليلة .

فانظـر كـيف قويـت دلالة الوصف حين استعمل الجمع ! . كما أنّ في اسـتعمال الجمـع مـراعاة للفاصلة ، ولا أحد ينكر الجانب الموسيقي في القرآن الكريم .

إنّ هـذه الفصائل النحوية ، التي هي أشكال الحمل على المعنى ، لا تكون أسـاليب صـحيحة معـدودة إلا إذا كانت صادرة من خبير بأصول اللغة ، مدرك للفـروق بين التراكيب ، واعٍ أبعادَها الدلالية ، وأثرها في المعاني المختلفة ، وأنّه صـاغ هـذا الأسـلوب صياغةً مقصودة لتحقيق الغرض المعنوي الذي يؤدّيه ، والهـدف البلاغي الذي يبتغيه ، ولولا هذا لصارت اللغةُ عبئاً في تراكيبها وخَطلاً في استعمالاتها ، تنتهي إلى فساد في معانيها .

ولكنْ ، مثلُ هذه الفصائل الواردة في التنزيل العزيز فوق كلّ شبهة ، فهي تقوي دلالة اللفظ وتخدم الفكرة والغرض . فمن أرادَ أنْ يحاكيَها فليأتِنا بحجّة ! .

---

[1]- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـ٢ ص ٢٨٠ .

[2]- حاشية الإمام ناصر الدين أحمد المالكي على الكشاف جـ٣ ص ٣٢٠ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

- المبحث الثاني -

** تشقيقات المعاني وأبعادها الدّلاليّة **

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

* تشقيقات المعاني وأبعادها الدلالية *

لا بـدّ – لِمَن أراد أنْ يخوض في الحديث عن الحمل على المعنى – من أنْ يمـسَّ موضـوع تشـقيق المعانـي ؛ لأنّـه يقف على القيمة العرفية لدلالة الكلمة ويشـرحها ، ثُـمّ يُبيّن " الفرق بين العرف الخاص والعرف العام في معنى الكلمات ويشـرح لنا طبيعة المعنى المعجمي وتعدّده واحتماله " [1]، ثمّ إنه يفرق تفريقاً دقيقاً بيـن المعنى الوظيفي والمعنى الدلالي ، ويشرح المقصود بالكلمة مع محاولة تحديد حدودهـا على أسس شكلية ، ويشرح لنا الدلالات الاستعمالية للكلمة ما بين الحقيقة والمجـاز ، ويبيّـن لماذا كان المعنى المجازي معتبراً في المعجم [2]. فمن خصائص هـذه اللغة البليغة أنّ الكلمة الواحدة تحتفظ بدلالتها المجازية ، ودلالتها الواقعية في وقـت واحد بغير لبس في التعبيرين [3]. ولقد كانت عناية النحاة والبلاغيين "موجّهة بالأسـاس إلـى دلالات الألفـاظ المعجميّة الوضعيّة ، وما قد يعتورها من تلوّن أو توسّـع ، ولئـن تميّز الأصوليون بمعالجة الألفاظ مركبة ، فإنّ ذلك قد اتخذ سبيل الـتأويل فـي الأغلـب ، واعـتقد إرضـاخ المعاني للسياقات الشرعية وأحكامها ومقاصـدها" [4]. وعُـنوا بدلالـة الألفـاظ ؛ لأنّـه فـرع من فروع علم الأصول وموضوع من موضوعاته [5] .

إن تَشـقيق المعانـي يشرح مفردات الألفاظ ودلالتها بحسب الموضع. يقول الراغـب الأصـفهاني: " وذكـرتُ أنّ أوّل ما يُحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن العلـوم اللفظـية. ومـن العلـوم اللفظـية تحقيق الألفاظ المفردة ، فتحصيل معاني

---

[1]- اللغة العربيّة معناها ومبناها ص ٣١٩ .

[2]- المرجع السابق ص ٣١١.

[3]- العقاد عباس محمود ت ١٩٦٤م، اللغة الشاعرة ، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة – مصر . ص ١٦

[4]- مـيلاد خـالد . بحـث : " المعـنى عـند البلاغيين ، السكاكي نموذجاً " جامعة تونس كلية الآداب بمنوبة – صناعة المعنى وتأويل النص سنة ١٩٩٢ . مجلد ٨ص ١٥٨

[5]- انظر : أبو سكين عبد الحميد محمد ، نظرات في دلالة الألفاظ ص ٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مفـــردات ألفـــاظ القـــرآن فـــي كونه من أوائل المعاون لمن يريد أنْ يدرك معانيه كتحصيل اللّبن في كونه مِن أوّل المعاون في بناء ما يريد أنْ يبنيه " [1] .

والـــذي أشـــار إلـــيه الأصـــفهاني تُعنى به الدلالة المعجمية للكلمة ، فدراسة المعـــنى تشـــكل قطاعـــاً عريضـــاً وأساسياً من علم المعاجم ؛ ولذلك يعتبر علماء المعـــاجم أنّ دراســـة المعنى المعجمي هو الهدف الأوّل لهذا العلم ، ودراسة المعنى المعجمـــي تُعدّ أوّل خطوة للحديث عن الكلمة ودلالتها [2] ، ثُمّ إنّ انعزال الألفاظ في المعجـــم قد يكون بيئة صالحة للّبس في معانيها ، فعلى المعجم أنْ يعطيها مِن طرق الشـــرح ما يوضّح معناها الصرفيّ ككلمتي محتلّ ومختار . فهل هما اسما فاعل أم اســـما مفعـــول ؟! أو كلمة قريب مثلا ، فقد تأتي بمعنى الفاعل أو المفعول ، وهذا مِن قبيل التحديد الصرفي [3] .

ويمكـــن القـــول إنّ واضعي المعجمات كانوا يهتمون بدلالة الكلمة أكثر من اهـــتمامهم بقواعـــد علم الدلالة ؛ لأنّهم نظروا إليها على أنها تختصّ بدراسة الألفاظ المفـــردة ، ولكـــن لا ننكر جهودهم ؛ لأنّ للرمز اللغوي سماتٍ دلالية يكشف عنها المعجـــم ، وهـــذه المعاني الدلالية للألفاظ لا تتّضح إلا بالتعويل على المعنى المقالي وهـــو مكـــون مـــن المعنى الوظيفي والمعنى المعجمي الذي يشمل القرائن المقالية والمعـــنى المقامـــي ، وهـــو مكـــوّن مِن ظروف أداء المقال وهي التي تشتمل على القرائن الحالية .

ولتوضـــيح ذلك نأخذ آية منَ القرآن ونبدأ في مناقشتها. قال تعالى **[... فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ...]** *(البقرة ٢/٢٧٥)*

---

[1]- المفردات في غريب القرآن ص ١٠ .

[2]- انظر : علم الدلالة ، دراسة نظرية وتطبيقية ص ٤٨ .

[3]- انظر : اللغة العربية ، معناها ومبناها ص ٣٢٧-٣٢٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فقـد ورد الفعل الماضي " جاء " مذكراً ، إذ أسقطت منه التاء معَ أنَّ الفاعل مؤنـث " موعِظـة ". يقـول سيبويه عن علة هذا الحذف : إنَّ الفاعل في الآية مِن المـوات ، ومعـنى ذلـك أنّ تأنيث "موعظة " تأنيث مجازيّ لا حقيقيّ ، والتأنيث الحقيقـي أقوى؛ ولذلك امتنع في حال السَّعة – أي في غير الضرورات – أن نقول: جـاء هـند . ولكـنَّ الفصل بين الفعل وفاعله جوّز ذلك ، فكلّما طال الكلام صار الحـذف أحسَنَ [1]. والفاصل في الآية هو " الهاء" وهو المفعول به ، فكأنّ الفاصل سدّ مسدّ علم التأنيث [2] .

وقـد وجد الباحث أنَّ أكثر النحاة في التعقيب على سبب تذكير الفعل المؤنث وصـفيون ، فلـم يخرجوا عن قولهم : " وحَسُن تذكير الفعل هنا بسبب الفاصل " . أو قولهـم : حُذفـت الـتاء مـن الفعـل ؛ لأنّ الفاعل ليس حقيقياً [3] ، ثُمّ امتلأت المطـوّلات بهذيْـن السببين دون محاولة في التعليل ، وهما سببان لا يطفئان أواراً ولا ينقعان غُلّةً . فلا بدّ مِن البحث عن علّة غير تَيْنك المذكورتين .

ذهـب فـريق مِن اللغويين إلى أنّ الموعظة بمعنى " الوعظ " . وهم – في اعـتقادي – مصيبون في ما ذهبوا إليه ؛ لأنّ اللفظيْن بينهما علاقة اشتقاقية معينة ، هـي اشـتراكهما فـي أصول المادة على أقلّ تقدير ، وفي هذه الحال يجوز تذكير الفعـل على معنى فاعله ، فالموعظة مصدر مِن قول القائل : وعَظتُ الرجل أعظُهُ وعظـاً ومَوْعِظـة [4]، والعِظـة أيضاً مصدر . وقد تأتي الموعظة بمعنى التذكير والـتخويف [5] ، وعلـى هـذا المعنى ذكر الفعل " جاء" . فنلاحظ أن معنى كلمة " موعظـة " تحوّل تحوّلاً مقصوداً وتطوّر مِن معنى إلى آخر ، وهذا نظام مطرد في

---

[1]- انظـر : الكـتاب جـ٢ ص ٣٤ . وانظر : ابن عصفور ، علي بن مؤمن ت ٦٦٩هـ ، المقرّب. تحقيق : أحمد عبد الستار الجواري وزميله . مطبعة العاني – بغداد . ص ٣٣١

[2]- انظر : شرح المفصل جـ٣ ص ٣٥٨ .

[3]- المقتضب جـ٢ ص ١٤٦. لسان العرب . مادة " وعظ " .

[4]- انظر : الزجاج ، إعراب القرآن جـ٢ ص ٦١٩ . وانظر : تفسير الطبري جـ٢ ص ١٨٠ . وانظر : المذكر والمؤنث جـ١ ص٤٣٢.

[5]- انظر : تفسير الطبري جـ٦ ص ١٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

القــرآن ، فكثــيرة هي الألفاظ التي تحوّلت عن معانيها الحقيقية التي وُضعت لها كالصلاة ، والهدى ، والسّعي ونحوها ، وهذا التطور الدّلالي مِن عصر إلى عصر يُعَدُّ صدى لتحوّل اجتماعي خارج حقل اللغة، يتضاءل فيه الاهتمام بأحد المسميات ويتعاظم بمسمى آخر ، فيغلب الآخر على الكلمة التي كانت تدلّ على الأوّل [1].

وما أُريد أنْ أبيّنه هو أنّ الوعظ لفظ دالّ على مطلق الوعظ ، أمّا " موعظة " فهي أكثر دلالة وأكثر حروفاً ، وهذا ما يحدّده المستوى الصرفي ، وهو فرع مِن فــروع أربعــة انبثقت عن الدرس اللغوي ، وهي المستوى الصوتي ، والمستوى الصرفي والمستوى النحوي ، والمستوى الدلالي .

والملاحــظ هــنا ، أنّ المســتوى الصوتي يختلف بين اللفظتيْن " الوعظ والموعظــة " ، لاختلاف عدد الأصوات ، واختلاف المقاطع. فالمصدر " وعظ " يــتألف مِــن مقطع صوتي واحد Wacz . أمّا كلمة موعظة فهي تتألف من ثلاثة مقاطع maw/ci/zah . وشتان بين المقطع الواحد والمقاطع الثلاثة مِن حيث القوة الدّلالية.

كذلك فإنّ المستوى الصرفي يختلف بين الكلمتيْن ، فوعْظ مصدر على زنة (فَعْــل) للفعــل الثلاثي وعَظَ – يَعِظ : بمعنى أمره بالطاعة ووصاه بها [2] ، أو بمعــنى النصح والتذكير بالعواقب . وقال ابن سيده : هو تذكيرك للإنسان بما يُلِيْن قلبه مِن ثواب وعقاب [3] .

أمّــا " موعظة " فهي على زنة " مَفْعِلة ". والنحاة والصرفيون متفقون على أنّ الــزيادة في المبنى زيادة في المعنى ، فصيغة الكلمة أو وزنها عنصر مهم من العناصــر الأساسية في تحديد معناها ، فكلّ وزن يصرف الكلمة إلى معنى يختلف عــن المعنى الذي يؤديه الوزن الآخر ، ولولا ذلك لالتبست معاني الألفاظ المشتقة

---

[1]– انظر : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٣٢٢.

[2]– المصباح المنير . مادة " وعظ " .

[3]– لسان العرب . مادة " وعظ " .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

مـــن المادة الواحدة . فزيادة الحرفين في " موعظة " تمد السامع بقدر من الدلالة لم يكـــن ليصل إليه أو يتصوره لو أنّ القائل استعمل لفظة " وعظ " . فالمعاني – إذاً – تستفاد من الأوزان والصيغ .

إنّ الأســـماء مثلاً– والموعظة اسم، كما ذهب إلى ذلك الراغب الأصفهاني[1] – تخلـــو مـــن الدّلالـــة علـــى الـــزمان ، ويدخل ضمن الأسماء ، المصدر ، واسم المصدر ، واسم المرّة ، واسم الهيئة .

أمـــا المســـتوى الـــنحوي فـــلا يكـــاد يتأثر ، سواء أجاء السياق بالوعظ أم بالموعظـــة ؛ لأنّ الكلمتين تكونان فاعلاً مؤخّراً في الموقع نفسه ، وهذه هي الدلالة الـــنحوية الخاصة ، أي معاني الأبواب النحوية . مثل : باب الفاعل ، وباب المفعول والحال ، والتمييز ، ولكن مع مراعاة ترتيب الكلمات داخل التركيب .

وقـــد أشار إبراهيم أنيس (ت ١٩٧٨م) إلى أهمية الترتيب في الجملة العربية فالترتيـــب يكشف عن الدلالة النحوية لكلماتها. يقول: " يحتم نظام الجملة العربيّة أو هندستها ترتيباً خاصاً، لو اختلّ أصبح مِنَ العسر أنْ يفهم المراد منها " [2] .

أمّـــا المستوى الدلاليّ وهو المسؤول عن إيصال الرسائل اللغوية سواء أكان ذلـــك مكـــتوباً أم مـــنطوقاً ، فـــإنّ الذي يبلغ المفهوم إلى المتلقي هو الدلالة ، وهو مـــتعلّق بمـــا تقدم من مستويات ، فإذا اختلف وزنا كلمتي وعظ وموعظة ، وتفاوت المقطـــع الصوتي طولاً وعدداً ، وافترق التصريف بين الكلمتين ، وإن كانت المادة واحـــدة فليس من بدّ من اختلاف الدلالتين . فقد وظّف بعضهم الوعظ ووضعه في موضـــع لا يحسُـــن وضـــع موعظـــة موضعه ، فالوعظ – كما يقول الخليل – هو التذكير بالخير في ما يرقّ له القلب .

---

[1] – انظر : المفردات في غريب القرآن . مادة " وعظ " .

[2] – أنيس إبراهيم ، دلالة الألفاظ. ط٣ سنة ١٩٧٦ مكتبة الأنجلو المصرية . ص ٤٨

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بينما الموعظة بمعنى التحريم أو الوعيد [1] . أو بمعنى القرآن [2] .

والباحث لا يجرؤ على القول إنّ اللفظين مختلفان ، وإنّما يؤثر أنْ يقول إنّ في كلّ لفظ منهما معنى لا نجده في صاحبه.

ويـــرى العالم اللغوي " Leroy " أنّ الكلمات التي تحمل أكثر من معنى ، فإنّما يرســخ فـــي الذهـــن مـــا طفا مِن تلك المعاني معنى واحد هو الذي يتجاذبه السياق ويقرره [3].

ولمّـــا كـــان لفـــظ الموعظة في قوله تعالى [... فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ ...] *(البقرة ٢/٢٧٥)* يجـنح إلى معنى التخويف ، بدليل قوله (مِن ربّه) فقد قالوا : أيـــنما وُجـــدت كلمة " ربّ " في القرآن فذاك موطن عذاب ، كان ذكر الموعظة – وهي أكثر حروفاً مِن الوعظ – أنسبَ في هذا السّياق . والله أعلم .

إنّ المعـــنى المعجمي يتكون من ثلاثة عناصر يهمنا منها اثنان وهما ما تشير إلـــيه الكلمـــة في العالم الخارجي ، أو كما أطلق عليها إبراهيم أنيس مصطلح الدلالة المركـــزية ، والمـــراد بها ذلك القدر المشترك من الدلالة الذي يعرفه أفراد المجتمع للكلمة ، فيصل بهم إلى فهم الكلمة [4] .

ويـــتكون أيضاً ممّا تتضمنه الكلمة من دلالات أو ما تستدعيه في الذهن مِن معـــانٍ ، واصـــطلحوا علـــى تســـميَة ذلك بالدلالة الهامشية ، وهي تلك الظلال مِن المعاني التي تختلف مِن فرد إلى آخر تبعاً لتجارب الأفراد وثقافاتهم .

---

[1]- انظـــر : المـــاوردي البصـــري . أبو الحسن علي بن محمد ت ٤٥٠هـــ ، النكت والعيون. تعليق : السـيد عـبد المقصـــود بن عبد الرحيم . ط١ سنة ١٩٩٢ . دار الكتب العلمية بيروت – لبنان . ومؤسسة الكتب الثقافية . بيروت – لبنان . جـــ١ ص ٣٥٠

[2]- انظر : البحر المحيط جـــ٢ ص ٣٤٩.

[3]- انظـــر: الصـــالح صبحي دراسات في فقه اللغة ط١٤ سنة ٢٠٠٠م . دار العلم للملايين بيروت – لبنان . ص٣٠٦

[4]- انظر : أنيس إبراهيم. دلالة الألفاظ ص ١٠٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومما ينطبق على ذلك مجيء بعض الألفاظ في القرآن بمعانٍ لم نعهدها من قبل ، فلم يكن بدّ من حملها على المعنى حتّى يستقيم وجه معناها . كقوله تعالى **[فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ]** *(الأنبياء ٢١/١٢)*

فقد عاد الضمير في " منها " مؤنثاً إلى البأس ، مع أنّه مذكر ؛ لأنّ البأس في معنى الشدّة [١] ، وهذا المعنى يؤيده السياق ويؤكده ، فقد وردت فيه كلمة " قَصْم " ، وهو مصدر يفهم من الفعل " قَصَم " ، قال تعالى **[وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ]** *(الأنبياء ٢١/١١)*

فمعنى القَصْم : الكسر [٢] أو أفظع الكسر [٣] . وذلك يلائم معنى الشدّة .

ويرى الباحث أنّ كلمة " بأس " طبّق عليها قانون التغيّر الدلالي ، فقد تم تعميم الكلمة ، وهذا اتجاه ينحو منحى معاكساً لتخصيص الدلالة ، والمراد بتعميم الدلالة هو تحويل الدلالة من المعنى الجزئي إلى المعنى الكلي ، وبه تصبح الكلمة دالة على عدد من المعاني ،[٤] فالبأس هو الحرب، ثمّ كثُر استعمالهم للكلمة حتى قيل : لا بأس عليك ، ولا بأس أي : لا خوف [٥]. وأصل البأس الشدّة في الحرب ، ثم استُعمل للدلالة على كلّ شدّة . معنى هذا أنه قد حدث توسيع لنطاق استعمال كلمة " بأس "، فأتت أكثر من معنى ، ولكنّ التنزيل العزيز راعى الأصل في الكلمة (الشدة) فحمل البأس على التأنيث .

ويرى الباحث أيضاً أنّ علة تأنيث البأس هي أنّه قريب من معنى "البأساء" فالبأساء اسم الحرب والمشقة [٦] .

١- انظر : البحر المحيط جـ٦ ص ٢٧٨ .

٢- السجستاني ، تفسير غريب القرآن ص ١٢٤ .

٣- الكشاف جـ٣ ص ١٠٦ .

٤- انظر : علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية ص ٧٦.

٥- لسان العرب . مادة " بأس " .

٦- المرجع السابق . والمادة نفسها .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فأنث البأس على معنى الحرب ، والحرب مؤنث . وقد تأتي البأساء بمعنى الجـــوع والضـــراء في الأموال والأنفس . والذي دلنا على أنّ البأس محمول على معـــنى لفظ غيره هو قرينة الربط ، وهي مِن القرائن اللفظية ، وتعني اتصال أحد المترابطيْـــن بالآخـــر، ويتم الربط بالضمير العائد الذي تبدو فيه المطابقة كما يفهم منه الربط ، أو بالحرف ، أو بإعادة اللفظ أو بإعادة المعنى [١] .

ومِـــنَ الكلمـــات التي لا تدرك دلالتها المعنويّة حتّى تُشقّق معانيها ،كلمة " صـــيحة ". قال تعالى **[وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ]** *(هود ١١/٦٧)*

فالصيحة لفظ مؤنث ، وتأنيثه غير حقيقي ، ولكنّ الفعل المسند " أخذ " جاء مذكراً بإسقاط التاء ، علامة التأنيث .

وقـــد أبدى السهيلي (ت ٥٨١هـــ) للحذف معنى طريفاً ، قال: إنما حذفت مـــنه ، أي التاء مِن الفعل " أخذ " ؛ لأنّ الصيحة في الآية بمعنى العذاب والخزي وفـــي هذا المعنى انتظام واتّساق مع ما قبله مِن المعاني [٢] . فلو نظرنا إلى الآية (٦٦) منَ السورة نفسها لوجدنا أنّ هذين المعنيين للصيحة قد وردا في سياق الآية. قال تعالى **[فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ]** *(هود ١١/٦٦)* .

فأمـــر الله هـــو لفـــظ عام لأفعاله وأقواله [٣] ، وهو هنا عذابه [٤]، وعلى اعتبار السياق وما وقع فيه مِن التذكير ، قوي التذكير في الفعل " أخذ " [٥] .

١- اللغة العربية معناها ومبناها ص ٢١٣.

٢- انظر : البرهان في علوم القرآن جـــ٣ ص ٣٦٨.

٣- المفردات في غريب القرآن . مادة " أمر " .

٤- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـــ٢ ص ١٤.

٥- انظر : البرهان في علوم القرآن جـــ٣ ص ٣٦٨.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وقد سوّغ بعضهم مجيء الفعل مذكراً فجعل الصيحة بمعنى الصيّاح (بضم الصاد وكسرها) [1] ، وقالوا هي بمعنى الصيْح أو الصيحان. والصيحة :هي رفع الصوت ، وأصله تشقيق الصوت ، مِن قولهم : انصاح الخشب أو الثوب إذا انشقّ فسُمعَ منه صوت [2] .

وكلّ هذه الألفاظ بمعنى الصوت بأقصى الطاقة [3]. والآية مِن قبيل قولهم : صِيح فيهم بمعنى هلكوا ، وهذا يلائم السياق . ثُمّ إنّ الإتيان باسم المرّة مِن " الصّيح " دليلٌ على أنّ درجة عذاب الله – والعياذ بالله منه – مهما كانت صغيرةً فإنها مهلكة لا محالة . وهذه الدلالة لا نكاد نجدها في لفظة الصيّاح التي رآها اللغويون صالحة لأنْ توضع موضع " الصيحة " في المعنى . ولَسْتُ أذهب مذهبهم لأن المصدر " صياح " يدلّ على الكثرة والتتابع ، شأنه في هذا شأن المصادر الأخرى التي تدلّ على الكثرة والقلة في آن ، وهذا المصدر لا يلائم فعله . ألا ترى أنّ الأخذ فيه قوّة في الحدث وسرعة في الأداء ؟! كقوله تعالى مخاطباً نبيّه يحيى عليه السلام [**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**] *(مريم١٩/١٢)*

فهذا الفعل لسرعته يتجاذبه معنى القلة لا الكثرة ، والصيحة فيها معنى القلة. فانظر كيف حُملَ المؤنث (صيحة) على معنى المذكر (صياح) ! فذكر الفعل لذلك ، مع الحفاظ على قوة الدلالة وحُسن الصياغة .

ثمّ إنّ العرب إذا أرادت أنْ تُظهر القلة في كلامها اتخذت لها إلى المذكر سبيلا . والقرآن شاهد على ذلك . قال تعالى [**فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ ...**] *(التوبة ٩/٥)* .

---

[1]- النحاس ، إعراب القرآن جـ٢ ص ٢٩١. التبيان في إعراب القرآن جـ١ ص ٥٤١.

[2]- المفردات في غريب القرآن . مادة " صيح " .

[3]- لسان العرب . مادة " صيح " .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فذُكّـر الفعل مع الجمع " أشهر " وهو جمع قلة . فأشهر الحُرُم أربعة: ذو القعـدة ، وذو الحجة ، ومُحرم ، ورجب ؛ فلأنها دون العشرة ذكر الفعل ، ودليل علـى قلّتها أنّ الجمع " أشهر " – وهو على زنة " أفعُل "– جمعُ قلة ، ولو أراد به الكثرة لقال " شهور " على زنة " فعول " .

وكذلك الصيحة ، فقد أريد بها المرّة الواحدة ، فجيء بالفعل " أخذ " ، وذلك أنّ أوّل فعل المؤنث إذا قلّ يكون بالياء ، أي يكون مذكراً [1] .

ومـا حُمل على لفظة " صيحة " في الآية يحمل على لفظة " ضلالة ". قال تعـالى **[فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ]** *(الأعراف ٧/٣٠)* .

فالضلالة لفظها مؤنث ، ولكنّ الفعل " حقّ " جاء مذكراً مراعاة للسياق. ألا تـرى أنّ الفـريق مذكر ؟! فعلى هذا كان حذف التاء أحسن مِن إثباتها ، فالسياق بمـنزلة الضـوابط التـي تحصر معنى الكلمة وتحدّد دلالتها . والضلالة هنا ضدّ الهوى والرشاد ؛ لأنّها وقعت بإزاء كلمة الهدى . وفي آية أخرى ورد الفعل مؤنثاً مع أنّ فاعله هو الضلالة .

قال تعالى **[... فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ...]** *(النحل ١٦/٣٦)*، ففي هذه الآية جانب معنوي وهو أنّ " مَن " محمولة على معنى الجماعـة أو الأمّـة ، وهي مؤنثة لفظاً ، قد ذكرت في السياق . قال تعالى **[وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِـي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ]** (النحل ١٦/٣٦) فمن هنا كان إثبات التاء أحسن حتّى يكون الكلام نَسَقاً .

وقد ذكر الفعل الناقص " ليس " مع أنّ اسمه مؤنث "ضلالة" في قوله تعالى **[قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ]** *(الأعراف ٧/٦١)*

---

[1] – الفراء ، معاني القرآن جـ٢ ص ١٢٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فَزعموا أنّ الضلالة هنا بمعنى الضلال. ولو عوّلنا على السياق لوجدنا أن قوم نوح – عليه السلام – قد رَموْهُ بالضلال في قوله تعالى [**قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**] *(الأعراف ٦٠/٧)* ، والضلال بمعنى الضياع أو الهلاك نحو قوله تعالى [**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ**] *(القمر ٤٧/٥٤)* والضلال أيضاً بمعنى النسيان ، مِن قولهم : ضلَلْتُ الشيء : أنْسِيتُه [١].

والسؤال الذي يعترضنا الآن هو : لم قال سيدنا نوح – عليه السلام – ليس بي ضلالة بينما هو كذلك في رأي قومه ؟!. لقد أراد نوح – عليه السلام – أنْ ينفي جنس الضلال عن نفسه ، وذكر الفعل الناقص " ليس " للفصل بين الفعل واسمه بشبه جملة " بي " ، وقد أُجري القليل في الآية مجرى الكثير؛ لأنّ الضلالة فرع مِن الضلال وبعض منه ، ومقتضى السياق أنْ ينفي نوح – عليه السلام – تهمة الضلال عن نفسه بصيغة المصدر " ضلال " باللفظ نفسه الذي رماه به قومُه ، ولكنّه عدل عن ذلك ، وجاءَهم بما يفحمُهم به ويبكّتُهم . ألا ترى أنّ صيغة اسم المرّة " ضلالة " مبالغة في النفي وذلك ؛ لأنّ المصدر يدل على القليل والكثير ؟ [٢]. وأمّا اسم المرّة فلا يدلّ إلا على الفعلة الواحدة . ونفيُ الأدنى أو الأقل أبلغ مِن نفي الأكثر [٣] ، فكأنه أراد أنْ يقول لهم : إنْ لم يكن بي ضلالة واحدة ، فكيف يكون بي ضلال كثير ؟!.

ونفيُه هذا في غاية الحُسن واللطافة ، ففيه تفنيد لكلام قومه وتبرئة له في وقت واحد . وثَمّ نُكتة أخرى في هذه الآية ، وهي أنّ الضلالة أقلّ مِن الضلال في الجنس والعدد ، والمناسب لهذه القلة هو تذكير " ليس " ؛ لأنّ التذكير أدنى مِن التأنيث عدداً . فناسب هذا ذاك . والله أعلم .

١- لسان العرب . مادة " ضلل " .

٢- أبو زرعة ، حجة القراءات ص ٥٤٠ .

٣- انظر : البحر المحيط جـ٤ ص ٣٢٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وممّا يستقيم له وجه المعنى بعد تشقيق معانيه لفظ " خصاصة ". قال تعالى

[... وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...] *(الحشر ٥٩/٩)*

فمـــن معاني " خصاصة " الفقرُ الذي لم يُسَدّ [١] وسوء الحال والخَلّة (بفتح الخـــاء) والحاجـــة [٢] . وفي حديث : كانَ يخرُ رجالٌ مِن قامتِهم في الصلاة مِن الخصاصة أي الجوع . وأصلها الفقرُ والحاجة إلى الشيء ، فيقال : صدَرَت الإبلُ وبهـــا خصاصـــة : إذا لم تروَ وصدرت بعطشها ، وكذلك الرجل إذا لم يشبع مِن الطعـــام [٣] ، وما سُمّي الخُصّ بذلك إلاّ لأنّه يُرى ما فيه مِن خصاصة، أي فُرجة أو التفاريج الضيقة ، وكلّ " كوّة أو خللٍ في حائط هو خصاصة " [٤] .

وأســـتطيع أنْ أردّ علّة حذف التاء مِن (كان) – لاحظ أنّه لا مطابقة بين " كـــان " واســـمها ! – إلى أنّ ثمّة قرينة تدلّ على التاء وإن كانت محذوفة ، فالتاء المحذوفـــة أصلاً وظيفتها الدلالة على التأنيث فحسب ، فاكتفي أنْ يكون هناك دليل واحـــد على التأنيث وهو اسم كان " خصاصة " ، وهذا أبلغ في الكلام . فلمّا كان هناك ما يدلّ على وظيفة المحذوف كان حذف التاء أولى وأجود ، فذِكر المحذوف (الـــتاء فـــي كان) الذي لا حاجة إليه يأباه البيان العالي ؛ إذ لو كان الحذف ممّا يوقـــع في شبهة إيهامٍ لاقتضى المقام وجوب ذكره دفْعاً لأيّ وهم . وقد أشار إلى ذلـــك ابـــن جنـــي فـــي مواضع متفرّقة من " الخصائص " . قال : " باب في أنّ المحـــذوف إذا دلت الدلالة عليه كان في حكم الملفوظ به " [٥] . وقال : " باب في الاستغناء بالشيء عن الشيء " . قال سيبويه : واعلم أنّ العرب قد تستغني بالشيء عن الشيء [٦] .

١- انظر : المفردات في غريب القرآن . مادّة " خصص " .

٢- لسان العرب . مادة "خصص" .

٣- المرجع السابق ، والمادة ذاتها .

٤- النحاس . إعراب القرآن جـــ٤ ص ٣٩٦ .

٥- الخصائص جـــ١ ص ٢٨٤.

٦- المرجع السابق جـــ١ ص ٢٦٦ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

والذي أريد أنْ الفتَ إليه النظر هو أنّ العرب استغنت بذكر المؤنث عن ذكر التاء في الفعل المسند إلى ذلك المؤنث ، فأسقطت التاء من كلامها ما وجدَت مسوّغاً لذلك . فكم مِن آية في القرآن الكريم حذف منها كلام عند إغناء القرائن عن ذكره كحذف جملة جواب الشرط مثلاً ! لدلالة السياق على السعنى دون أن تفقد الآية رونقها أو ماءَها ، كقوله تعالى [**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا...**] *(الرعد ١٣/٣١)*

فحذف جواب " لو " ؛ لأنّه مفهوم . وتقديره . (لما آمنوا) أو (لكان هذا القرآن) وهذا كلّه مِن فرائد القرآن وبلاغته .

ومن الألفاظ المؤنثة التي جاء فعلها مذكراً لفظ " شفاعة ". قال تعالى [**وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ...**] *(البقرة ٢/٤٨)*

فقد ورد الفعل المبني للمجهول " يُقبل " بالياء ، أي مذكراً ،مع أنّ نائب الفاعل " شفاعة " مؤنث. وهذا فصيح لمجاز التأنيث ، وحَسُنَ التذكير للفصل بين الفعل ومرفوعه [١]. إنّ الشفاعة يمكن تشقيقها إلى معانٍ مختلفة ، فهي بمعنى الشّفع [٢] والتشفّع [٣]. وأصل الشفاعة من الشفع خلافُ الوَتر وهو الزّوج ، تقول كان وَتْراً فشفَعْتُه شفعاً، وهي أيضاً كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره [٤]

وأحبُ الأقوال – في الشفاعة – إلى الباحث ما قاله المبرّد وثعلب : إنّ الشفاعة بمعنى الدعاء [٥] ، ولست أميل إلى حَمل الشفاعة على معنى التشفّع أو الشفع ؛ لأنّ الشفاعة تنحطّ درجةً عنهما. فالله تبارك وتعالى يريد أنْ يصوّر ذلك

١- انظر : البحر المحيط جـ١ ص ٣٤٨ .

٢- الزجاج ، معاني القرآن وإعرابه جـ١ ص ١٣٠ .

٣- النحاس ، إعراب القرآن جـ١ ص ٢٢٢ .

٤- لسان العرب . مادة " شفع " .

٥- المرجع السابق . والمادة ذاتها .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اليوم المهيب الذي لا يُقبل مِن أحد فداء ولو جاء بملْء الأرض ذهباً ، فجيء بلفظ الشـــفاعة لدلالـــته علـــى القلة ، وإذا انتفى قبول القليل فلا جرم أنّ الكثير مردود أيضاً.

وكذلك لفظة " العاقبة " في قوله تعالى **[فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ...]** *(النمل ٢٧/٥١)* فجاء الفعل الناقص مذكراً مع أنّ اسمه مؤنث ، فأهملت المطابقة؛ لأنّ العاقـبة هـنا بمعـنى العقاب أو العذاب بحكم سياق الآيات ، وتتضاف دلالة أخـرى إلى العقاب هي آخره ، أي أنّ العذاب كان آخر أمرهم . والعاقبة : عَقِب كـلّ شيء ، وعَقِبُهُ ، وعاقَبتُه وعاقبه وعقبته، وعقباه ، وعُقبانُه بمعنى آخره [1]. والعاقـبة بمعنى العُقْب والعُقُب مثل عُسْر وعُسُر. ومنه قوله تعالى **[... هُـوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا]** *(الكهف ١٨/٤٤)* .

ومن كلّ ما تقدّم نلاحظ أنّ لكلّ لفظة في القرآن دلالةً لا تؤديها لفظة أخرى فكـلّ واحـدة وُضـعت الموضع الملائم لها، حتّى إذا استُبدل بها لفظ آخر اختلّ المعنى وفَسدَ الغرض، وغاض ماءُ الكلام، والقرآن مبرّأ مِن كلّ هذا، ومنزّه عنه.

---

[1]- لسان العرب . مادّة . " عقب " .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

** الفصل الثالث **

أهمّ مجالات التركيب الوظيفي في الحمل على المعنى

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

** المبحث الأوّل **

- التفسير القرآنيّ -

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- التفسير القرآنيّ -

تحدّثْـت في الفصل السابق عن السياق القرآني ، وبيّنت كيف أنّ له أثراً في فصـائل الحمل على المعنى ، فما كان للمذكر أنْ يؤنث ، وما كان للمؤنث أنْ يُذكّر لولا إيحاءُ السياق بذلك .

وقـد بـدا تأثير تشقيق معاني الألفاظ على المعنى واضحاً ، إذ تشكلت تحت ظلالـه أبعـاد دلالـية ، مـا كانت لتُعرف لولا استظهارنا بالمعجمات اللغوية التي كشفت عن تلك الأبعاد .

ولـيس عجيباً أيضاً أنْ نستعين بكتب تفسير القرآن الكريم نستفتي أصحابها في المواطن المشكلة التي حُملت على المعنى .

وهؤلاء الشراح يُعتدّ بآرائهم ، فهم جهابذة النحو وأساطين اللغة .

وقـد أخذوا شروحَهم عن علماء التفسير المتقدمين ، فإمّا أن يكون تفسيرهم مـن القـرآن نفسه ، أو ممّا ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو صحابته أو عـن التابعيـن ، ومـن ثَمّ لم يكن بدّ من قبول تفسيرهم ، حتى لو اختلفت آراؤهم حول الآية ، فلكلّ رأي من آرائهم وجه تقبله العربية ويعضدُه لسانُها .

ولا بـد مـن الإشارة إلى أنّ أصحّ طرق التفسير هو تفسير القرآن بالقرآن لذلـك يجـب علـى مَنْ يتعرّض لتفسير كتاب الله تعالى أنْ ينظر في القرآن أوّلاً لفهـم مـراد الله بما جاء عن الله ، فصاحب الكلام أعلم من غيره بكلامه ، وأدرى بمعانيه [1] .

---

[1] - انظـر : الذهبـي محمد حسين. التفسير والمفسّرون ط٢ سنة ١٩٧٦ . دار الكتب الحديثة . القاهرة - مصر . جـ١ ص ٣٧

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أبـدأ بمناقشة الآية الكريمة الآتية واستعراض آراء المفسّرين لها. قال تعالى **[ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ]** *(الأعراف ٧/٩٥)* .

فقـد ذُكّـر الفعل " مسّ "، وحقّه التأنيث؛ لأنّ الفاعل هو " الضرّاء ". وإنّما جـاز ذلك حملاً على المعنى ، فالمفسّرون مجمعون على أنّ الضرّاء بمعنى الضر أو المـرض [١]. بدلـيل قوله تعالى **[وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ...]** *(يونس ١٠/١٢)*. وقـد حُمـل لفـظ الضـراء علـى معنى البلاء ، والبلاء مذكر ، وعلى ذلك ذكّر الفعل [٢]. وقد يأتي بمعنى الفقر أو القحط أو سوء الحال وأشباه ذلك [٣].

وذهـب الطبري إلى أنّ السّراء بمعنى الرخاء ، وهو مذكر [٤]، فربّما غُلب معـنى التذكـير في المعطوف على المعطوف عليه . والسراء أيضاً بمعنى النّعماء أو الـرزق والخـير والفضـل [٥] ، بدلـيل قوله تعالى **[وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ...]** *(الأعـراف ٧/٩٦)* . فلم يكـن تذكـير الفعـل " مسّ " ، وحذف تاء التأنيث منه اعتباطاً في السياق ، وإنما مجـيء الفعـل على الأصل ؛ لتصوير ما تخلفه الضراء من خوف وفقْر ومخمصةٍ وتخوّفٍ وتخطُّف ، وهذا كله يليق به الحذف .

ومـن الآيـات التـي ذُكّر فيها المؤنث قوله **[فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ(٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ(٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ]** *(القيامة ٧٥/٧-٩)* .

فقـد جـاء الفعـل " جُمـع " مذكراً مع أنّ نائب الفاعل مؤنث ، حَملاً على المعنى .

---

[١]- انظر : اليزيدي .غريب القرآن وتفسيره ص ١٣٦ والكشاف جـ٢ ص ١٢٥ .

[٢]- ابن قتيبة . تفسير غريب القرآن ص ١٥٣ .

[٣] - السجستاني . تفسير غريب القرآن ص ٦٧ .

[٤]- انظر : تفسير الطبري جـ١٢ ص٥٧٤ .

[٥]- المصباح المنير . مادّة "سرر" .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ذهب الكسائي إلى أنّ الشمس والقمر هما النوران أو الضياءان [1]. فكأنّ المعنى يُجمع حرّهما.

ويرى الباحث أنّ تأويل الكسائي قوي ، ويؤكّده النص القرآني. قال تعالى [هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا...] *(يونس ١٠/٥)* . وقال تعالى [وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا] *(نوح ٧١/١٦)* .

وتأتي الشمس بمعنى الحر ، كما في قوله تعالى [مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا] *(الإنسان ٧٦/١٣)* . فهذه الآيات الثلاث تعزّز ما ذهب إليه الكسائي .

وقد جاء النحاس في هذه الآية عجباً ، فإنه لما كان " الجمع لا يتمّ إلا بين شيئين اثنين أو أكثر فقال : وجمع الشمس ، فلا " يتمّ به الكلام حتّى يقال : والقمر وكان القمر مذكراً ، كان المعنى جَمْعاً ، فوجب أن يذكر فعلهما في التقديم كما يكون في التأخير " [2] .

ومعنى كلام النحاس قريب من كلام الفئة التي ذهبت إلى أنّ الآية من باب التغليب ، فاقتصر على واحد من الاثنين ، وهو القمر هنا (المعطوف) ، فذكّر الفعل [3] .

ورأي مَن ذهب إلى التغليب وجيه عند الباحث ؛ لأنّ العرب تكثر من التغليب في كلامها ، فقد قالت : القمران وهي تريد الشمس والقمر .

---

[1] – انظر : الكسائي ، معاني القرآن ص ٢٤٧ . وانظر : الفراء ، معاني القرآن جـ٣ ص ٢١٠ و جـ١ ص ١٢٦ وانظر : تفسير الطبري ج٢٩ ص١١٣.

[2] – النحاس ، إعراب القرآن جـ٥ ص ٨١ .

[3] – انظر : ابن عطيّة . أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطيّة ت ٥٤٦هـ المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق : المجلس العلمي بفارس .ط سنة ١٩٧٩ . جـ١٦ص١٧٤. وانظر : تفسير البيضاوي جـ٩ص٣٤٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومـــن هـــذا القبـــيل قوله تعالى [... أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ] *(القصص ٢٨/٥٧)* .

فقـــد جاء الفعل " يُجبى " بصيغة المذكر مع أنّ نائب الفاعل مؤنث " ثمرات" وإنّمـــا جـــاز ذلـــك ؛ لأنّ الثمرات حُملت على معنى الرزق ، وهو "مذكر" فحدث تناســـب بيـــن الفعل ونائب فاعله ، والعامّ هنا جاء مفسّراً للخاصّ ، فالثمرات جزء مِن الرزق وبعض منه ؛ لأنّه عامّ [١].

وذهب القرطبي إلى أنّ تذكير الفعل على تذكير المضاف إليه " كلّ " [٢].

ومـــن الكلمـــات المؤنـــثة التي أجمع المفسّرون – تقريباً – على حملها على المذكـــر مـــا جاء في قوله تعالى [قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ] *(الأنعام ٦/١٠٤)* .

فقـــد ذُكّـــر الفعـــل " جاء " مع أن الفاعل مؤنث " بصائر " . فالبصائر هنا بمعـــنى القـــرآن. أي جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر [٣]. والذي ذهب إليه الـــزجاج يقبله العقل والتأويل . ولا أظنّ أحداً سبقه إلى هذا التأويل في ما عُدت إليه مـــن مصادر ومراجع ، ثُم إن تفسيره يقر به النص ويؤكده بدليل قوله تعالى [اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ]*(الأنعام ٦/١٠٦)* .

فمـــا أوحـــي إلى النبي صلى الله عليه وسلم هو القرآن الكريم ، وآية أخرى تؤكـــد أنّ البصائر هي النور ، والنور هو القرآن الكريم. قال تعالى [... قَدْ جَاءَكُمْ مِـــنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ] *(المائدة ٥/١٥)*. والبصائر جمع مفرده بصيرة، وهي الحجـــة البيـــنة الظاهـــرة ، وتأتـــي على معنى ما تبصرون به الهدى من الضلال

١- انظر : الكشاف جـ٣ ص ٤٢٧ .

٢ – انظر : تفسير القرطبي جـ١٣ ص٣١١ .

٣- انظـــر : معانـــي القـــرآن وإعـــرابه جـــ٢ ص ٢٧٩. وانظر: السّمرقندي . أبو الليث : نصر ابن محمـــد بـــن أحمد ت٣٧٥ هـــ . بحر العلوم تحقيق : علي محمد معوّض ورفاقه ط١ سنة ١٩٩٣ دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان . جـــ١ ص ٥٠٥

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والإيمان من الكفر [1] . وقد يكون تذكير الفعل " جاء "؛ لأنّ البصائر بمعنى الهدى نفسه ، أي أنّ المراد بالبصائر هنا بصائر القلوب ، لا بصائر الرؤوس [2] . والذي يؤكد رأي الطبري هو أنّ العرب تكني عن الهدى والضلال بالأبصار والعمى ، وهذه كناية حسنة [3] .

وقال المفسّرون في قوله تعالى [**لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ...**] *(الحج ٣٧/٢٢)* .

إنّ التقوى بمعنى الإخلاص [4]، وقالوا إنّها بمعنى التّقى[5] أو الاتّقاء وعلى ذلك ذكّر الفعل " ينال " ، فإنّ الذي ينال الله هو اتقاؤكم إياه إن اتّقيتموه فيها وذلك بتعظيم شعائر الله وحرماته [6] .

ومما ورد مؤنثاً في القرآن الكريم، وحمله المفسّرون على معنى المذكر لفظ " أنباء ". قال تعالى [... **فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**] *(الأنعام ٥/٦)* .

فقد ذهبوا إلى أنّ المراد بأنباء هو "يوم بدر" الذي وفّى الله للكفار فيه بوعيده ، حيث غُلبوا ونكصوا على أدبارهم مهزومين ، وقُتل بعضهم [7] .

فإذا كانت الأنباء بمعنى يوم بدر ، فقد جاز على ذلك تذكير الفعل (يأتي).

١- انظر : تفسير الطبري جـ١٢ ص ٢٤ .

٢- المصدر السابق . الصفحة ذاتها .

٣- البحر المحيط جـ٤ ص ١٩٩.

٤- الفراء . معاني القرآن جـ٢ ص ٢٢٧ .

٥- النحاس . إعراب القرآن جـ٣ ص ٩٩ .

٦- الطبري . جـ١٧ ص ١٢٢ .

٧- انظر : تفسير الطبري جـ١١ ص٢٦٢ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وذهب قتادة إلى أنّ الأنباء – هنا – بمعنى هذا القرآن الكريم [1] وقالوا إنّ الأنباء بمعنى العقاب ، أي يحلّ بهم العقاب ، فأراد بالأنباء الأخبار التي هي العذاب ، كقولهم : اصبر ! وسوف يأتيك الخبر أي العذاب.

وقال ابن عطية الأندلسي : إنّ هناك مضافاً محذوفاً في الكلام وتقديره : يأتيهم مضمن أنباء القرآن الذي كانوا به يستهزئون . ويرى أن (ما) في قوله (أنباء ما) إذا كانت مصدرية ، فالتقدير : يأتيهم نبأ كونهم مستهزئين ، أي عقاب يخبرون أنه على استهزائهم [2]، فعلى هذا التأويل يجوز تذكير الفعل [3] .

وقال بعضهم الأنباء – هنا – بمعنى يوم القيامة [4]، وإذا كانت كلمة أنباء مما يحمل على المفرد (نبأ) [5] فذلك تأويل لا يخرج الكلمة من دائرة الحمل على المعنى . ألا ترى أنّ حمل الجمع على المفرد فصيلة من فصائل الحمل على المعنى ؟! .

ومن الألفاظ التي تحمل على اللفظ تارة ، وتحمل على المعنى تارة أخرى (ما) ، فقد جاءت في قوله تعالى **[وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ...]** *(الأنعام ٦/١٣٩)*، محمولةً على المعنى؛ لأن الخبر (خالصة) جاء مؤنثاً، ولو أنّ (ما) حملت على اللفظ لقال (خالص)، فقد ذهب الفراء إلى أنّ " خالصة " تأنيثه لتأنيث الأنعام ؛ لأنّ ما في بطونها مثلها فأنث لتأنيثها [6]. وهذا رأي رصيف حصيف، بدليل سياق الآية التي قبلها. قال تعالى **[وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا...]** *(الأنعام ٦/١٣٨)* .

---

[1] -المصدر السابق ج٧ ص ٥٣.

[2] – تفسير ابن عطية جـ٦ ص٧ .

[3] – انظر : البحر المحيط جـ٤ ص٧٩.

[4] – تفسير القرطبي جـ٦ ص ٣٦٦.

[5] – انظر : لسان العرب . مادة "نبأ" .

[6] – الفراء . معاني القرآن جـ١ ص٣٥٨ . وانظر : التبيان في إعراب القرآن جـ١ ص٤٢٢.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وقال بعض أهل التأويل كابن عباس رضي الله عنهما:عنى بذلك اللبن [1] وهذا وجه فيه مجاز [2] ؛ لأنّ اللبن في الضروع لا في البطون .

وقال قتادة : عنى ألبان البحائر ؛ فلذلك حمل ما على المؤنث ؛ لأنّ الألبان جمع [3] .

وقالوا (ما) بمعنى الأجنة ؛ لأنّها التي في البطون حقيقة [4] وعن مجاهد قال : هي السائبة والبحيرة [5] أو البحيرة والوصيلة [6] ، فجاز التأنيث ؛ إذ إنّ البحيرة من الإبل والوصيلة من الغنم [7].

ومهما يكن من أمر أهل التأويل وشقاقهم حول المراد بـ(ما) فإنّ ما يعنينا هو أنّ " خالصة " بالتأنيث على معنى (ما) .

ومن الآيات التي حُملت على المعنى قوله تعالى [**وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ**] *(النمل ٢٧/٤٨)* . فقد جاء المعدود في الآية مفرداً لفظاً ، ولكنه اسم جمع ، ليس له واحد من لفظه، ثمّ إنّ العدد دون العشرة ، فحق المعدود أن يكون هنا جمعاً، كأن يقول : تسعة أرهاط ، أو أراهط كما جمعها سيبويه [8] .

قال أكثر أهل اللغة : إنّ الرهط بمعنى النفر أو العصابة التي تكون – في الأعم الأغلب – فوق الثلاثة ودون العشرة [9] . فالرهط لفظه (واحد) ومعناه

١- انظر : تفسير الطبري جـ١٢، ص ١٤٦ .

٢- البحر المحيط جـ٤ ص ٢٣٤ .

٣- تفسير الطبري جـ١٢ ص١٤٧.

٤- انظر : تفسير البيضاوي جـ٤ ص ٢١٠ .

٥- الطبري جـ١٢ ص ١٤٨ .

٦- انظر : تفسير السّمرقندي . " بحر العلوم " جـ١ ص ٥١٦.

٧- انظر : ابن قتيبة . تفسير غريب القرآن ص ٢٦١.

٨- الكتاب جـ٤ ص ٩١ .

٩- انظر : درة الغواص ص ٢٣٦. الكشاف جـ٣ ص٣٧٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

جماعـــة رجـــال ، فحسُـــن تمييز التسعة بالرهط على التأويل والتفسير:(وكان في المدينة تسعة رجال) [1]، وقد كانوا رؤساءَ وأشرافاً، يتبع كلٌ واحد منهم رهط [2].

وذهـــب الزمخشـــري وتـــبعه البيضـــاوي إلى أنّ تأويل الآية هو: " تسعة أنفس"[3]. وبي من تأويلهما غُصّة لسببين :

أولهمـــا : أنّ حمـــل الـــرهط علـــى معـــنى الأنفس لا يزيل إبهام الآية أو غموضـــها، إلاّ إذا فسّـــرنا كلامهما بكلام آخر. كأنْ نحمل " الأنفس " على معنى " الشـــخوص ". فأي فائدة في تأويل آية بكلام مبهم هو أشد حاجةً إلى التأويل من الآية نفسها ؟

وثانـــيهما : أنّ المفســـرين متّفقون على أنّ المعنى " تسعة رجال " [4]. فلا وجه لمخالفة سواد المفسّرين .

ومـــن الآيـــات التـــي وردت بصـــيغة المفـــرد يراد بها الجمع قوله تعالى [... إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ] *(الشعراء ٢٦/١٦)*. فمعَ أنّ المتكلّمين هما موسى وهارون عليهما السلام إلا أنّ خبر "إنّ" على معنى أنهما رسولان ، أو أنّ الرسول بمعـــنى الرســـالة ، كما ذهب إلى ذلك يونس بن حبيب وغيره [5]. وعلى تأويلهم يكـــون معـــنى الآيـــة : إنّا رسالةُ ربّ العالمين ، واحتجّ يونس لهذا المعنى بقول الشاعر :

فأبلغْ أبا بكر رسولاً سريعةً

فما لك يا ابن الحضرميّ ومالياً .

---

[1]- الطبري جـــ١٩ ص ١٠٨ .

[2]- انظر: تفسير القرطبي جـــ١٣ ص٢٢٣ .

[3]- انظر: الكشاف جـــ٣ ص ٣٧٦، وانظر : تفسير البيضاوي جـــ٧ ص ٢٥٤ .

[4]- البحر المحيط جـــ٧ ص ٧٩ .

[5]- اليزيدي . غريب القرآن وتفسيره ص ٢٨١ . وابن قتيبة . تفسير غريب القرآن ص ٣١٦ . ابن الأنباري . المذكر والمؤنث جـــ١ ص ٢٩٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فأراد رسالة سريعة [1] . وربما يكون اللفظ قد وُحّد وأريد به الجمع ؛ لأنّ حكمهما – عليهما السلام – " لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما لذلك وللأخوة كان حكما واحداً فكأنهما رسول واحد " [2] .

وأحسبُ الأقوال إلى الباحث قول من ذهب إلى أنّ الإفراد هنا لبيان الجنس فما أريد به العدد. ولو كان كذلك لثنى[3] وهذا كقوله [... **فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا ...**] *(النساء ٤/٤)* ، وهو يريد نفوساً، ولكنّ الاقتصار على الواحد هنا أبلغ ؛ لأنّ المراد هو الجنس ، فما وافق النفس الواحدة انسحب على غيرها. والله أعلم .

ومن الآيات التي اختلف في توجيهها أهل العربية قوله تعالى [**وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَماً ...**] *(الأعراف ٧/١٦٠)* .

ذهب الأخفش الأوسط إلى أنّ الأسباط – هنا – بمعنى فرقة [4] ، وعلى تأويله هذا يصح وجه الكلام ، فالأسباط بمعنى القبائل ، وهو جمع على زنة أفعال واحده سبط أي قبيلة [5]. وإنما أنّث العدد بجزءيه على تقدير أُمّة ؛ لأنّ المعدود إذا وقع بين أحد عشر وتسعة وتسعين كان مفرداً ، فتقدير الآية : قطعناهم اثنتي عشرة أمة ، وليس " أسباطاً " هنا منصوباً على التمييز ؛ لأنه جمع ، والتمييز في هذا النحو لا يكون إلا مفرداً ، فالأصل هو : اثنا عشر سبطاً ، ولكنه بدل من العدد المركب " اثنتي عشرة " . والتأنيث في العدد إنما هو لأمم [6] ، أي أنه غلّب التأنيث وإن كان السبط مذكراً .

١- ابن الأنباري . المذكر والمؤنث جـ٢ ص ٢١٢ .

٢- الكشاف جـ٣ ص ٣١١ . وانظر : البحر المحيط جـ٧ ص ٩ .

٣- البيان في غريب إعراب القرآن جـ٢ ص ٢١٢ .

٤- الأخفش. معاني القرآن جـ٢ ص ٣١٣ .

٥- اليزيدي. غريب القرآن وتفسيره ص ١٥١ .

٦- انظر : الفراء ، معاني القرآن جـ١ ص ٣٩٧ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقـــال بعض نحويي البصرة : أراد اثنتي عشرة فرقة ، ثم أخبر أنّ الفرق أســـباط ، فالعدد – إذا – لم يجعل على أسباط ، إنما على محذوف مقدر [1]، وكان بعض النحاة يستخلُ هذا الرأي ويستوهنه [2] .

ويـــرى الطـــبري أنّ تأنيـــث العدد هو لتأنيث " القطعة " ورأيه سديد عند الباحث ؛ لأنّ هذا اللفظ مشتق من اللفظ نفسه الوارد في سياق الآية (وقطعناهم). ومعـــنى الكـــلام : وقطعناهم قطعاً اثنتي عشرة ، ثم فسّر القطع بالأسباط . وذهب الزجاج إلى أنّ المعنى هو : قطعناهم اثنتي عشرة فرقة أسباطاً ، أي أنه قدر تمييز العدد محذوفاً ، وجعل أسباطاً صفة له [3].

ومذهـــب الزمخشـــري ليس ببعيد من مذاهب القوم ، فقال إنّ المعنى هو : وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة [4] .

ألا تـــرى أنهـــم حين حملوا الأسباط على معنى القبيلة أو الفرقة أو القطعة فذلك ليلتمسوا وجهاً لمجيء المعدود جمعاً مع أن حقه الإفراد ؟ .

---

[1]- انظر : الطبري جـــ١٣ ص ١٧٤ .

[2]- المصدر السابق جـــ١٣ ص ١٧٥ .

[3]- الزجاج . معاني القرآن وإعرابه ج٢ ص٣٨٢.

[4]- الكشاف جـــ٢ ص ١٥٩ ، وتفسير البيضاوي جـــ٤ ص ٣٨٨.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

** المبحث الثاني **

- القراءات القرآنية -

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- القراءات القرآنية -

لـــم تكـــن علـــة الحمل على المعنى مقتصرة على الشعر وحده ، أو على الخطابـــة ، أو النثر ، أو القرآن . وإنما امتدّت فروعها لتشمل القراءات القرآنية ، ســـواء أكانـــت متواترة أم شاذة ، فكلّ ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربـــية ، ((وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخـــالف قياساً معروفاً بل ولو خالفَتْهُ يُحتجّ بها في مثل ذلك الحرف بعينه وإن لم يجز القياس عليه)) [1] .

وتجـــدر الإشـــارة إلى أنّ الشذوذ لا يعني اللحن ، ويذكر ابن جني في هذا المجـــال أنّ الشاذ قد يكون مساوياً في فصاحته لما أجمع الناس عليه ، وخصوصاً إذا كان مدعوماً بالرواية التي تثبت صحته ، ومن ثَمَّ فلا يجب أنْ يرفض من قبل أنّه لا مطعَنَ فيه ، وقد استند ابن جني في قبول القراءات الشاذة إلى أنّ رواية هذه القراءات تؤول في النهاية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقـــد احـــتجّ ابن جني لها في " المحتسب " ، وما كان ليردّها وقد علم أنّ أصـــحابها هُـــم الفصحاء اللدُّ ؛ ولذلك لم أجد حرجاً في أن أتتبّع بعض القراءات الشاذة المحمولة على المعنى مضيفاً إياها إلى القراءات السبع .

إنّ القراءات القرآنية تعدّ مدداً لا ينضُبُ لقواعد النحاة، ولكنّ بصريي القرن الثالث ضعّفوا بعض القراءات وطعنوا فيها، وهي محصورة في مواطن قليلة [2].

وأكـــبر عيب يُوجَّه إلى النحاة عدم استيعابهم إياها، أو تَقَصّيهم لها ، فكان مـــنهم أن أضاعوا على أنفسهم وعلينا وعلى النحو مئات من الشواهد المحتجّ بها ولو فعلوا لكانت قواعدهم أشدّ إحكاماً [3] .

---

[1] - الاقتراح ص ٢٤ .

[2] - شوقي ضيف . المدارس النحوية ص ١٩.

[3] - انظر : في أصول النحو ص ٤٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثُـمّ إن اختلاف القراءات وتعددها قد أوجد مجالاً للبحث واسعاً في نوع هذا الاختلاف وفوائده وأسبابه، حتى غدا علم القراءات علماً مستقلاً له متخصّصوه [1]

وهـذا الاخـتلاف لـم يكن " ليعني تغييراً في النص ولا تبديلاً للفظ، ولكنّه يعنـي التيسـير على المسلمين أنْ يقرأوه بما كان يتيسّر لهم ، وربما تضطرهم إليه عـاداتهم اللغويـة التـي تعوّدوها" [2] فإنّ من العرب من كان يصعب عليه التحول عمـا جـرى عليه لسانه ، فكانت الاختلافات بين القراء درءاً للعسر والمشقة ، وقد نسـتطيع ردّ اخـتلافهم إلـى ثقافـة كلّ منهم ونصيبه من العربية ، فاعتمدوا على الحجـج والبيـنات بحسـب ما يرَوْنه . فهذا يقرأ على هذا الوجه حَمْلاً على اللفظ وذلك يقرأ على وجه آخر حَمْلاً على المعنى . وهما في الفصاحة سواء .

ومـن اختلاف القراء في قوله تعالى **[فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي...]** *(آل عمـران ٣/٣٩)* أنْ قرأ حمزة والكسائي وخلف (فناداه) بألف بعد الدال بدلاً مـن الـتاء السـاكنة [3] ، وقراءتهم على تذكير المؤنث ، واحتجوا أنّ الفعل مقدم وهـذا كقولـك : قام الرجال . والملائكة – ههنا – جبريل عليه السلام . والتقدير : فـناداه الملك أو فناداه جبريل [4] . وقد روي أنّ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كـان يذكـر الملائكة في كل القرآن، وجاز ذلك على تذكير الجميع [5]. ولا عجب

---

[1]- عبد الرحيم عبد الجليل. لغة القرآن الكريم ط١ سنة ١٩٨١ مكتبة الرسالة الحديثة . عمان – الأردن . ص ١١١

[2]- المخزومي مهدي. الدرس النحوي في بغداد ط٢ سنة ١٩٨٧ . دار الرائد العربي بيروت – لبنان . ص ٧٠-٧١

[3]- انظـر : ابـن الجـزري . الحـافظ أبـو الخـير محمد بن محمد الدمشقي ت٨٣٣هـ . النشر في القـراءات العشـر مراجعة : علي محمد الضباع . دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان جـ٢ ص ٢٣٩.

[4]- ابن خالويه . إعراب القراءات السبع وعللها. تحقيق : عبد الرحمن بن سليمان العثيمين . ط١ سنة ١٩٩٢. مطبعة المدني . القاهرة – مصر . جـ١ ص ١١٢

[5]- النحاس . إعراب القرآن جـ١ ص ٣٧٣. أبو زرعة . حجة القراءات ص ٢٧٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في قراءة حمزة والكسائي، فهي- كما قيل- راجعة إلى عثمان وعلي وابن مسعود [1].

ونستطيع أن نردّ هذه القراءة إلى فصيلة ثانية من فصائل الحمل على المعنى وهي حمل الجمع على المفرد. وذلك جائز في العربية ، كما تقول : خرج فلان على البغال ، وإنّما ركب بغلاً واحداً . وتقول لأحدهم : ممن سمعت هذا الخبر ؟! فيقول : من الناس . وإنّما سمعه من رجل واحد [2].

معنى هذا أنّ النداء الصادر من الملائكة إنّما هو من الجنس .

ومن تذكير المؤنث قراءة أبي عمرو والكسائي وغيرهما قوله تعالى **[... كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ...]** *(النساء ٤/٧٣)* بتذكير الفعل " يكن " وحجتهم أنّ المودة والود بمعنى واحد أو؛ لأنّ تأنيث المودة ليس حقيقياً [3]، فحملوا المودة على الود كما كانت الموعظة بمعنى الوعظ .

ومن تذكير المؤنث قراءة حمزة والكسائي وحماد ويعقوب والعليمي قوله تعالى **[ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ]** *(الأنعام ٦/٢٣)*

بالياء على التذكير (يكن) ، وقرأوا (فتنتهم) بالنصب [4]، فإنّ ما بعد (إلاّ) هو اسم كان ، وهذا هو الأشيع والأكثر في لسان العرب [5] ، وعلى ذلك يكون خبرها (فتنتَهم) مقدماً .

---

[1]- البرهان في علوم القرآن جـ١ ص ٣٣٨.

[2]- الفراء . معاني القرآن ، جـ١ ص ٢١٠ .

[3]- انظر : ابن خالويه . الحجة في القراءات السبع تحقيق : عبد العال سالم مكرم ط٥ سنة ١٩٩٠. مؤسسة الرسالة . ص ١٢٥

[4]- الأصبهاني . أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران ت ٣٨١هـ المبسوط في القراءات العشر تحقيق : سبيع حمزة حاكمي ط١٩٨٠ . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق . ص٢٣٩

[5]- معاني القرآن وإعرابه جـ١ ص٤٧٧.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فإن كان معنى (أن قالوا) هو مقالة أو مقولة ، فإنهما محمولان على معنى القول ،حتى يتطابق الفعل مع اسمه من حيث التذكير . ومن قرأ بالتاء كنافع وأبي عمرو وأبي بكر ونصب (فتنتَهم) فحجتّه أنّ القول فتنة ، والفتنة قول، فجاز أن يحلّ أحدهما محلّ الآخر [1]، أو بمعنى آخر ، إنّ الفعل أنث ؛ لأنه لمّا جاء ملاصقاً للفتنة أنث لتأنيثها ، وإنما القول ههنا بمعنى الفتنة ؛ لأنه مبني على أساس باطل واهن ، ثُمّ إن الخبر هو الاسم عينه ، كقولنا : كان زيد أخاك . وكان زيداً أخوك.

ومن تذكير المؤنث قوله تعالى [**خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ...**] *(القلم ٦٨/٤٣).*

قرأ أبو عمرو " خاشعاً أبصارهم ". ولا أعرف كتاباً في القراءات ذكر مثل هذه القراءة في ما عدت إليه من مصادر ومراجع ، ولكن سيبويه – وهو عندنا ليس بظنين – نسب هذه القراءة إلى أبي عمرو ، وقد علّلها فقال : اعلم أنّه من قال "ذهب نساؤك " قال :" أذاهب نساؤك" ؟! أي على تذكير اسم الفاعل ، كما كان الفعل مذكراً حين أسند إلى فاعل مؤنث [2] وتذكير المؤنث ورد في القرآن في مواطن كثيرة ذكرت في الفصل الثاني ، وربما لهذا السبب حذف أبو عمرو التاء من " خاشعة " .

ومن تذكير المؤنث قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر قوله تعالى [... **أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ...**] *(الرعد ١٣/١٦)*

" يستوي " بالياء [3]. ويرى الباحث أنّ قراءتهم محمولة على المعنى الذي يكشف عنه التفسير؛ لأن الظلمات بمعنى الكفر كما أن النور بمعنى الإيمان[4] أو

---

[1]- ابن خالويه . الحجة في القراءات السبع ص ١٣٧ .

[2]- انظر : الكتاب جـ٢ ص٣٨.

[3]- حجة القراءات ص ٣٧٢.

[4]- النحاس . إعراب القرآن جـ٢ ص ٣٥٥ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أنّهـــم ذهـــبوا إلى معنى المصدر فيكون بمعنى الإظلام والظلام [1] . وحَمْلُ الجمع علـــى المصدر كثير في قراءاتهم . فقرأوا قوله تعالى [**وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ...**] *(التوبة ٩/٥٤)* " يقبل" بالياء ؛ لأن النفقات عندهم بمعنى الإنفاق [2] .

ومن تذكير المؤنث قراءَة ابن كثير وابن عامر قوله تعالى [... **أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّـنَةُ مَـا فِـي الصُّحُفِ الأُولَى**] *(طه ٢٠/١٣٣)* بالياء " يأتهم " ؛ لأنّ البيّنة في معنى البيان [3] .

ومن الآيات التي قرأها القراء بالتذكير ، قوله تعالى [**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِيـنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ...**] *(سبأ ٣٤/٣)* . فمنهم من قـــرأ (ليأتينّكم) بياء الغيبة . عن طُليق المعلم قال : سمعتُ أشياخنا يقرأون بالياء وإنما جاز التذكير ؛ لأنّ المخوف من الساعة المتقدم ذكرها على الفعل هو عقابها والمأمول ثوابها ، فغلّب معنى التذكير الذي هو مرجوّ أو مخوف [4].

والذي ذهب إليه الزمخشري أحبّ إلى الباحث ، فقد حمل (الساعة) على معـــنى الأمـــر، أي ليأتيـــنكم أمره [5] كما قال تعالى [... **أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ** ...] (النحل ١٦/٣٣) .

وقريب من مذهب الزمخشري مذهب أبي حيان ، فقد جعل الساعة محمولة على معنى البعث ، فجاز تذكير الفعل [6] .

١- حجة القراءات ص ٣٧٣.

٢- المرجع السابق ص ٣١٩ .

٣- انظر : إعراب القراءات السبع وعللها جـــ٢ ص ٥٨ .

٤- المحتسب جـــ٢ ص ٢٣٠ .

٥- انظر : الكشاف جـــ٣ ص ٥٧٨ .

٦- البحر المحيط جـــ٦ ص ٢٤٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومـــثل هـــذه الآيـــة قوله تعالى [لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِـــم النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ(٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ] *(الأنبياء ٢١/٣٩-٤٠)* .

فقـــد قرأ الأعمش (ت ١٤٨هـــ) بل يأتيهم ، بالياء. فما الذي سوّغ قراءته مـــع أنّ الظاهـــر هو أنّ الفاعل في (تأتيهم) عائد على النار ، وقيل : الساعة التي تصيرُهم إلى العذاب ، وقيل إلى العقوبة [١]، وقيل إلى النار والوعد ؟ . فالوعد في معنى النار وهي التي وعدوها [٢]. وعلى قراءة (يأتيهم) تكون النار بمعنى العذاب فذكـــر ثُـــم ردها إلى ظاهر اللفظ [٣] ، فقال (فلا يستطيعون ردّها) أي ردّ النار ولم يقل ردّه على معنى العذاب .

ومن الآيات التي قرأها القراء محمولةً على التضمين ، قوله تعالى [حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ ...] *(الأعراف ٧/١٠٥)* .

فقـــد قرأ ابن مسعود " حقيق بأنْ لا أقول ". [٤] قال الفراء : (الباء) بمعنى (على) كقول العرب : فلان على حالةٍ حسنةٍ وبحالةٍ حسنةٍ [٥] .

ومن هذا التضمين ما جاء في قوله تعالى [إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ...] *(آل عمران ٣/٤٥)* .

قـــرأ الكسائي وغيره بفتح همزة (أنَّ) [٦] مع أنّ حقّها الكسر ؛ لأنّها وقعت بعد فعل القول . وحجة هؤلاء أنّ الفعل " قالت " محمول على معنى " نادت " ، أو أنّ الفعل " قالت " ضُمّن الفعل "نادت" ، فكأنّ المعنى : نادته بأنّ الله يبشرك ، وقد

١- المرجع السابق جـــ٦ ص٢٩٢.

٢- الكشاف جـــ٣ ص١١٩ .

٣- البحر المحيط جـــ٦ ص ٢٩٢.

٤- إعراب القراءات السبع وعللها جـــ١ ص١٩٧ . وانظر : حجة القراءات ص ٢٨٩.

٥- الفراء . معاني القرآن جـــ١ ص٣٨٦.

٦- حجة القراءات ص ١٦٣.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تأثروا في هذه القراءَة بالنص القرآني . قال تبارك وتعالى [فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَـائِمٌ يُصَـلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ...] *(آل عمران ٣/٣٩)* فأوّلوا القول بالنداء [١] .

ومـن التضمين ، قراءتُهم قولَه تعالى [وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ...] *(التوبة ٩/٣)* .

بكسـر همـزة "إنّ " ، وهي قراءَة الحسن والأعرج ، وحجّتهما أنّ الأذان ضُـمّن معـنى القول [٢] , وذلك مذهب الكوفيين [٣] . ومثل هذه الآية قوله تعالى [فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ] *(القمر ٥٤/١٠)* .

فقد كان عيسى بن عمر يقرأ بكسر الهمزة " إنّي " ، أراد على الحكاية [٤]. أي كأنه قال : فقال ربّ إني مغلوب فانتصر .

وكمـا حملوا المذكر على معنى المؤنث فقد حملوا المؤنث على المذكر في قـراءاتهم أيضاً . قال تعالى [هَلْ يَنظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِـيَ بَعْـضُ آيَـاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ ...] *(الأنعام ٦/١٥٨)* .

قـرأ ابـنُ سيرين وأبو العالية " لا تنفعُ نفساً إيمانها " على تأنيث الفعل [٥] وقـد جعلوا لهذه القراءة وجهاً حسناً في العربية . قال أبو جعفر : " في هذا شيء دقـيق مـن النحو ذكره سيبويه ، وذلك أنّ الإيمان والنفس كلّ واحد منهما مشتمل على الآخر ، فجاز التأنيث " [٦] .

١- معاني القرآن وإعرابه جـ١ ص ٤٠٥ .

٢- النحاس . إعراب القرآن جـ٢ ص ٢٠٢ .

٣- البحر المحيط جـ٥ ص٨ .

٤- الكتاب جـ٣ ص ١٦٤.

٥- المحتسب جـ١ ص ٣٤٦ .

٦- النحاس . إعراب القرآن جـ٢ ص١٠٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أي أنّ تأنيث المصدر " إيمان " ؛ لأنّه من النفس وبها ، وأقرب من ذلك هو مـــراعاة المضـــاف إليه في المعنى " النفس " فروعي التأنيث على المعنى . وقد يكون الإيمان هنا محمولاً على معنى المعرفة [1] أو العقيدة [2] .

ويرى الباحث أنّ حمل الإيمان على معنى الصلاة أولى ، وذلك بدليل نقلي من القرآن . قال تعالى [... **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ** ...] *(البقرة ٢/١٤٣)* أي صلاتكم [3]. والله أعلم .

ومـــن تأنيـــث المذكر قراءة الحسن ومجاهد وقتادة وأبي رجاء " تلتقطْه " بالـــتاء [4] فـــي قولـــه تـــعالى [... **يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنـــتُمْ فَاعِلِيـــنَ**] *(يوسف ١٢/١٠)* .

فأنّثوا لفظ " بعض " ؛ لأنه مضاف إلى مؤنث هو منه ، ولو لم يكن منه لم يؤنـــث ، فـــلا يحسن القول : " ذهبَت عبدُ أمّك " [5] . وبعض مذكر، وهو فاعل الالـــتقاط ، ولكنّ بعض السيارة في المعنى سيارة . ألا ترى أنه يجوز أنْ تقول : " تلتقطه السيارة " وأنت تعني البعض ؟ [6] .

ومعـــنى كـــلام سيبويه والسيرافي أنّ هذا الموضع من الآية ممّا تصحّ به العـــبارة علـــى المعنى حين تُسقط المضاف ، كقولهم : " أضرّت بي مرّ السنين " فَحَذْفُ المسند إليه "مرّ "، أي الفاعل، هنا لا يضرّ بالمعنى، بل تصحّ العبارة تماماً على تقدير : أضرّت بي السنون . فكأنّ المضاف إليه قبل حذف شيء من العبارة ينتزع من المضاف وظيفته النحوية بعد حذف المضاف .

---

[1]- البحر المحيط جـــ٤ ص ٢٦٠ .

[2]- التبيان في إعراب القرآن جـــ١ ص ٤٢٩ .

[3]- المفردات في غريب القرآن . مادة " أمن " .

[4]- البحر المحيط جـــ٥ ص ٢٨٥.

[5]- انظر : الكتاب جـــ١ ص ٩٢.

[6]- السيرافي . شرح كتاب سيبويه جـــ٢ ص ٣٩٤.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومـــن تأنيـــث المذكـــر قـــراءتهم قوله تعالى [... **فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى**] *(طه ٢٠/١٣٥)* .

بتأنيـــث الصراط . فقد قرأ يحيى بن يَعمَر (**الصراط السُّوّى**) بضم السين وتشـــديد الواو ، على زنة فُعلى ، مثل : عُليا ودنيا . ولم يحك أحد من علماء اللغة تأنيث الصراط [١] .

فـــإذا جازت هذه القراءة عن ابن يعمرَ- وهو من أجلاّء أهل اللغة والنحو- [٢] فإنّـــي أرى أنْ يُحمل الصراط على معنى السبيل ، فهو يذكر ويؤنث ، كما ورد في القرآن .

ومـــن الألفاظ التي جاءت مفردة في قراءتهم ، يراد بها الجمع ، لفظ " عظم" قـــال تعالى [... **فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ** ...] *(المؤمنون ٢٣/١٤)* .

قـــرأ ابـــن عامـــر وعاصـــم في رواية أبي بكر : (**فخلقنا المضغةَ عظماً فكســـوْنا العظـــم** ...) [٣]. بفـــتح العين وإسكان الظاء من غير ألف، على التوحيد. وذكـــر ابـــن جنـــي أن علـــة الإفراد هنا في لفظ "عظم" ؛ لأنه جاور بالواحد لفظ الواحـــد الـــذي هـــو "إنســـان" و "سلالة ". وقد شاع عنهم وقوع المفرد في موضع الجماعة [٤].

ومـــن هـــذا الـــباب قراءَة ابن كثير وحده قوله تعالى [**وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**] *(المؤمنون ٢٣/٨)* .

---

[١]- ابن الأنباري . المذكر والمؤنث جـ١ ص ٤٥٩ .

[٢]- المصدر السابق . الصفحة ذاتها .

[٣]- ابـــن مجـــاهد . أبـــو بكـــر أحمـــد بن موسى بن العباس ت ٣٢٤هـــ كتاب السبعة في القراءات . تحقيق : شوقي ضيف . ط سنة ١٩٧٢ . دار المعارف بمصر . ص ٤٤٤

[٤]- المحتسب جـــ٢ ص ١٣٠ . .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

على التوحيد " لأمانتهم " [1].وقال بعض النحويين : وجه الإفراد أنه مصدر واسم جنس ، فيقع على الكثرة وإن كان مفرداً في اللفظ [2] .

فمـــن قرأ بالمفرد حمله على معنى الجمع ، وقد سمي الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدا [3].

ومـــثل ذلـــك في مراعاة الجنس قراءة عكرمة قوله تعالى [**وَحُورٌ عِينٌ**] *(الواقعـــة ٥٦/٢٢)* علـــى التوحـــيد ، (وحـــوراء عيناء) فأفرد على توحيد اسم الجنس [4] .

وممـــا جاء في القرآن مجموعا وقد قرأوه مفردا لفظ " الغرفات ". في قوله تعـــالى [... **فَأُولَـــئِكَ لَهُـــمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**] *(ســـبأ ٣٤ / ٣٧)*. فقـــد قرأ حمزة [5] (وهم في الغرفة) على التوحيد، فهي اسم جـــنس يـــراد به الجمع والكثرة ، والعرب تجتزئ بالواحد عن الجماعة ، فتقول : أهلك الناس الدينار والدرهم ، وهي تريد الدنانير والدراهم . وربما يكون حمزة قد تأثر في قراءته هذه بسياق النص القرآني . قال تعالى [**أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ...**] *(الفرقان ٢٥/ ٧٥)* .

ومـــن حمـــل الجمع على المفرد قراءَة ابن عامر وابن كثير وغيرهما قوله تعـــالى [... **وَأَسْـــبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً...**] *(لقمان ٣١ /٢٠)* بإفراد " نعمـــه " أي : أسبغ عليكم نعمةً [6]، فقد حملوا النعمة على معنى الجمع ؛ لأن حبر الأمـــة ابـــن عباس رضي الله عنهما قال : هي الإسلام ، وذلك أن نعمة الإسلام

---

[1]- كتاب السبعة في القراءات ص ٤٤٤ .

[2]- انظر : النحاس . إعراب القرآن جـــ٣ ص ١١٠-١١١ وحجة القراءات ص ٤٨٣

[3]- الكشاف ج٣ ص١٨٠ .

[4]- البحر المحيط جـــ٨ ص ٢٠٦.

[5]- السبعة في القراءات ص ٥٣٠

[6]- حجة القراءات ص ٥٦٦.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تجمـــع كـــل خير. ألا ترى أن تمام نعمة الله على العبد أن يدخله الجنة ؟ فكذا لما كان الإسلام يؤول أمره إلى الجنة سمي نعمة [1] ، فنعمة الإسلام جامعة لكل النعم ومـــا ســـواها يصـــغر في جنبها [2]. ثم إن النعم من سمع وبصر وعقل ورزق تـــندرج تحـــت نعمة الإسلام . وسبب ثان لقراءتهم هو سياق القرآن . قال تعالى **[... وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ...]** *(إبراهيم ١٤/٣٤)*. فإنّ عجزَنا عن إحصـــاء نعـــم الله يعنـــي أنهـــا كثيرة. ولا بد من الإشارة إلى أن اختلاف وجوه القراءات يغير في إعراب الكلمات .

فمـــن قرأ بالجمع " نعمه " أعرب كلمة " ظاهرة " حالا . ومن قرأ بالإفراد " نعمة " أعرب كلمة " ظاهرة " صفة .[3]

وقـــد قـــرأوا بعض الآيات التي ورد فيها لفظ مفرد على الجمع ، أي أنهم حملوا المفرد على الجمع ، كما حملوا الجمع على المفرد .

نحو قراءتهم قوله تعالى **[تَـــبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا]** *(الفرقان ٢٥/ ٦١)* .

فقد قرأ حمزة والكسائي – أو كما قال أبو حيان الأندلسي : قرأ الأخوان – وخلـــف وغـــيرهم : (وجعل فيها سُرُجاً) على الجمع ، على زنة فُعُل [4] بمعنى مصابيح ؛ إذ كانت يهتدى بها . والمصباح كالسراج في كلام العرب [5] وقد تأول بعضـــهم أن السُـــرُج هـــي النجوم الدراري .[6] أو أن السرج هي الشمس والقمر

١- النحاس . إعراب القرآن ج٣ ص٢٨٧ .

٢- الحجة في القراءات السبع ص ٢٨٦ .

٣- انظر : التبيان في إعراب القرآن ج٢ ص ٢٦٥ .

٤- انظر – البحر المحيط ج٦ ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨ . النشر في القراءات العشر ج٢ ص ٣٣٤ .

٥- الفراء . معاني القرآن ج٢ ص٢٧١ .

٦- النحاس . إعراب القرآن ج٣ ص١٦٦ .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

والكواكب العظام [1]، وربما قرأوا بالجمع ، وهم يريدون المفرد " سراج " أي الشمس .

ومما ورد في القرآن مفردا يراد به الجمع قراءة أهل المدينة قوله تعالى **[... وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ...]** *(المائدة ٥/ ٦٧)*

بالجمع " رسالاته "؛ لأنهم قالوا إن لكل وحي رسالة ، ثم جمعوا فقالوا : " فما بلغت رسالاته " [2] ، وأحسن حجة ذكرت في قراءة الجمع هي أن كتمان بعض الرسالة ككتمان كلها[3].

وقد جعل أبو جعفر النحاس هذه القراءة أبين من قراءة الإفراد (رسالته) " لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل عليه الوحي شيئا شيئا ثم يبينه". [4] ومن هذا القبيل قراءتهم قوله تعالى **[يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ...]** *(البقرة ٢/ ٢١٩)*

" كثير " بدلا من " كبير " ، وهي قراءة حمزة والكسائي؛ وحجتهما أنهما حملا الإثم على المعنى، فقد وحد في اللفظ ، وأريد به الجمع، والذي يدل على ذلك قوله " ومنافع " فعودل الإثم بالمنافع . [5] ومن القراءات التي حملت على المعنى قراءة أبيّ وعبد الله قوله تعالى **[وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ]** *(الواقعة ٥٦ / ٢١-٢٢)* بالنصب " وحورا عينا " [6].

---

[1]- حجة القراءات ص ٥١٢

[2]- الحجة في القراءات السبع ص ١٣٣ . وحجة القراءات ص ٢٣٢ .

[3]- تفسير الجلالين . الآية .

[4]- النحاس . إعراب القرآن ج٢ ص٣١ .

[5]- حجة القراءات ص ١٣٣ .

[6]- الكتاب ج١ ص١٤٩ ، والبحر المحيط ج٨ ص٢٠٦

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

سبق أن بيّنتُ في الفصل الأول أن قراءة الرفع (وحور عين) محمولة على المعنى ، وقراءة النصب هي كذلك ؛ لأن معنى " يطاف عليهم " : يناولون أكوابا أو يملكون أكوابا وحورا عينا [1] ، أو " يُعْطَوْن هذا ويُعطون حورا " [2] وأحَبُّ تقدير إلى الباحث ما قاله ابن جني وهو أن النصب على إضمار فعل أي : يُؤتَون ويزوجون حورا عينا، كما قال تعالى في السياق القرآني [**كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ**] (*الدخان ٤٤/ ٥٤*) [3].

وقد قرأ حمزة والكسائي الآية نفسها بالجر (وحورٍ عينٍ)[4]، وقرأ بالخفض أيضا أصحاب عبد الله بن مسعود ، وهو وجه العربية ، وإنما خفضوا ؛ " لأنهم هابوا أن يجعلوا الحور العين يطاف بهن " [5]. ويرى الباحث أن هذه العلة مشتركة بين القراءات الثلاث فلا يطاف بالحور في قراءة الرفع والنصب والجر .

والخفض في الآية على أن تتبع آخر الكلام بأوله ، وإن لم يحسن في آخره ما حسن في أوله . والمعنى على تقدير : ينعمون بهذه الأشياء وينعمون بحور عين .[6] ومثل هذه الآية بيت الراعي النميري (ت٩٠ هـ).

إذا ما الغانياتُ برزْنَ يوماً

وزجّجْنَ الحواجبَ والعُيونَا

---

[1]- انظر : البغداديات مسألة ٢٨ ص ٢٢٠ .

[2]- النحاس . إعراب القرآن ج٤ ص٣٢٩ والبحر المحيط ج٨ ص٢٠٦.

[3]- المحتسب ج٢ ص٣٦٠ وتفسير القرطبي ج١٧ ص٢٠٥ .

[4]- حجة القراءات ص ٦٩٥.

[5]- الفراء . معاني القرآن ج٣ ص١٢٣ .

[6]- النحاس . إعراب القرآن ج٤ ص٣٢٨ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فالعين لا تزجج إنما تكحل ، فردها على الحواجب؛ لأن المعنى معروف.[1]

وذهب العكبري إلى أن الفعل المضمر في قراءة الجر هو " يتحفون " ، والتقدير : ويتحفون بحور عين .[2]

ويرى الباحث أن كل الأفعال التي قدروها تفضي إلى المعنى نفسه تقريبا وأظن أنه ليس في القرآن كله حرف واحد غير هذا يحمل على المعنى في القراءات الثلاث. والله أعلم .

ومن قراءاتهم التي تم فيها الالتفات إلى المعنى في المحمول عليه وملاحظة وقوع هذا المعنى في الثاني المحمول ، قراءتهم قوله تعالى [وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ...] (*الأنعام ٦/١٣٧*) على البناء للمجهول " زُين " بضم الزاي، وهو فعل ماض مبني للمجهول ورفع (قتل) نائبا للفاعل ، ورفع (شركاؤهم) على إضمار فعل . وهذه قراءة أبي عبد الرحمن السلمي والحسن البصري، وقرأا بالرفع؛ لأن " زُين" يدل على ذلك المضمر أي زينه شركاؤهم [3] فلما قال : " قتل أولادهم " تم الكلام ؛ فقيل : شركاؤهم على المعنى؛ لأنه علم أن لهذا التزيين مزينا، فالمعنى: زينه شركاؤهم. أي أن الفعل المبني للمعلوم (زيّن) يفهم من المبني للمجهول (زيّن) [4] فيكون إعراب (شركاؤهم) فاعلا مرفوعا على المعنى ، أو فاعلا لفعل محذوف والتقدير : زينه شركاؤهم [5] ؛ لأنه لو وقفنا على كلمة أولادهم في الآية لقيل : من زيّنه لهم ؟! فقيل : زيّنه لهم شركاؤهم .[6]

---

[1]- الفراء . معاني القرآن ج٣ ص ١٢٣ .

[2]- العكبري . إعراب القراءات الشواذ تحقيق : محمد السيد أحمد عزوز . ط١ سنة ١٩٩٦ ، عالم الكتب ، بيروت – لبنان . ج٢ ص٥٥٢

[3]- الفراء : معاني القرآن جـ١ ص ٣٥٧ .

[4]- انظر : المقتضب ج٣ ص٢٨١ .

[5]- النحاس .إعراب القرآن ج٢ ص٩٨ .

[6]- المحتسب ج١ ص ٣٣٩ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد جعل سيبويه البيت الآتي مثل قراءتهما للآية ، برفع (شركائهم) .

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ

ومختبطٌ مما تطيح الطوائح [1] (الطويل)

فكأنـــه قال : ليبكه ضارع [2]. فضارع هنا فاعل لفعل محذوف ، وهو الفعل المبني للمعلوم ، المفهوم من المبني للمجهول .

وقولهـــم : رُكبَ الفرسُ جعفرٌ هو مثل القراءة المتقدمة ؛ لأن جعفرا مرفوع بفعل مضمر دل عليه هذا الظاهر " ركب "[3] .

ومـــن القـــراءات المحمولة على المعنى المقدر قراءة الحسن البصري قوله تعـــالى [... أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ] *(البقرة ٢ /١٦١)* بـــرفع الملائكـــة والـــناس وأجمعيـــن. علـــى تأويل : أولئك جزاؤهم أنْ لعنهم اللهُ والملائكـــةُ ، فعطف الملائكة على موضع اسم الجلالة " الله " وموضعه الرفع. كأن اللعـــنة فـــي معنى: أن لعنهم. وهذا كقولهم: يعجبني قيامُ زيدٍ وعمرٌو وبشر ، فرفع عمرو وبشر بالعطف على موضع زيد. ألا ترى أن المصدر "قيام" منسبك من "أن" والفعـــل " يقوم" ؟ فكأن المعنى: يعجبني أن يقوم زيد وعمرو وبشر.[4] وقد استحسن الـــزجاج هـــذه القـــراءة وجعلهـــا وجها جيدا في العربية ، إلا أنه كره القراءة بها لمخالفتها المصحف والقراءة .[5]

---

[1]- الكتاب ج١ ص٣٤٨ .

[2]- المصدر السابق ج١ ص ٢٤٦ .

[3]- المحتسب ج١ ص ٣٣٩ .

[4]- البـــيان فـــي غريـــب إعـــراب القـــرآن ج١ ص ١٣١ وانظر : عضيمة محمد عبد الخالق. دراسات لأسلوب القرآن الكريم ج٢ ص ٢٥٠ .

[5]- انظر : معاني القرآن وإعرابه ج١ ص٢٣٦ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومـــن العطـــف على الموضع قراءة الحسن وابن أبي إسحاق وابن السميفع قوله تعالى [**وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ ...**] *(الأنعام ٦/٥٩)* بالرفع [١] (ولا رطبٌ) (ولا يابسٌ) عطفا على موضـــع ورقة ، وهو موضع رفع ؛ لأن ورقة فاعل أو أنهم حملوا (من ورقة) على معنى (ورقة) [٢] فكان الرفع .

ومـــن الحمل على المعنى المقدر قراءة ابن عباس رضي الله عنهـــما قوله تعـــالى [**إِذِ الأَغْـــلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ**] *(غافر ٤٠/٧١)* بالجـــرّ " والسلاســـلِ " حمـــلا علـــى معنى المعطوف عليه؛ لأن الكلام في الآية فيه قلب فأصـــل الآيـــة – عند ابن عباس – " أعناقهم في الأغلال " [٣] ، فلم يراع – على هذه القراءة – الترتيب في اللفظ ؛ وإنما عطف على المعنى أو على تقدير الكلام .

ومـــن الحمل على المعنى قراءة أبي عمرو وابن كثير وغيرهما قوله تعالى [**فَـــالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا...**] *(الأنعام ٦/ ٩٦)* باسم الفاعل " وجاعل الليل " [٤]

فالليـــل في موضع نصب في المعنى ، فرد " والشمس والقمر " على معناه لمـــا فـــرق بيـــنهما بقوله (سكنا) [٥] ، فنُصبا عطفا على المعنى أي وجعل [٦] وإنمـــا قرأوا (وجاعل) ؛ لأن رد اسم فاعل على اسم فاعل أحسن من رد فعل على اسم فاعل [٧] .

١- البحر المحيط ج٤ ص١٥٠

٢- إعراب القراءات الشواذ ج١ ص٤٨٢ – ٤٨٣ .

٣- الفراء . معاني القرآن ج٣ ص١١ .

٤- حجة القراءات ص ٢٦٢ .

٥- الفراء ، معاني القرآن ج١ ص ٣٤٦ .

٦- النحاس ، إعراب القرآن ج٢ ص٨٤ .

٧- إعراب القراءات السبع وعللها ج١ ص١٦٥

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قـــال ســـيبويه : " حين قال : " جاعل الليل" فقد علم القارئ أنه على معنى " جعل " فصار كأنه قال :" وجعل الليل سكنا ، وحمل الثاني على المعنى" [1] ، أي أن اسم الفاعل حمل على معنى فعله. ألا ترى أن في " جاعل " معنى " جعل " ؟!

ومن الآيات المحمولة على المعنى، قوله تعالى [... وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ] *(فصلت ٤١/ ١٠)*

بخفـــض (ســـواء)، وهـــي قراءة زيد بن علي والحسن وابن أبي إسحاق وعمرو بن عبيد [2] وقراءتهم بالخفض صفة ل (أربعة أيام) [3]

قـــال الخليل : معنى " سواء " في قراءة الجر مستويات ، أي حمل المصدر على معنى اسم الفاعل[4] وبهذا التأويل يكون الخليل قد سوغ قراءتهم ، وجعل لها وجهـــا في العربية ؛ لأنه لا يحسن أن يكون المصدر (سواء) صفة لأيام ، فسواء بمعنى استواء [5] ، ولكن جازت الصفة على التأويل .

وهذه القراءة مثل قولهم : في أربعة أيام تمام أي تامة ، ومثل قولهم : رجل عدل أي عادل .[6]

ومـــن الآيـــات التي حملت على المعنى بالعطف على الموضع قوله تعالى [مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ] *(الأعراف ٧/١٨٦)*

بجـــزم (ويذرْهـــم)، وهـــي قـــراءة حمزة والكسائي [7] . وعلة الجزم أن (ويذرهم) محمول على موضع الكلام " فلا هادي له " وهذا الكلام واقع في موضع

---

[1]- الكتاب ج١ ص٤٢٣ .

[2]- البحر المحيط ج٧ ص٤٦٥ .

[3]- الفراء ، معاني القرآن ج٣ ص١٢ .

[4]- الكتاب ج٢ ص١١٦

[5]- التبيان في إعراب القرآن ج٢ ص٣٣١ .

[6]-النحاس ، إعراب القرآن ج٤ ص ٥٠ .

[7]- حجة القراءات ص ٣٠٤ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يكــون مجزوما في جواب الشرط ، وأصل الجزاء الفعل ، وحروف الجزاء تعمل فــيه فكأنه نطق بالكلام السابق جزما ، فعطف الفعل على ذلك .[1] أي أن الجزم معطوف على موضع الفاء [2] فكأنه قيل : من يضلل الله لا يهده أحد ويذرْهم ...

وقد حملت قراءة نافع قوله تعالى [... **وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ** ...] *(البقرة ٢ / ٢١٤)* .

بــرفع الفعــل (يقول) على معنى المضي، مع أنه مضارع. فكأن المعنى: حــتى قــال الرسول، على المضي وليس على الاستقبال ، فحَملُ المضارع على معــنى الماضي أبطل عمل حتى؛ لأن " حتى " لا تعمل في الماضي ، وإنما تعمل في ما كان بمعنى الاستقبال [3]

مثل قوله تعالى [... **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**]*(يونس ١٠/٩٩)*.

ولا يــرتفع الفعــل المضــارع بعد " حتى " إلا إذا كان حالا ، ثم إن كانت حاليته بالنسبة إلى زمن التكلم ، فالرفع واجب ، كقولك :" سرت حتى أدخلُها " إذا قلت ذلك وأنت في حالة الدخول .

وإن كانت حاليته ليست حقيقية ، بل كانت محكية رفع ، وجاز نصبه إذا لم تقــدر الحكايــة نحو: [**وزُلزِلوا حتى يقولَ الرسول**]. فالذي سوغ قراءة نافع هو التقدير، أي: حتى حالتهم حينئذ أن الرسول والذين آمنوا معه يقولون كذا وكذا.[4]

ومن الحمل على المعنى قراءة بعضهم قوله تعالى [**ومنْ يقنتْ منكنّ لله ورسوله وتعملْ صالحاً نؤتِها أجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا**] *(الأحزاب٣٣ /٣١)*

١- الكتاب ج٣ ص١٠٥ .

٢- النحاس إعراب القرآن ج٢ ص١٦٥ ، وانظر : الحجة في القراءات السبع ص ١٦٧ وإعراب القراءات السبع وعللها ج١ ص ٢١٦ .

٣- حجة القراءات ص ١٣٢ . البيان في غريب إعراب القرآن ج١ ص١٥٠ .

٤- مغني اللبيب ص ١٧٠ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بتأنيث " تقنت " ، وهي قراءة نسبها الخليل إلى بعضهم [1] . وتنسب إلى ابن عامر في رواية ، ورواها أبو حاتم عن أبي جعفر وشيبة ونافع ، والقراءة بالفوقانية حملا ل " من " على المعنى ؛ لأن القراءة بالتحتانية هي بالحمل على اللفظ . وقد قال ابن خالويه: " ما سمعت أن أحدا قرأ (ومن يقنت إلا بالتاء)" [2] . ولست أعلم كيف أن عالما جليلا كابن خالويه يقول مثل هذه العبارة ، مع أن قراءة " يقنت " بالياء منسوبة إلى القراء السبعة ، وعبارة ابن مجاهد فيها رد على ابن خالويه . قال : " ولم يختلف الناس في (يقنت) أنها بالياء " [3] .

وجعل الخليل هذه القراءة كأنها صلة " التي " حين عنيت مؤنثا ، فإذا ألحقت التاء في المؤنث ، ألحقت الواو والنون في الجميع .[4] ومعنى كلامه أن الفعل إذا أنث بعد " من " فقد حملت " من " على المعنى ، هذا في حال كون الفعل مفردا ، وإذا جمعت الفعل بعد " من " كان ذلك أيضا بحمل " من " على المعنى.

وأظن أن الذين قرأوا بالتاء ، إنما قرأوا بذلك حتى يتشابه الفعلان " تقنت " و " تعمل " من حيث التأنيث ، ومن حيث حملهما على المعنى .

وقد حمل ابن مسعود وأبي "من" على المعنى في قراءتهما قوله تعالى **[... مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ...]** *(المائدة ٥ /٦٠)* .

بالجمع " وعبدوا الطاغوت " ؛ فإن " من " واحد في اللفظ وجمع في المعنى وقراءة العامة على اللفظ وقراءتهما على المعنى .[5]

---

[1]- الكتاب ج٢ ص ٤٣٦ .

[2]- البحر المحيط ج٧ ص ٢٢١ .

[3]- كتاب السبعة في القراءات ص ٥٢١ .

[4]- الكتاب ج٢ ص ٤٣٦.

[5]- حجة القراءات ص ٢٣٢- ٢٣٣ .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

** قائمة المصادر والمراجع **

١- القرآن الكريم .

• ابن الأثير الحلبي . نجم الدين أحمد بن إسماعيل ت ٧٣٧هـ .
٢- جوهـر الكـنز " تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة " . تحقيق : محمد زغلول سلام . منشأة المعارف بالإسكندرية .

• الأخفش . أبو الحسن . سعيد بن مسعدة ت ٢١٥هـ .
٣- معانـي القـرآن . تحقـيق : فائز فارس . ط٢ سنة ١٩٨١ . مكتبة مركز الدراسات الإسلامية .

• الأزهري خالد بن عبد الله (خالد الأزهري) ت ٩٠٥هـ ,
٤- شـرح التصـريح علـى التوضـيح على ألفية ابن مالك . دار إحياء الكتب العربية . عيسى البابي الحلبي وشركاه .

• الأزهري . أبو منصور محمد بن أحمد ت ٣٧٠هـ .
٥- تهذيـب اللغـة . تحقـيق : عبد السلام هارون . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر .

• استيتية . سمير .
٦- الشرط والاستفهام في الأساليب العربية ط ٢٠٠٠م .

• الأسد . ناصر الدين .
٧- مصادر الشعر الجاهلي . ط٥ سنة ١٩٧٨. دار المعارف – مصر .

• الأسطي . عبد الله محمد .
٨- أبـو عمرو بن العلاء ، اللغوي والنحوي ومكانته العلمية ط١ سنة ١٩٨٦ . الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

• الإسكندري . ناصر الدين أحمد بن المنير الإسكندري ت ٦٨٣هـ .
٩- حاشـية الإسكندري على الكشاف . تحقيق : عبد الرزاق المهدي ط٢ سنة ٢٠٠١. دار إحياء التراث العربي . بيروت – لبنان .

• الأشموني . علي بن محمد بن عيسى ت ٩٠٠هـ .
١٠- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك . تحقيق : عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد ط١٩٩٣ . المكتبة الأزهرية للتراث – مصر .

• الأصبهاني . أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران ت ٣٨١هـ .
١١- المبسـوط في القراءات العشر . تحقيق : سبيع حمزة حاكمي . ط١٩٨٠ . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

• الأصفهاني. أبو القاسم الحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني) ت ٥٠٢هـ.
١٢- المفردات في غريب القرآن . تحقيق : محمد خليل عيتاني ط٣ سنة ٢٠٠١م دار المعرفة ، بيروت – لبنان .

• الأفغاني . سعيد ت ١٩٩٧م .
١٣- في أصول النحو ط١٩٨٧ . المكتب الإسلامي .

• الآلوسي . أبو الفضل شهاب الدين محمود ت ١٢٧٠هـ .
١٤- روح المعانـي فـي تفسـير القرآن العظيم والسبع المثاني . إدارة الطباعة المنيرية . دار إحياء التراث العربي . بيروت – لبنان .

• الأنباري . كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن أبي الوفاء ت ٥٧٧هـ
١٥- أسـرار العربـية . تحقـيق : بـركات يوسف هبود . ط١ سنة ١٩٩٩دار الأرقم بن أبي الأرقم – لبنان .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١٦- الإنصاف في مسائل الخلاف . تقديم : حسن حمد . ط١ سنة ١٩٩٨ . دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان .
١٧- البـيان في غريب إعراب القرآن . تحقيق: طه عبد الحميد طه . مراجعة : مصطفى السقا . ط سنة ١٩٧٠ . الهيئة المصرية العامة للكتاب .
١٨- نزهة الألباء . تحقيق : إبراهيم السامرائي ط٣ سنة ١٩٨٥. مكتبة المنار – الأردن .

• ابن الأنباري . أبو بكر بن الأنباري ت ٣٢٨هـ .
١٩- المذكر والمؤنث . تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة . ط١٩٨١. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . لجنة إحياء التراث – مصر .

• أنيس . إبراهيم ت ١٩٧٨م .
٢٠- دلالة الألفاظ . ط٣ سنة ١٩٧٦. مكتبة الأنجلو المصرية .

• الباقلاني . أبو بكر محمد بن الطيب ت ٤٠٣هـ.
٢١- إعجـاز القـرآن . تحقـيق : عمـاد الدين أحمد حيدر . ط٤ سنة ١٩٩٧ مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت – لبنان .

• البجة . عبد الفتاح حسن .
٢٢- ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية ط١ سنة ١٩٩٨. دار الفكر . عمان – الأردن .

• البستاني . بطرس ت ١٨٨٣م .
٢٣- محيط المحيط . ط١٩٧٧. مكتبة لبنان – بيروت .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

* البقاعي . برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر ت ٨٨٥هـ.
٢٤- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، بعناية : دائرة المعارف العثمانية ط١ سنة ١٩٧٨. مكتبة ابن تيمية . القاهرة – مصر .

* البغدادي . عبد القادر عمر ت ١٠٩٣هـ .
٢٥- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب . تحقيق : عبد السلام هارون . ط١٩٦٨. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر . القاهرة – مصر .

* البيضاوي . أبو سعيد ناصر الدين عبد الله ت ٦٩١هـ .
٢٦- تفسير البيضاوي . ضبط : عبد الرزاق المهدي .ط١ سنة ١٩٩٧ دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان .

* ابن تيمية . أحمد بن عبد الحليم ت ٧٢١هـ .
٢٧- مقدمة في أصول التفسير . تحقيق : محمود محمد محمود نصار ط١٩٨٨. دار الجيل للطباعة – مصر .

* الثعالبي . أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ت ٤٣٠هـ .
٢٨- فقه اللغة وأسرار العربية . ضبط : ياسين الأيوبي ط١ سنة ١٩٩٩. المكتبة العصرية . بيروت – لبنان .

* ابن الجزري . الحافظ أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي ت ٨٣٣هـ .
٢٩- النشر في القراءات العشر . مراجعة : علي محمد الضباع .دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان .

* الجليس النحوي . أبو عبد الله الحسين بن موسى ، ت في حدود ٤٩٠هـ
٣٠- ثمار الصناعة. تحقيق :حنا حداد . ط١ سنة ١٩٩٤. وزارة الثقافة –عمان.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

• الجمحي . ابن سلام ت ٢٣١هـ.
٣١- طبقات فحول الشعراء . تحقيق : محمود شاكر . طبعة المدني .دار النشر .

• ابن جني . أبو الفتح عثمان ت ٣٩٢هـ .
٣٢- الخصائص . تحقيق : محمد علي النجار . المكتبة العلمية .
٣٣- اللمع في العربية. تحقيق: فائز فارس. ط٢ سنة ١٩٩٠.دار الأمل- الأردن.
٣٤- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها . .
تحقيق : محمد عبد القادر عطا . ط١ سنة ١٩٩٨. دار الكتب العلمية .
بيروت – لبنان .

• الجوهري . إسماعيل بن حماد ت ٣٩٣هـ .
٣٥- الصحاح. تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ط٢
سنة ١٩٧٩ . دار العلم للملايين . بيروت – لبنان .

• ابن الحاجب . أبو عمرو عثمان بن عمر ت ٦٤٦هـ .
٣٦- أمالي ابن الحاجب. تحقيق: فخر صالح قدارة ط١٩٨٩.دار الجيل- بيروت.

• الحارثي. عبد الوهاب أبو صفية .
٣٧- دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم . ط١ سنة ١٩٨٩، عمان –
الأردن.

• الحديثي . خديجة .
٣٨- دراسات في كتاب سيبويه . وكالة المطبوعات – الكويت .

• الحريري . القاسم بن علي بن محمد ت ٥١٦هـ .
٣٩- درة الغواص . تحقيق : عبد الحفيظ فرغلي . ط١ سنة ١٩٩٦. دار الجيل
– بيروت . مكتبة التراث الإسلامي . القاهرة – مصر .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

• حسان . تمام .
٤٠- الأصول دراسة إبستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي ط١ سنة ١٩٩١ دار الثقافة – الدار البيضاء .
٤١- اللغة العربية معناها ومبناها ط١٩٩٤. دار الثقافة – الدار البيضاء.

• حسن . عباس ت ١٩٧٨.
٤٢- اللغة والنحو بين القديم والحديث . ط٣ . دار المعارف – مصر .
٤٣- النحو الوافي ط٥ سنة ١٩٧٤ دار المعارف – مصر

• حسين . محمد الخضر ت ١٩٥٨م .
٤٤- دراسات في العربية وتاريخها. ط٢ سنة ١٩٦٠ المكتب الإسلامي– دمشق.

• الحلواني . محمد خير .
٤٥- المفصل في تاريخ النحو العربي ط١ سنة ١٩٧٩. مؤسسة الرسالة – بيروت.

• الحموي. ياقوت. أبو عبد الله الرومي الحموي (ياقوت الحموي) ت٦٢٦هـ
٤٦- معجم الأدباء.ط٣ سنة ١٩٨٠ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

• أبو حيان الأندلسي . محمد بن يوسف ت ٧٤٥هـ .
٤٧- ارتشاف الضرب من لسان العرب . تحقيق : مصطفى النماس ط١ سنة ١٩٨٤. مطبعة الذهبي .
٤٨- البحر المحيط . تحقيق : عادل أحمد عبد المجيد ورفاقه . ط١ سنة ٢٠٠١ دار الكتب العلمية : بيروت – لبنان .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

* حيدر . فريد عوض .
٤٩- علـم الدلالـة ، دراسة نظرية وتطبيقية . ط٢ سنة ١٩٩٩. مكتبة النهضة المصرية . القاهرة – مصر .

* ابن خالويه . الحسين بن أحمد ت ٣٧٠هـ .
٥٠- إعراب القراءات السبع وعللها . تحقيق : عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ط١ سنة ١٩٩٢. مطبعة المدني . القاهرة – مصر .
٥١- الحجة في القراءات السبع ، تحقيق:عبد العال سالم مكرم. ط٥ سنة ١٩٩٠. مؤسسة الرسالة .
٥٢- لـيس في كلام العرب . تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ط٢ سنة ١٩٧٩. مكة المكرمة .

* الخفاجي . شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر ت ١٠٦٩هـ.
٥٣- حاشـية الشهاب على تفسير البيضاوي . تحقيق : عبد الرزاق المهدي .ط١ سنة ١٩٩٧. دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان .

* ابن خلكان . أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ت ٦٨١هـ.
٥٤- وفيات الأعيان . تحقيق : إحسان عباس . دار صادر . بيروت – لبنان .

* دراز . محمد عبد الله .
٥٥- النـبأ العظـيم . نظـرات جديدة في القرآن .ط٢ سنة ١٩٧٠.دار القلم – الكويت .

* ابن دريد. أبو بكر محمد بن الحسن ت ٣٢١هـ.
٥٦- جمهـرة اللغـة . تحقيق : رمزي منير بعلبكي . ط١ سنة ١٩٨٧ دار العلم للملايين . بيروت – لبنان .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

* الذهبي . محمد حسين .
٥٧- التفسير والمفسّرون ط٢ سنة ١٩٧٦.دار الكتب الحديثة ، القاهرة – مصر .

* الراجحي . عبده .
٥٨- فقه اللغة في الكتب العربية ط١٩٨٨.دار المعرفة الجامعية – مصر.

* الرافعي .مصطفى صادق ت١٩٣٧م .
٥٩- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ط٩ سنة ١٩٧٣. دار الكتاب العربي . بيروت – لبنان .

* الرومي . فهد بن عبد الرحمن بن سليمان .
٦٠- بحوث في أصول التفسير ومناهجه .ط٣ سنة ١٤١٦هـ. مكتبة التوبة .

* الزَّبِيدي .محمد مرتضى الحسيني ت ١٢٠٥هـ .
٦١- تاج العروس من جواهر القاموس . الناشر : دار ليبيا للنشر والتوزيع – بنغازي .

* الزجاج . أبو إسحاق إبراهيم بن السّرّيّ ت ٣١١هـ.
٦٢- إعراب القرآن .(منسوب إلى الزجاج).تحقيق: إبراهيم الأبياري .ط١٩٦٣
٦٣- معاني القرآن وإعرابه . تحقيق : عبد الجليل عبده شلبي .ط١ سنة ١٩٨٨ عالم الكتب .بيروت – لبنان .

* الزجاجي .أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق ت ٣٤٠هـ.
٦٤- الإيضاح في علل النحو . تحقيق : مازن المبارك .ط١٩٥٩.مكتبة دار العروبة . القاهرة – مصر .
٦٥- حروف المعاني . تحقيق : علي الحمد .ط٢ سنة ١٩٨٦. دار الرسالة – سورية . دار الأمل – الأردن .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

• أبو زرعة .عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة ت ٤٠٣هـ .
٦٦- حجة القراءات . تحقيق : سعيد الأفغاني .ط٥ سنة ٢٠٠١م مؤسسة الرسالة بيروت – لبنان .

• الزركشي . بدر الدين محمد بن عبد الله ت ٧٩٤هـ.
٦٧- البرهان في علوم القرآن .تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .دار التراث . القاهرة – مصر .

• الزركلي . خير الدين محمود ت ١٩٧٦م .
٦٨- الأعلام ط٦ سنة ١٩٨٤.دار العلم للملايين . بيروت – لبنان .

• الزمخشري . أبو القاسم محمود بن عمر ت ٥٣٨هـ.
٦٩- أساس البلاغة . تحقيق : محمد باسل .ط١ سنة ١٩٩٨. دار الكتب العلمية بيروت – لبنان .
٧٠- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . تحقيق : عبد الرزاق المهدي ط٢ سنة ٢٠٠١. دار إحياء التراث العربي . بيروت – لبنان .

• زيدان . جرجي ت ١٩١٤م .
٧١- تاريخ آداب اللغة العربية . دار الهلال . القاهرة – مصر .

• السامرائي . إبراهيم .
٧٢- المدارس النحوية . أسطورة وواقع . دار الفكر للنشر والتوزيع .
٧٣- من وحي القرآن . ط١ سنة ١٩٨١. مؤسسة المطبوعات العربية بيروت – لبنان .
٧٤- النحو العربي . نقد وبناء .ط١ سنة ١٩٩٧. دار البيارق – بيروت . دار عمار – عمان .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

• السامرائي . فاضل صالح .
٧٥- بلاغـــة الكلمـــة في التعبير القرآني .ط٢ سنة ٢٠٠١. دار عمار . عمان – الأردن .

• السجستاني – أبو بكر محمد بن عُزَيْز أو عُزَيْر . ت٣٣٠هـــ.
٧٦- تفســير غريــب القرآن . تحقيق : محمد الصادق قمحاوي ط١٩٧١.مكتبة الجندي . مصر .

• السجستاني . أبو حاتم . سهل بن محمد ت ٢٤٨هـــ.
٧٧- التذكير والتأنيث . تحقيق : إبراهيم السامرائي . مطبعة الصفدي .

• ابن السراج . أبو بكر محمد بن سهل ت ٣١٦هـــ.
٧٨- الأصـــول في النحو . تحقيق : عبد الحسين الفتلي ط٤ سنة ١٩٩٩ مؤسسة الرسالة . بيروت – لبنان .

• السكاكي . أبو يعقوب . يوسف بن أبي بكر ت ٦٢٦هـــ.
٧٩- مفـتاح العلوم . ضبط وشرح : نعيم زرزور .ط١ سنة ١٩٨٣.دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان .

• أبو سكين .عبد الحميد محمد .
٨٠- نظرات في دلالة الألفاظ . ط١٩٨٤. مطبعة الأمانة .

• السمرقندي . أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد ت ٣٧٥هـــ.
٨١- بحـــر العلـــوم . تحقيق : علي محمد معوّض ورفاقه ط١ سنة ١٩٩٣. دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

• سيبويه . أبو بشر ، عمرو بن عثمان بن قَنْبَر ت ١٨٠هـ.
٨٢- الكتاب . تحقيق : إميل بديع يعقوب . ط١ سنة ١٩٩٩. دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان .

• ابن سيده . أبو الحسن . علي بن إسماعيل ت ٤٥٨هـ
٨٣- المخصص. تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي . منشورات دار الآفاق الجديدة . بيروت – لبنان .

• السيرافي . الحسن بن عبد الله بن المرزبان ت ٣٦٨هـ.
٨٤- أخبار النحويين البصريين . تحقيق : طه الزيني ط١ سنة ١٩٥٥.
٨٥- شرح كتاب سيبويه . تحقيق : رمضان عبد التواب ط١٩٩٠ . مركز تحقيق التراث . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

• السيوطي . جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ .
٨٦- الإتقان في علوم القرآن. تحقيق : عصام فارس الخرستاني ط١ سنة ١٩٩٨ دار الجيل . بيروت – لبنان .
٨٧- الاقتراح في علم أصول النحو . تحقيق : محمد حسن الشافعي ط١ سنة ١٩٩٨. دار الكتب العلمية بيروت – لبنان .
٨٨- تفسير الجلالين .(بالاشتراك مع أستاذه جلال الدين المحلي) .
٨٩- الفرائد الجديدة . تحقيق : عبد الكريم المدرس ط ١٩٧٧ . وزارة الأوقاف التراث الإسلامي – العراق .
٩٠- المزهر في علوم اللغة وأنواعها. تحقيق : محمد أحمد جاد المولى ورفاقه. منشورات المكتبة العصرية . بيروت – لبنان .

• ابن الشجري . هبة الله بن علي ت ٥٤٢هـ .
٩١- الأمالي الشجرية . دائرة المعارف العثمانية .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

• ابن شُقير . أبو بكر أحمد بن الحسن ت ٣١٧هـ.
٩٢- المحلـــى " وجـــوه النصب " . تحقيق : فائز فارس ط١ سنة ١٩٨٧مؤسسة الرسالة . بيروت – لبنان .دار الأمل . إربد – الأردن .

• الصالح . صبحي .
٩٣- دراسات في فقه اللغة ط١٤ سنة ٢٠٠٠. دار العلم للملايين. بيروت– لبنان

• الصبان . محمد بن علي ت ١٢٠٦هـ.
٩٤ حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك . دار إحياء الكتب العربية . عيسى البابي الحلبي وشركاه .

• صليبا . جميل .
٩٥- المعجم الفلسفي ط١٩٧١. دار الكتاب العربي . بيروت – لبنان .

• ضيف . شوقي .
٩٦- المدارس النحوية . ط٧ سنة ١٩٩٢.دار المعارف بمصر .

• طبانة . بدوي .
٩٧- معجم البلاغة العربية. ط٤ سنة ١٩٩٧. دار المنارة – جدة. ودار ابن حزم

• الطبري . أبو جعفر . محمد بن جرير ت ٣٢٤هـ.
٩٨- جـــامع البـــيان عـــن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري). تحقيق : محمود شاكر ط١٩٧٢. دار المعارف – مصر .

• طبل . حسن .
٩٩- أسلوب الالتفات في البلاغة العربية ط١ سنة ١٩٩٠.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

• عبابنة . جعفر .
١٠٠- مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي ط١ سنة ١٩٨٤. دار الفكر. عمان – الأردن .

• عبد الباقي . محمد فؤاد ت ١٩٦٨م .
١٠١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . ط١٩٤٥. مطبعة دار الكتب المصرية .

• عبد الرحمن . عائشة ت ١٩٩٨.
١٠٢- الإعجاز البياني للقرآن ط٢ سنة ١٩٨٤. دار المعارف – مصر .

• عبد الرحيم . عبد الجليل .
١٠٣- لغة القرآن الكريم. ط١ سنة ١٩٨١ مكتبة الرسالة الحديثة. عمان – الأردن

• عبد الغفار . السيد أحمد .
١٠٤- من علوم القرآن .دلالات النص . ط١٩٧٧. دار المعرفة الجامعية .

• عدلان علي بن عدلان الموصلي النحوي ت ٦٦٦هـ.
١٠٥- الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب . تحقيق : حاتم صالح الضامن مؤسسة الرسالة .

• ابن عصفور . علي بن مؤمن ت ٦٦٩هـ.
١٠٦- المقرّب . تحقيق : أحمد عبد الستار الجواري وزميله . مطبعة العاني – بغداد .

• عضيمة . محمد عبد الخالق ت ١٩٨٤ م .
١٠٧- دراسات لأسلوب القرآن الكريم . دار الحديث . القاهرة – مصر .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

• ابن عطية الأندلسي . أبو محمد عبد الحق بن غالب ت ٥٤٦هـ .
١٠٨- المحـــرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . " تفسير ابن عطية " . تحقيق : المجلس العلمي بفارس . ط سنة ١٩٧٩.

• العقاد . عباس محمود ت ١٩٦٤م .
١٠٩- اللغة الشاعرة . مطبعة الاستقلال الكبرى . القاهرة – مصر .

• العكبري . أبو البقاء . عبد الله بن الحسين ت ٦١٦هـ .
١١٠- إعـراب القـراءات الشواذ . تحقيق : محمد السيد أحمد عزوز . ط١ سنة ١٩٩٦. عالم الكتب . بيروت – لبنان .
١١١- التبيان في إعراب القرآن . تحقيق : علي محمد البجاوي .ط٢ سنة ١٩٨٧. دار الجيل . بيروت – لبنان .
١١٢- اللـباب في علل البناء والإعراب . تحقيق : غازي مختار طليمات ط١ سنة ١٩٩٥ . دار الفكر المعاصر – لبنان . دار الفكر – سورية .

• العلاونة . أحمد .
١١٣- ذيل الأعلام ط١ سنة ١٩٩٨. دار المنار للنشر والتوزيع – السعودية .

• عمر . أحمد مختار .
١١٤- البحث اللغوي عند العرب .ط٤ سنة ١٩٨٢.عالم الكتب . القاهرة – مصر

• عواد . محمد حسن .
١١٥- تـناوب حـروف الجـر في لغة القرآن . ط١ سنة ١٩٨٢. دار الفرقان . عمان – الأردن .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

* ابن فارس . أبو الحسين ، أحمد بن فارس ت ٣٩٥هـ.
١١٦- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. تحقيق : السيد أحمد صقر. ط١٩٧٧. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه . القاهرة – مصر .
١١٧- معجم مقاييس اللغة . تحقيق : عبد السلام هارون .ط١ سنة ١٩٩١. دار الجيل . بيروت – لبنان .

* الفارسي . أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار ت ٣٧٧هـ.
١١٨- البغداديات." المسائل المشكلة ". تحقيق : صلاح الدين عبد الله السنكاوي . مطبعة العاني – بغداد .
١١٩- المسائل العسكريات . تحقيق : إسماعيل عمايرة . مراجعة : نهاد الموسى ط١ سنة ١٩٨١. منشورات . الجامعة الأردنية .

* الفارقي . أبو نصر الحسن بن أسد ت ٤٨٧هـ .
١٢٠- الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب . تحقيق : سعيد الأفغاني .ط٣ سنة ١٩٨٠ مؤسسة الرسالة . بيروت .

* الفراء . أبو زكريا يحيى بن زياد ت ٢٠٧هـ .
١٢١- معاني القرآن . تحقيق : محمد علي النجار . دار السرور .

* الفرزدق . همام بن غالب ت ١١٠هـ .
١٢٢- الديوان. شرح: علي خريس ط١ سنة ١٩٩٦. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت – لبنان .

© Arabic Digital Library Yarmouk University

• الفيروزآبادي . مجد الدين محمد بن يعقوب ت ٨١٧هـ.
١٢٣- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. تحقيق : محمد علي النجار. المكتبة العلمية . بيروت – لبنان .
١٢٤- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة. تحقيق: محمد البصري ط١ سنة ١٩٨٧ جمعية إحياء التراث الإسلامي. منشورات مركز المخطوطات والتراث.

• الفيومي . أحمد بن محمد بن علي المقري ت ٧٧٠هـ.
١٢٥- المصباح المنير . المكتبة العلمية . بيروت – لبنان .

• ابن قتيبة الدينوري .أبو محمد ، عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦هـ .
١٢٦- أدب الكاتب . تحقيق : محمد الدالي .ط٢ سنة ١٩٩٦. مؤسسة الرسالة .
١٢٧- تفسير غريب القرآن. تحقيق: أحمد صقر ط١٩٥٨.دار إحياء الكتب العربية
١٢٨- الشعر والشعراء . تحقيق : أحمد محمد شاكر . ط١٩٦٦. دار المعارف بمصر .

• القرطبي .أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ت ٦٧١هـ .
١٢٩- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) . تحقيق : محمد إبراهيم الحفناوي. ط١ سنة ١٩٩٤. دار الحديث . القاهرة – مصر .

• القيسي . مكي بن أبي طالب ت ٤٣٧هـ .
١٣٠- العمدة في غريب القرآن . تحقيق : يوسف عبد الرحمن مرعشلي ط١ سنة ١٩٨١. مؤسسة الرسالة .
١٣١- مشكل إعراب القرآن . تحقيق : ياسين محمد النواس . ط٢ سنة ٢٠٠٠. اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع . دمشق – سورية .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

• الكسائي . علي بن حمزة ت ١٨٩هـ .
١٣٢- معانـــي القرآن . تقديم : عيسى شحاتة .ط١٩٩٨. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة – مصر .

• الكفوي . أبو البقاء ، أيوب بن موسى الحسيني ت ١٠٩٤هـ.
١٣٣- الكلـيات . " معجـم في المصطلحات والفروق اللغوية " . وضع فهارسه : عدنان درويش وزميلاه . ط١٩٧٦. منشورات وزارة الثقافة .

• الماوردي البصري . أبو الحسن علي بن محمد ت ٤٥٠هـ .
١٣٤- النكـت والعـيون . تعلـيق : السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم ط١ سنة ١٩٩٢ دار الكتب العلمية – بيروت . مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت .

• المبارك . مازن .
١٣٥- النحو العربي : العلة النحوية نشأتها وتطورها.ط٢ سنة ١٩٧١. دار الفكر.

• المبرّد : محمد بن يزيد ت ٢٨٦هـ .
١٣٦- الكامل في اللغة والأدب . مكتبة المعارف . بيروت .
١٣٧- المقتضب. تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة . عالم الكتب . بيروت .

• ابن مجاهد . أبو بكر ، أحمد بن موسى بن العباس ت ٣٢٤هـ .
١٣٨- كتاب السبعة في القراءات . تحقيق : شوقي ضيف ط١٩٧٢. دار المعارف بمصر .

• المخزومي . مهدي ت ١٩٩٣م .
١٣٩- الخلـيل بـن أحمد. أعماله ومنهجه . ط٣ سنة ١٩٨٦. دار الرائد العربي بيروت – لبنان .
١٤٠- الدرس النحوي في بغداد. ط٢ سنة ١٩٨٧.دار الرائد العربي – بيروت .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١٤١- الفراهيدي، عبقري من البصرة ط٢ سنة ١٩٨٩ دار الشؤون الثقافية العامة.
١٤٢- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو. ط٢ سنة ١٩٥٨. مصطفى البابي الحلبي .

• المرتضـــى (الشـــريف المرتضـــى) . علي بن الحسين الموسوي العلوي ت ٤٣٦هـ
١٤٣- الأمالـــي " غرر الفوائد ودرر القلائد " . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط٢ سنة ١٩٦٧. دار الكتب العربي . بيروت .

• المرطعني . عبد العظيم إبراهيم محمد .
١٤٤- مناهج تطبيقية في توظيف اللغة ط١ سنة ١٩٩٦.مكتبة وهبة .

• مصطفى . إبراهيم ت ١٩٦٢م . ورفاقه .
١٤٥- الوسيط ط٦ سنة ١٩٩٤.

• ابن مضاء . القرطبي ت ٥٩٢هـ.
١٤٦- الـــرد على النحاة . تحقيق : شوقي ضيف. ط٢ سنة ١٩٨٢. دار المعارف بمصر .

• مكرم . عبد العال سالم .
١٤٧- شـــواهد ســـيبويه مـــن المعلقـــات في ميزان النقد ط١ سنة ١٩٨٧ مؤسسة الرسالة . بيروت .

• ابن منظور . أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت ٧١١هـ .
١٤٨- لسان العرب . دار صادر . بيروت .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

* ناصف . علي النجدي ت ١٩٨٢م .
١٤٩- سيبويه إمام النحاة ط٢ سنة ١٩٧٩. عالم الكتب .

* النحاس . أبو جعفر ، أحمد بن محمد بن إسماعيل ت ٣٣٨هـ .
١٥٠- إعراب القرآن . تحقيق : زهير غازي زاهد . ط٣ سنة ١٩٨٨ عالم الكتب – بيروت .

* نصار . حسين .
١٥١- يونس بن حبيب ط١٩٦٨. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .

* نور الدين . عصام .
١٥٢- تاريخ النحو ، المدخل ، النشأة ، التأسيس ، ط١ سنة ١٩٩٥. دار الفكر اللبناني – بيروت .

* الهروي . أبو الحسن ، علي بن محمد ت ٤١٥هـ .
١٥٣- الأزهية في علم الحروف . تحقيق : عبد المعين الملوحي . ط١ سنة ١٩٨١ مجمع اللغة العربية بدمشق .

* ابن هشام جمال الدين بن هشام الأنصاري ت ٧٦١هـ .
١٥٤- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب . تحقيق : مازن المبارك وزميله ط١ سنة ١٩٩٢ .دار الفكر . بيروت .

* أبو واصل . محمود .
١٥٥- شذرات نفيسات من أبحاث متنوعات ط١ سنة ١٩٨٨. عمان – الأردن .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

• ياسوف . أحمد .
١٥٦- مـــن جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير ط١ سنة ١٩٩٤. دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع .

• اليزيدي . عبد الرحمن عبد الله بن يحيى بن المبارك ت ٢٣٧هـــ .
١٥٧- غريب القرآن وتفسيره . تحقيق : محمد سليم الحاج ط١ سنة ١٩٨٥. عالم الكتب .

• يعقوب . إميل بديع .
١٥٨- معجم الخطأ والصواب في اللغة ط١سنة ١٩٨٣. دار العلم للملايين، بيروت

• ابن يعيش . أبو البقاء . يعيش بن علي ت ٦٤٣هـــ .
١٥٩- شـــرح المفصـــل . تقديم : إميل يعقوب ط١ سنة٢٠٠١ دار الكتب العلمية بيروت

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

*** المجلات والدوريات والرسائل الجامعية ***

١٦٠- الأنصـــاري . أحمـــد مكي . التيار القياسي في مدرسة البصرة . مجلد ٢٤. حوليات كلية الآداب . جامعة القاهرة .

١٦١- بـــن بوبكـــر . شعبان . الجنس في العربية ، ملاحظات دلالية حول ظاهرة التذكـير والتأنيث . مجلة صناعة المعنى وتأويل النص . مجلة جامعة تونس سنة ١٩٩٢.

١٦٢- جطـــل . مصـــطفى وجانســـيز علي . السياق اللغوي وأثره في الدلالة على معـــنى الطلب وأدواته العدد ٣١ . مجلة بحوث جامعة حلب . سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية سنة ١٩٩٦

١٦٣- حـــبلص . محمد يوسف . الحمل على المعنى عند النحاة العرب . العدد ١٥ حوليات كلية دار العلوم . جامعة القاهرة ط١٩٩٢ . مطبعة جامعة القاهرة

١٦٤- الكـــردي . ســـعد . العلل التعليمية وأهميتها في النحو العربي . مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق سنة ١٩٩٨ . مجلد ٤ .

١٦٥- محمـــود حســـني محمـــود . موقف من يونس بن حبيب . مجلة مجمع اللغة العربية في عمان.(١٩٨٠). مطبعة شوقي معبدي . عمان

١٦٦- موســـى عطـــا . " الخلاف بين نحاة البصرة " . رسالة ماجستير ، إشراف : محيي الدين رمضان – جامعة اليرموك

١٦٧- ناصـــف علـــي النجدي . من أسرار الزيادة في القرآن الكريم . مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة . سنة ١٩٧٨. مجلد ٤١.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

Abstract

Meaning Inflection and its Semantic Effect in the Holy Koran: A Linguistic and Grammatical Study

By: Hassan Othman Mahmoud Othman

A syntactical interpretation is viewed as a cornerstone of discipline of syntax and contributed to its development in terms of concluding rules and adherence, interpretation of a grammatical judgment or basify a grammatical lesson.

Grammarians who adopted the approach of interpretation depended on variety tools which made it more easy for them to understand whatever found in hand of poetic evidences, and Koranic verses. Those tools were embodied in many syntactical causes most important of which are poetic necessity, hearing, inconsistency, referral to origin, and inflection by neighborhood and others. In fact, all those causes smoothly run on the Arab classical spoken language and found steadily. Foremost of which is the cause of meaning inflection. Typically, it is a very simple cause, but in many cases it force one to make regular consultation to some language dictionaries and other linguistic and grammatical works along with exegetic works. Grammarians, on another hand, undertook them to make exegesis of Koranic verses while others viewed them as a sort of violation language order and deviation from its most familiar patterns. They, as a result, subsumed them under rubric of Arabic language encouragement. And it is sufficient for this cause to be favored by this title among its counterparts.

Meaning inflection has many forms or linguistic and grammatical subgroups, which were used by grammarians under the major rubric of meaning inflection that was adopted by grammarians as a way of interpretation texts inconsistent with formal rules. Most significant forms of interpretation they used were to masculinize a feminine, feminize a masculine, saying plural as singular, saying a person or two as plural, to inflect meaning of a term by meaning of the first one whether it was a root or derivative and observing meaning in equivocal terms, plural nouns and inclusion. Similarly, context can be capitalized on to find out meaning since it has a determinant effect on meaning and

© Arabic Digital Library Yarmouk University

understanding speech, this, of course, can be made by revealing the relationship between a word and others, and there is no separation between meanings in a context, as blocking meaning of a word within its context may indicates that it would be a meaning-inflected one. A most powerful way of revealing meaning inflection is semantic derivations, which explain vocabularies and their contextual referential meaning, and the discipline that study semantic derivation is lexicon science. It is necessary; therefore, to consult specialized linguistic works to find out derivation of a word and referential meaning of each derivation, which finally would, facilitates revealing the meaning inflection.

Another facilitator to identify forms of meaning inflection is Koranic exegesis. Where exegetes interpreted a term with another that would be viewed as a method of finding out meaning, which in turn would help in understanding meaning inflection in the Holy Koran.

In brief, the cause of meaning inflection is a graceful one that dissimilar to other sophisticated philosophical causes and is more helpful in understanding the exegesis of the Holy Koran duly and properly.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

** الخاتمة **

إن علـــة الحمـــل علـــى المعنى من العلل التعليمية البسيطة التي استند إليها الـــنحاة واللغويـــون لفهـــم بعـــض مســـتويات اللغة التي وردت في القرآن الكريم والأحاديث النبوية وكلام البلغاء ، وفصيح الكلام منثوراً ومنظوماً .

والحمـــل علـــى المعـــنى هو إعطاء شيء حكم شيء آخر ، وإلحاقه به في حكمـــه وهـــذا مـــن دأب العـــرب وعادتهم ، وهو عندهم سُنّة متبعة مسلوكة ، فإن العـــرب إذا أعطت شيئاً من شيء حكماً ما قابلوا ذلك بأن يعطوا المأخوذ منه حكماً من أحكام صاحبه عمارة بينهما وتتميماً للشبه الجامع لهما .

فهـــذه العلـــة تقوم على إعطاء المقيس حكم المقيس عليه لعلة اشتراكهما في المعـــنى . ولقد استكثر القرآن من استعمالها ليدلل على اتساع هذه اللغة ، وعلى أنّ مذاهـــب الكـــلام لا تضـــيق ، كما أنّ هذه العلة تعدّ أسلوباً من أساليب الإمتاع في اللغـــة ؛ إذ تشد السامع وتسترعي انتباهه لما فيها من عدول عن صيغة إلى أخرى كـــرد المذكـــر إلى المؤنث ، ورد المؤنث إلى المذكر ، وهذا الأخير أكثر دوراناً في القـــرآن مـــن الأول ؛ لأنّه يتفق وذوق العرب في كلامها ؛ كما أنّ ردّ الفرع وهو المؤنث إلى الأصل وهو المذكر أحسن عندهم ؛ لأن المذكر أخف من المؤنث .

وقـــد لاحظـــنا أنّ القـــرآن الكريم ينوع في استعمال الصيغ لهذه الألفاظ من حيـــثُ إفـــرادها وجمعهـــا ، وتذكيرها وتأنيثها ، ومراعاة الجانب المعنوي واللفظي للكلمـــة ، وهذا ضرب من البلاغة وهو " أسلوب الالتفات " ، الذي يعني الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر ، وهو أول محاسن الكلام عند البلاغيين .

وقـــد وجدْتُ أنّ علة الحمل على المعنى وأسلوب الالتفات يلتقيان في بعض الآيـــات . فمـــنهم من جعلها تحت باب الحمل على المعنى ، ومنهم من جعلها تحت باب الالتفات ، والفريقان مصيبان .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إنّ فصائل الحمل على المعنى لا نجدها في سائر العلل النحوية الأخرى ولهذا السبب نجد أنّ مواضع الحمل على المعنى أكثر من مواضع بعض العلل الأخرى في القرآن . وهذه الفصائل تهدف إلى أغراض معنوية ، كالتحقير والتعظيم ، وهذان الغرضان يتمثلان في صورتي حمل المفرد على الجمع وحمل الجمع على المفرد وهاتان الصورتان تتأثران بالسياق .

ألا ترى أنّ الكلام إذا كان في الذم أو التحقير فإنّ الأكثر هو الإفراد فيكون محمولاً على الجمع ؟! وإن كان الكلام وارداً في سياق الثناء والمدح ، فإنّ الأكثر هو الجمع ويكون بمعنى الواحد .

ومن أغراض الحمل على المعنى في القرآن مراعاته الجانب الموسيقي أو السماعي للكلام ، نحو قوله تعالى **[... فقد صغت قلوبُكما ...]** *(التحريم ٦٦/٤)* فالمخاطب في الآية اثنان ، ومع ذلك لم يقل " قلباكما " . نفوراً من النطق بتثنيتين متعاقبتين ، فإنّ قوله " قلوبكما " أخف على المرء نطقاً وسمعاً من لفظ " قلباكما " كما أنّ الحمل على المعنى يراعي فواصل الآيات من حيث الجمع والإفراد كقوله: " شرذمة قليلون " ، " وشرذمة قليلة " . وذلك جانب موسيقي .

ومن أغراض الحمل على المعنى الاقتصاد في اللفظ مع الحفاظ على المعنى وقوة الدلالة ، نحو قوله تعالى **[أو كالذي مرّ على قرية ...]** *(البقرة ٢/٢٥٩)*. إن في هذه الآية تضميناً ، فالكاف ضمنت معنى (رأيت مثل) . ولم أجد أحداً من المتقدمين أو المتأخرين أشار إلى هذا الغرض .

ومن أهداف هذه الدراسة أن الحمل على المعنى يشتمل على أسلوب الالتفات في البلاغة ، لذلك فإن الحمل على المعنى أسلوب بلاغي يشد السامع ويسترعي انتباهه .

ومن أهدافها توضيح أراء علماء اللغة – كابن فارس – الذين رموْا علل النحو بالضعف. ومن أهدافها البحث في أثر السياق في الكشف عن المعنى، وقد أفردت لذلك مبحثاً طويلاً أبرزت فيه أن للسياق دوراً في تحديد صور الحمل على

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المعـــنى . ومـــن أهدافهـــا أيضاً البحث في منهج الخليل بن أحمد الفراهيدي ، رائد مـــنهج تصحيح القياس أو المسمى بالمنهج الخليلي ، فكثيراً ما كان يعول على علة الحمل على المعنى .

تضـــاربت آراء اللغويين والنحاة حول التضمين رفضاً وقبولاً ، ثم اختلفوا فـــي حقيقـــته ، من حيث كونه حقيقة أو أنه خروج عن الحقيقة إلى المجاز توسّعاً . قـــال بعضـــهم إن حـــروف الجر لا ينوب بعضها عن بعض بقياس كما أن أحرف الجـــزم وحـــروف النصـــب كذلك ،وما أوهم ذلك فهو عندهم إمّا مؤوّل تأويلا يقبله اللفـــظ ، وإمـــا على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف ، أو على شذوذ النيابة، وإنّ التخفف من محاكاة الأساليب التي ورد فيها تضمين أحسن.

إنّ الحمـــل على المعنى أمدّ المفسّرين بمدد لا ينفد من الكلمات والدلالات ، ما كانوا ليصلوا إليها لولا اتكاؤهم على المعنى .

فمـــثلاً تأنيث لفظ الفردوس جعل المفسرين يبحثون عن معنى آخرله، فقالوا: هـــو بمعـــنى الجـــنة ، فحسن التأنيث على التفسير. فلو أنّ الله تبارك وتعالى ذكّر الفردوس لما ألفينا المفسّرين ينصرفون إلى التأويل .

كمـــا أنّـــه يؤثّـــر فـــي الوظيفة الإعرابية للكلمة ويحددها . نحو قوله تعالى **[... وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ...]** *(لقمان ٣١/٢٠)*

فـــإنّ كلمة ظاهرة هنا حال . وقد قرأ ابن عامر وابن كثير بالإفراد " نعْمة " إذ حملاهـــا علـــى معنى الجمع " نعم " ، وعندها يصبح إعراب " ظاهرة " صفة لـــ " نعمـــة " فـــتلك القراءة القرآنية . وغيرها الكثير لا تستقيم وجوهها ولا تفهم عللها وحججها إلاّ بالتعويل على علة الحمل على المعنى .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University